

## الملكية الهلينية والانسان الحضارة الهلينية (من القرن الثالث حتى القرن الأول)

هزمت المدينة الجمهورية وانتصرت الملكية . فقامت دول واسعة الأرجاء كثيرة السكان على انقاض مقاطعات صغيرة ارتفعت فيها التواءات ومزق البحر شطآنها، لم تكن كافية لاعالة بضع عشرات الالوف من السكان . وانتقل مركز الثقل في العالم اليوناني نحو الشرق . وانتظم نوع من التعايش الخالص بين اليونان الاوروبية والشرق .

غدا تطور الحضارة اليونانية امراً واجباً ، ولكن في اي اتجاه ياترى ؟

لا ترتضي الملكية بمبدأ الحرية السياسية : فأصبح المواطن تابعاً ، وحل القصر الملكي محل جمعية الشعب . اصف الى ذلك ان الشرق قد ناء على الحضارة الميوندية بجماهيره الغفيرة وثرواته وتحقيقاته الضخمة ودياناته الجذابة وكافة تقاليده التي تخنق الفرد خنقاً .

بيد ان الحضارة الهلينية حققت معجزة الترعير والنمو في العالم اليوناني - الشرقي تحت حماية الملكيات ، مستمرة ، في الوقت نفسه ، في تسهيل تفتح الانسان .

## الفصل الأول

### الاسكندر

### باعث حضارة جديدة

فتح الاسكندر الشرق ، ويغلب على الظن انه كان يستعد ، عند موته ، لفتح الغرب : ومن الجائز جداً ان تقاس الامبراطورية العالمية وحدها بمقياس روحه الفائقة الطبيعية واقتناعه الوطيد بان زفس يعاون ويلهم ابناً بشخصه هو . بيد انه اذا لم يكن لا اول ولا آخر من دغدغه مثل هذا الحلم ، فليس لعمرى من فاتح غيره ترك عمله اثرأً يمثل هذا الاستمرار ، وفي نطاق جغرافي يمثل هذا الاتساع ، وعلى نواح من النشاط البشري يمثل هذا التنوع ، على الرغم من انها ، في طبيعتها ، قليلة التأثير جداً بحيلة خاطفة يقوم بها قائد عسكري . فهو ، بنتائج فتوحاته غير المباشرة قبل الفورية منها ، باعث حضارة جديدة تقوم اهميتها ، في نظرنا ، على ميزتها المسكونية او بالاحرى على طموحها المسكوني .

رعاية الامبراطورية السياسية تقسمت امبراطوريته سياسياً . فقد توفق بعض قواده الى تأسيس ملكيات متميزة ، واضطر ابنائهم الى التخلي عن الامل الذي راود رفاق القائد العظماء ، الواحد بعد الآخر ، في استعادة الوحدة الاولى لمصلحتهم . وقرضت رقع هذه الملكيات منافسات المنافسين على انواعهم ، والانتفاضات القومية التي نهضت بها شعوب بلدية عاصية اصلا او ثائرة على اسيادها ، والنزعات الجائشة في المسدن اليونانية الى الاستقلال . وينتهي تاريخ سلالات عديدة ، لاسباب مختلفة ليس اقلها المنازعات العائلية ، في حالة من الفوضى يرثى لها . ومن ثم فان تفكك امبراطورية الاسكندر ، الذي بدأ غداة موته ، يستمر ، دونما انقطاع تقريباً ، حتى قيام السيطرة الرومانية .

بيد ان هذا المظهر السياسي في التطور يضل ويخدع لانه يخيب الامل بخطة المنحني العام ويولد الاشمزاز بما يستلزمه من بلبلية متزايدة . وان حصر البحث فيه يؤول الى تبسع ازدياد

الخراب ، في حال ان هذا العهد ينهض بعمل بناء ، والمعنى الحقيقي للبناء الذي يخرج من الارض وتعجز قواه عن اتمامه اعظم ما يمكن تصوره .

مسكونية الحضارة الهلينية  
ان الاهمية الحقيقية لحملة الاسكندر تقوم في انها تدفع ، بقوة وجزم ، حركة بدأت قبلها ولكنها انحصرت حتى ذاك العهد في دائرة ضيقة ، اعني بها انتشار الاغريق وحضارتهم خارج العالم اليوناني القديم . ونحن ننتع « بالهليني » العهد الذي يبتدىء بانتصار مقدونيا على الجمهوريات البلدية في اليونان القديمة ولا يلبث ان يتوسع بضم الامبراطورية الفارسية . وتشتق هذه التسمية من اسم « الهلنيين » الذي اطلق على الشرقيين ، ولا سيما اليهود منهم ، الذين اقتبسوا الثقافة اليونانية . فهي تشدد اذن ، وبحق ، على الفوز في استمالة الشعوب التي كانت موضوع الفتح العسكري . وللمرة الاولى في التاريخ بدأ البشر وكأنهم يسلكون طريق وحدة عظيمة في الحياة والاخلاق والاذواق والاعتقادات ، على الرغم من تعدد التخوم التي ما لبثت ان عادت الى الظهور مرة اخرى . ليس من ريب في ان الاسكندر اراد هذه الوحدة ، فجاء خلفاؤه ، عن قصد او عن غير قصد ، تلقائياً او بقوة الاستمرار ، يسلكون الاتجاه نفسه او يوجهون سوام فيه .

ليس من ريب ايضاً في ان الحضارة اليونانية ، في نظر الاسكندر ، يجب ان تؤمن لهذه الوحدة عناصرها الجوهرية . فالاستشراق الذي عبره به بعض رفاقه بكل مرارة ، وتبعهم التقليد القديم في ذلك ، لم يكن الا سطحياً . فهم قد اغتاظوا بنوع خاص من تصميمه على تحقيق الصهر العنصري الذي نفذه عملياً بزواجاته فخمة وانعامات اغدقها على من انضم اليه من الايرانيين : فهما كانت الديانة التي اراد ان يحلها المربة الاولى ، فان هذه التدابير كانت ضرورية لخلق الوحدة البشرية التي بدونها يضيع كل امل بالوحدة المعنوية . ولكن الاسكندر الذي تلمذ على ايدي ارسطو لم يخن الحضارة اليونانية ؛ فهو قد اكتفى بأن يطرح عنها ما يثقلها ، مطبقاً على الظروف الجديدة ما كان منها وثيق الارتباط باشكال سياسيه اعتبرها هو باطلة بسبب قدم عهدها . وكانت الملاحم الهوميروسية ، في نظره ، كافية للدلالة على ان الملكية ، شأن « البولس » ، تؤلف جزءاً من الارث الذي آل امره اليه . ومن ثم فالان التربة اليونانية هي التي فرضها على ابناء الاشراف الايرانيين المدعويين ، شأن ابناء الاشراف المقدونيين ، لان يكونوا رجال الغد في جيشه وامبراطوريته . وقد خضع للنزعة نفسها خلفاؤه اليونانيو الاصل والمفاخرون بيونانيتهم حتى انقراض سلالاتهم . ولكنه كان من المحتم على الحضارة اليونانية ، بفعل توسع نطاقها الجغرافي واتصالها اتصالاً متزايداً بحضارات سبقها بزمن طويل وتكيفها وفقاً لبيئات جديدة ، ان تتطور وتتسرب اليها التأثيرات الاجنبية . وهكذا نشأت وترعرعت الحضارة الهلينية ، اقل نقاء يونانياً من الحضارة الكلاسيكية واقل سمواً ايضاً واقل قوة منطقية ، ولكنها اكثر مرونة وانطباقاً على انسانية متنوعة وواسعة طمحت هي الى استجابة حاجاتها المشتركة .

التسائج من نافل القول ان محاولة هذه الوحدة الادبية ، ينهض بها الاغريق ، قد عرفت غير النجاحات . فان الحركة ، المنطلقة من بلاد صغيرة جداً وقليلة السكان ،

قد تناولت على غير تساوي وبصورة سطحية عموماً ، كتلاً بشرية متراسة مرتبطة بحضاراتها القديمة ومتأثرة بها الى حد بعيد . ولذلك فكثيراً ما استمرت هذه الحضارات القديمة ، على الرغم من انها لم تحرز تحقيقات هامة . فهي قد برهنت منذ زمن متفاوت القدم انها عاجزة عن اي تحقيق جديد . اصف الى ذلك انها ، بحرمانها من قادة الفكر والمجتمع الذين تواروا او انضموا الى الفاتحين ، قد اضطرت الى البقاء مغمورة ، برواسبها القديمة ، في ظلام الطبقات الشعبية ، لا سيما الريفية منها ، المتدنية الثقافة التي لم يعرھا الاغريق اهتمامهم ولم يريدوا ان يروا فيها سوى يد عاملة احتياطية يمكن الاستفادة منها في اعمال استثمارية مجدية . فكان من المحتم ان تبوء المحاولة بالفشل ، ان هي لم تقم بانقلاب جذري . وهي لم تنج قط من هذا المصير . فبعد قرون من الخضوع الظاهر ، ستبرز قوميات محلية بلغاتها وادانها الخاصة .

بيد انه من الزيع ان لا نفر بضخامة مجهود الاغريق وبواقع بعض النجاحات المحققة . وتبرز هذه النجاحات داخل الاراضي التي اشرف الاغريق عليها سياسياً : فالمكاسب في بعض الطبقات الاجتماعية على الاقل ، ولا سيما في الطبقات العليا وفي المدن ، لا محاجة ولا جدال فيها ، وهي تزداد كلما اقتربت من الساحل المتوسطي حيث تجري وتستمر الاتصالات الحمية . وتبرز ايضاً نجاحات اخرى خارج هذا النطاق مردھا جوار احدهى الحضارات العظمى وجاذبيتها الطبيعية . فهناك سلالات شرقية المنشأ ، كسلالة « المتريدات » في كبادوكيا البونتيية او سلالة الارساسيين عند الفارتيين مثلاً ، تتباهى بميوھا للحضارة اليونانية وتقتبسها فعلاً اقتباساً يختلف عمقه باختلاف السلالات . وقد امتدت الحضارة الهلينية نحو الغرب بنوع خاص . فانطلقت من مرسيليا واخذت تشع في غاليا . وقد بدا اثرها في قرطاجة ايضاً بفضل الحروب في صقليا والتجارة . ولكنها تحرز الانتصار الادبي الفعال في روما بفضل علائق هذه باغريق ايطاليا الجنوبية وحملاتها العسكرية وفتوحاتها في حوض المتوسط الشرقي . وكان من اهمية هذا الانتصار ان روما ، بعد ان تغدو وريثة الملوك الهلنيين ، ستسهل ، عن غير قصد اولاً ، وعن تصميم في عهد الامبراطورية ، نجاحات هذه الحضارة التي استساغت هي جوهرها . ومن ثم فان الوثبة التي وثبتها بفضل الاسكندر ، ستدوم ، بفضل روما ، حتى فاجسر عهد الانحطاط في الامبراطورية الرومانية .

## الفصل الثاني

### المثالية الملكية والحكومة الملكية

كان بالامكان تحديد الحضارة الكلاسيكية بانها حضارة « الدولس » . اما الحضارة الهلينية ، اذا ما حاولنا ان نجد لها تحديداً عاماً ، فتبدو وكأنها حضارة « الفاسيلفس » ( الملك ) ، اي الحضارة الملكية . فقد فرض على البشر اطار سياسي جديد ، اوجدته القوة دونا ريب ، ولكنه جاء موافقاً تطور علائقهم الاجتماعية وحتى مفاهيمهم الاجتماعية .

#### ١ - الرواسب والاقتباسات الجمهورية

ليس المقصود بذلك ان المدن قد زالت او فقدت طموحاً ، هو مبرر وجودها ، المخطط البولس الى الاستقلال والسيادة . فهي ، في اليونان نفسها ، تحافظ على ديمومتها ، ولكنها منحلة تلجأ الى التسويات . وقد فرض عليها هذا المصير ضيق اراضيها وقلة سكانها ومواردها ؛ وهي آنذاك دون مستوى القوى التي أوجدتها توسع العالم اليوناني : فكيف يمكنها والحالة هذه الوقوف في وجه ملوك الدول الكبرى ؟ غير ان خضوعها لم يكن يوماً تلقائياً ودائماً ؛ فهي تثور كلما ستحت لها الظروف ، وتتحرر أحياناً ، ولكنها لن تلبث ان ترضى ، صاغرة ، باقامة حاميات عسكرية جديدة في حصونها ، ودفع الفرائض المالية ، وحتى قيام مستبدين يحكمونها متمهدين بإخلادها الى السكينة .

فقد اضمحلت قوتها الماضية المطلقة ولا سيما النسبية . وحدّ انتقال التيارات المدن والحرب الاقتصادية من مواردها . وكما في السابق ، استمرت الحرب ، وهي ابدأ ضحيتها ، وسببها في اكثر الاحيان ، في اضعافها وتخريبها . فالحرب تتطلب وسائل ترقّص نفقاتها يوماً بعد يوم . وتزداد قياسات البوارج الحربية ، فتنهك أثينا نفسها أولاً ثم تمزق نهائياً

عن الاحتفاظ بمرتبتها في هذا التسابق الى التسليح الذي ينتظرها فيه فشل أكيد . وقد بلغ من تقدّم التقنية في البر ، بفضل استخدام الفرسان والآليات ، وحتى الفيلة ، وتدريب الجنود ، ما جعل المتطوعين المدنيين عاجزين عملياً عن مقاومة الجيوش النظامية . واحتفظ المقدونيون بأولويتهم المعترف بها منذ عهد ديموستينس وفيلبوس الثاني . ومن حيث ان الروح الوطنية المحلية وروح التضحية قد خفّت عند المواطنين الذين خيبت البولس آمالهم في ميولهم وحاجتهم الى الأمن والطمأنينة ، فقد تزايد يوماً بعد يوم ، كما سبق وحدث في القرن الرابع ، اللجوء الى المرتزقة الذين يحدّ من عددهم الانفاق الباهظ عليهم . فاضطرت المدن ، كما لم يسبق لها قط ، ان تحاط بالاسوار - وقد عقدت سبارطة نفسها العزم على ذلك - وان تحسن سلاحها الدفاعي على الرغم مما جرّه عليها ذلك من نفقات طائلة : وغالباً ما كانت هذه الاسوار وهذا التحسين دون جدوى بالنظر للتحسن المتزايد في نهج الحرب والحصار .

أضف الى ذلك ان صرامة قانون الحرب لا ترحم مدناً آلت نهائياً الى الضعف على الرغم من تضحيتها المالية والبشرية الكثيرة . والمدينة التي تفتتح عنوة تصبح تحت رحمة المنتصر . ففي السنة ٣٣٥ مثلاً ، أمر الاسكندر بتقويض طيبة ، ولم يستثن فيها سوى بيت واحد هو بيت الشاعر بنذاروس ، احتراماً منه لذكرى هذا الشاعر . وبعد قرن تقريباً ، اعتُمد فيه سلوك أقل فظاظة ، عادت الى الظهور ؟ وتزايدت بفعل أخذ الثار ، أعمال الاستلاب المنظم والتقتيل والنخاسة . وإذا كانت هذه حال المدن ، فماذا عسانا نقول عن الارياف حيث تضيف اللصوصية الموضعية المسلحة اعمالها التخريبية الى ويلات الحرب ؟ وليست روما ، الحريصة على وضع حد سريع للحملات العسكرية النائية وعلى تكنيز خزائنها ، ما يمكن ان يعطينا درساً في الحلم والرفق : فهي قد توصلت بكل صعوبة الى أن توفر ، متأخرة ، عن طريق خضوع صامت أو متملّق ، سلباً محموماً لم تلبث أن عكّرت المناقسات بين قوادها الطامعين .

وهكذا فان المدن اليونانية التي أفقدتها قوتها السياسية مقدونيا أولاً وروما ثانياً ، لم تحصل مقابل ذلك على الازدهار والهدوء اللذين كان بالامكان ان يفسحا لها مكاناً اوسع في نشأة وترعرع حضارة لم تطبع بطابعها .

الاتحادات  
بحث بعضها عن الخلاص في نظام سياسي جديد ، إن لم يكن من حيث مبدأه ، فأقله من حيث تطبيق هذا المبدأ تطبيقاً أكثر شمولاً ومرونة .

منذ زمن طويل ، أتاح صهر دويلات مستقلة في جهاز واحد تكوين مدن أكثر سكاناً وأوسع رقعة ، وبالتالي أقل ضعفاً : فهكذا استفادت أثينا من الاندماج الذي وحد حولها كل الأتيك . والمدينة اليونانية الوحيدة التي تمثل قوة حقيقية ، أقله خلال النصف الاول من العهد الهليني ، هي رودس . ولكنها هي نفسها أيضاً حصيلة اندماج المدن الثلاث التي تقاسمت أرض الجزيرة وبقيت مستقلة حتى أواخر القرن الخامس إلا فيما يعود لعبادة الإله هيليوس المشتركة.

وقد حصل الانصهار فيها ، على كل حال ، باحتراز اكثر منه في أثينا ، لأنه جاء في عهد لاحق . ولم يكن « مدينة » رودس نفسها وجود قبل الوحدة التي تحققت من ثم دون تفضيل مدينة على أخرى ودون اثاره حسد أية مدينة من المدن القديمة الثلاث . أضف الى ذلك أن هذه المدن قد حافظت ، في الدولة الجديدة ، على استقلال اوسع منه في قرى الأتيك . ولا ريب ايضاً في ان السر الحقيقي لقوة رودس يكمن في سبب آخر ، أعني به مركز الجزيرة على طرق التجارة الكبرى في المتوسط الشرقي . فرودس مدينة لهذا المركز بازدهار تجارتها وبثروتها التي أتاحت لها ان تتعمد اسطولاً حربياً حسبت له اعظم الدول حساباً ، وعند الاقتضاء جيشاً برياً توفق الى النزول في آسيا الصغرى ووطئ أقدامه فيها على الرغم من الصعوبات التي اعترضته . غير أن مثل رودس ، التي يعود الفضل في توحيدها الى وجود عبادة مشتركة سابقة ، خلقت بأن يثبت للجميع بأن التضحية بالسيادات الفردية يمكن ان يقابلها ما يعوّض عنها الى حد بعيد .

بيد أن الشركة التي اعتمدت ، على العموم ، آنئذ ، وبصورة فعالة ، لم تسلك هذا الاندماج المنحرف المفضي الى البولس . وقد أدى نجاحها الاكيد ، الذي تبرره رغبة في تنظيم دفاع مشترك ، الى تكوين دول « مركبة » ، أو ، بتعبير أبسط ، الى « الاتحادات » ، دون ان يستوقفنا معنى هذا التعبير الخاص الذي يبين المؤرخون ورجال القانون العصريون المضادة التي بينه وبين معنى « الدول الاتحادية » . فقد يشكل علينا ، أكثر من مرة ، توزيع الدول المركبة بين هاتين الفئتين الكبيرتين اللتين لا تعطياننا في التاريخ القديم ، باستثناء بعض الحالات النادرة ، تخوماً اوضح منها في ايامنا الحاضرة . وليست الكلمة اليونانية المستعملة للدلالة على هذه الدول ما يسهل محاولة هذا التوزيع لانها كلمة عامضة قد تنطبق على الاتحادات بانواعها بما فيها الاخويات الدينية نفسها .

ليس التجديد الهليني في ظهور هذه الاتحادات : فقد وجد منها في اليونان منذ أمد بعيد ؛ وقد يمكننا اطلاق هذا الاسم على « احلاف » سبارطة واثينا اذا ما نظرنا الى بعض مظاهرها . إنما التجديد في تعددها : وقد بلغ من كثرتها ان بعضها قد كوّن اتحاداً آخر يجمع بينها . والجديد فيها ايضاً هو المساواة الحقيقية التي توصلت ، إلا في حالات نادرة جداً ، الى تحقيقها بين المدن المندمجة . وهي قد اخذت درساً ، بهذا الصدد ، من خبرة الماضي . فقد اعترفت الاتحادات السابقة أساساً ، أو تأثرت سريعاً ، « بسيطرة » إحدى المدن ، وحتى اذا كانت انضمامها اختيارياً فان المدن الأخرى قد انتهت أخيراً الى التشكي من تجاوزات المدينة المسيطرة وحاولت خلع نير طاعتها . فكانت النتيجة العملية لهذه الاتحادات الاكثار من المنازعات وزيادة الضعف العام . أما آنذاك فقد اعتمدت أساليب أخرى . فليس هنالك من سيطرة ، بل شعور بمساواة حقيقية قد تؤخذ بعين الاعتبار فيها أهمية الإسهام في المجهود الجماعي .

كانت النتيجة المحتومة لهذا الاحتياط ان المدن القديمة الحاكمة قد نظرت شذراً الى هذه الاتحادات التي ليست مستعدة لأن تعترف لها بمرتبة ممتازة . وكانت نقطة انطلاق الدول الجديدة ، المدعوة لمستقبل زاهر ، في مناطق لم تلعب حتى ذاك العهد سوى دور وضع جداً في تقرير مصير العالم اليوناني سياسياً وأدبياً . فبرزت شعوب جديدة لم تسهم سوى جزئياً في التطور العام للحضارة اليونانية ، شأنها في ذلك شأن المقدونيين قبل فيلبوس الثاني . وكانت لانعزالها هذا الفضل في المحافظة ، اكثر من سواها ، على تضامنها بفضل العبادات المشتركة بينها ، وبفضل ضعف الاقبال على الحياة المدنية ، مما حال دون قيام المدن ، او أقله دون تمتعها باستقلال متعجرف . وكان له الفضل ايضاً في الإقلال من استنزاف قواها في المنازعات العنيفة وفي ابعاد الشبهات الحاسدة عنها .

هذه هي ، بصورة خاصة ، حال الشعبين اللذين كانا الخلايا الأولى للإتحادين الهلنيين الرئيسيين في اليونان القديمة . فقد توصل الايتوليون الذين أقاموا مغمورين على الساحل الشمالي من خليج كورنثوس الى ضم الشطر الاكبر من اليونان الوسطى إليهم بما في ذلك قسم كبير من تساليا . وقد برز ايضاً على الساحل المقابل ، في البلوبونيز ، من مقاطعات جبلية لا ماضي مجيد لها ، اتحاد الآخيين الذين استفادوا من انتصارات روما وتوصلوا الى ضم البلوبونيز كلها .

ما أن ارتسمت حركة الاندفاع هذه بالانتصارات الاولى حتى تجاوزت هذه الانظمة الاتحادية الشعوب حدودها العنصرية . فارتضت أو فرضت أن تنضم اليها مدن غربية عنها حتى ذاك العهد . وقد حدث ، حتى في افضل هذه الاتحادات تنظيماً ، أن يكون للمواطنين هويتان لا بل جنسيتان في الواقع ، الاولى محلية تحدد المدينة التي ينتسبون إليها ، والثانية اتحادية يكون اسمها اسم الشعب مؤسس الاتحاد . فال مواطن الذي من فرسال في تساليا يبقى « فرسالياً » ، ولكنه يصبح بالاضافة الى ذلك « أيتولياً » ، على الرغم من المسافة التي تفصله عن أيتوليا نفسها . والمهم في هذه التسمية الخداعة من الناحية العنصرية انها لا تعني مجرد الضم ، إذ أن النظام المعتمد ، بهذا الصدد ، يعطي ضمانات جدية .

لا ريب في ان المدن المنضمة تتخلى عن قسط من استقلالها . فهي مبدئياً تدير شؤونها بحرية ، وتفرض الحياة المشتركة عملياً ، حتى على هذا الصعيد ، حداً أدنى من التناسق لا ينطوي ، في أغلب الاحيان ، على مستلزمات خطيرة . بيد أن التخلّي الحقيقي يتعلق بالشؤون الخارجية ، الدبلوماسية والحرب ، التي تصبح وقفاً على الحكومة المركزية المنوط بها أمر الاحتكام في الخلافات الممكنة بين المدن المنضمة وتحديد العلائق بالاجانب وتنظيم الجيش الاتحادي واستخدامه . ولكن لا تستطيع مدينة واحدة او مجموع مدن متحالفة التمتع بمركز ممتاز في الحكومة المركزية .

تؤلّف الحكومة المركزية على غرار حكومة البوليس . ولنصرف النظر هنا عن التفاصيل

والفوارق المختلفة وغير الثابتة غالباً . هنالك في الدرجة الاولى جمعية شعبية في أيديها زمام الامور أبوابها مفتوحة لكافة المواطنين البالغين السن القانونية : وهي جمعية البولس نفسها التي لا تتميز عنها إلا بفوارق فنية نادرة . ومن نافل القول ان مكان الاجتماع قد يتغير أحياناً وان المدن تقترح لا الممثلون ، ولكنه يتعذر علينا الجزم ، بسبب افتقارنا الى الدلائل ، بأن هذه التدابير ، القمينة بضمان المساواة بين المدن ، قد اعتمدت في كل مكان . ويقوم الفارق الرئيسي ، وهو طبيعي بفعل المسافات الواجب قطعها ، في ' الجمعية الاتحادية لا تلتئم إلا نادراً . فليس هناك سوى دورات معدودة في مواعيد محددة ، اثنتين او اربع في السنة ، على ما نعلم ، واذا ما واجهت امكانية اجتماعات طارئة ، فان العمل بهذه الامكانية كان نادراً . وما من اتحاد حر واحد ، نستطيع ان نبدي رأينا فيه ، أقر النظام التمثيلي رسمياً اي مجلس النواب : فالاعراف القديمة الاستبدادية تقف في وجه هذا الحل الذي كان من الضروري ان يفرضه اتساع رقعة الاتحاد .

يتضح من ذلك ان سيادة الجمعية لا تبرز الا بصورة عرضية ، وان اشرافها يتراخى ، وان الاجهزة الحكومية الاخرى تتمتع في الواقع بحرية عمل اوسع منها في البولس الديمقراطية القديمة . وهذه الاجهزة هي اولا مجلس او عدة مجالس يتفاوت عدد اعضائها ، وثانيا قضاء يعرف القاضي الاول بينهم باسم « ستراتيغوس » اي قائد الجيش . وقد يحدد القانون ، او التقليد في بعض الحالات ، توزيع المراكز في المجلس بين المدن . وحتى اذا لم يُختط لهذا الامر ، فان تعيين اعضاء المجالس والقضاة يتلافى كل اخطار السيطرة .

من المؤثر حقاً ان نرى الاغريق ، الذين بقوا جمهوريين ورغبوا في الافلات من سيطرة الملكيات الكبرى ، يتلمسون الطريق بغية التوفيق الى حل جديد . فالحق المدني عندهم لم يكن نظاماً قوياً وطيداً كما كان في روما منذ عهد مبكر . ولكن الحق العام قد استأثر بتفكيرهم منذ امد بعيد . وعديدة هي الكتب النظرية او التاريخية المتعلقة بالانظمة التي وضعها اشهر الرجال احياناً . وحين وضع ارسطو او اشرف على وضع ال ١٥٨ دستوراً للمدن ، التي لم يصلنا منها سوى « دستور الاثينيين » ، لم يبتكر قط ناحية قانونية تاريخية . ومن المسلم به ان الطريقة المتبعة بالتفضيل ، ابان العهد الهليني ، - وهي ستستمر زمناً طويلاً حتى في الامبراطورية الرومانية - تقضي بوضع المقالات عن « الملكية » ، وهي على كل حال مقالات فلسفية اكثر منها عملية . ويفسر هذا الاهتمام المستمر ، عند الاغريق ، لعلم الانظمة السياسية ، تنوع الانظمة المعتمدة في الاتحادات . ولكن هنالك ، الى جانب الابتكارات الاربية والمعادلات الثاقبة ، احترازاات يملها الماضي وعادات موروثه عن « البولس » ، وتقاليد مرفوعة الى مستوى المبادئ ، تلجم الخيلة الجائعة وتمنع بعض الجسارات التي قد تبررها ظروف كلية الجدة .

الديموقراطية : ظواهر وقائع  
مما يسترعي الانتباه ، في المدن الهلينية والاتحادات الحرة على السواء ان مظاهرها النظام الخارجية ديموقراطية ابداً . فالشريعة لا تضع ، في

الظروف العادية ، اي شرط مالي للتمتع بحقوق المواطن المطلقة وممارستها ، وهي من حيث المبدأ متساوية للجميع . فالجمعية العمومية ذات سيادة مطلقة . والقضاة الذين ينتخبون كل سنة ، لا يعاد انتخابهم فوراً ، وذلك لتجنب الاستبداد العملي ولا فاحة الادعاء على ادارتهم . اما ائتنا الكلاسيكية ، فقد استثنت قوادها العسكريين من هذه القاعدة ، رغبة منها في الاستفادة بحرية من خبرتهم العسكرية . ولكن هذا الاحتياط الصارم ، على الرغم من حرجة الاخطار الخارجية شبه الدائمة ، وعلى الرغم من تقدم فن الحرب واهمية الدور الذي يلعبه فيها الممتنون ، لم يستثن منذئذ قواد الجيوش انفسهم .

فاذا ما استندنا الى التنظيم النظري ، نرى صحة ما تعبر عنه النصوص المعاصرة ، الرسمية وغير الرسمية ، التي تشدد على « ديمقراطية » هذه الانظمة . اجل ان هذه الكلمة في معجم ذاك العهد لا تعني احيانا سوى « الجمهورية » التي تقابل الملكية السائدة اذ ذاك ، ولكنها في حالات كثيرة ترتدي معناها القديم الذي يقابل « الارستوقراطية » . ويبدو في الواقع من كل القرائن ، في الصراع القديم ، الطويل والدامي ، بين المثاليين ، ان الديمقراطية هي التي تغلبت في النهاية ، بفضل نفوذ ائتنا وتقهر سبارطة ، كما تراءى ذلك من سير التطور منذ القرن الرابع .

بيد ان ذلك لم يكن الا ظاهراً فحسب . فحيثما نستطع الوقوف على سير الامور العملي نرى ان هذه الأنظمة لا تطبق إلا ديمقراطياً . فحتى في المدينة التي كانت مقررّة فيها ، كأثينا مثلاً ، الغيت التعويضات التي أتاحت للمواطنين الفقراء تكريس وقتهم لخدمة الدولة سياسياً ، كقضاة او أعضاء مجلس او أعضاء جمعية . وقد أفضى زوال هذه التعويضات من الواقع الديمقراطي الى زوالها بصورة طبيعية من المثل الأعلى الديمقراطي الرسمي أيضاً . وليس العجز المالي دائماً السبب الحقيقي لهذا الإلغاء ، إذ أن المسؤولين لا يترددون في شجبها شجباً مبدئياً ، ناظرين اليها نظرهم الى نظام فوضوي يدعو الى الأسف ؛ وقد حدث ان رفضوا رؤوس أموال هامة مقدّمة لإيجاد هذه التعويضات . فأصبح محتماً والحالة هذه على ممثلي الطبقات الشعبية المرغمين على العمل الدائم لتأمين أودهم وأود عائلاتهم ان يبعدوا عملياً عن الوظائف العامة ، وفي أغلب الاحيان ان لا يشتركوا في أعمال الجمعية ، لاسيما في الاتحادات حيث يستوجب حضور الجلسات اجور نقل باهظة بسبب بُعد المسافات . ولكن هذا التغيير على كل حال ليس سوى أبرز وأهم ما حصل من تغييرات . فهناك اساليب أخرى كثيرة قد لا تكون كلها صادرة عن تدابير مكرية بل عن التطور العام في المجتمع والاخلاق فقط ، ولكن نتائجها كلها تتجه نحو وضع خاص لا جدال فيه : ان هذه الأنظمة الجمهورية الهلنسية ، الديمقراطية نظرياً ، تؤمن في كل مكان تقريباً احتكار السلطة لطبقة اهل المدن الميسورين المثقفين ، المتكبرين لإصلاح اجتماعي من شأنه ان يضر بمصالحهم .

لما كانت الازمة الاجتماعية قد تفاقمت إذ ذاك لارتباطها بالوضع الاقتصادي ، لم يكن

التوجيه الطبيعي للسياسة الداخلية ليسهل تهدئتها . فرسخت الروح الثورية ، وبعنف في أغلب الأحيان ، في نفوس المستائين الذين ليس امامهم أي مخرج شرعي مفتوح ، ففعل هذا التوتر فعله في مصير اليونان . وكان خطر الاضطرابات الاجتماعية ، وقيامها الفعلي احياناً ، عامل بلبلة اضافياً في العلاقات الدولية . فهي تسبب او تعقّد الحروب الأهلية والحروب بين الدول ، وتجزيء ، وبالتالي تضعف المقاومة في وجه العدو . وهي تفسر جزئياً الاخفاق النهائي الذي منيت به الحركة الاتحادية التي بدت قوية في منتصف القرن الثالث ولم تنل مع ذلك ، في انقاذ استقلال اليونان القديمة . وقد استفادت روما بنوع خاص من هذه الشقاات العميقة الجذور .

## ٢ - مشالية الملكية الهلنستية

اصول الملكية الهلنستية  
 بيد ان النظام الجمهوري ، بلدياً كان ام اتحادياً ، لم يستمر إلا في جزء صغير جداً من العالم اليوناني الذي وسعت تحوّمه فتوحات الاسكندر : فان الملكية هي ما يسيطر على العهد ويميزه سياسياً من كافة الوجوه .

على الرغم من ان الاغريق قد عرفوا الملكية في بلادهم في العهود القديمة ، فانهم قد نظروا اليها ، أثناء العهد الكلاسيكي ، نظرتهم الى نظام أدنى ، خليق بالبرابرة وغريب عن الحضارة اليونانية ، لانها قامت حينذاك في مناطق بعيدة عن اليونان الوسطى ، متاخمة لعالمهم الأصلي . ولكن الفردية ، منذ أواخر القرن الخامس ، قد حطمت طوق المساواة الذي جمعت «البولس» داخله عووم المواطنين ، وذلك بتأثير استهواء الحروب للرأي العام وتأثيرها العميق المتزايد في الأنظمة الاجتماعية والذهنيات . فالجماهير نظرت الى القائد المنتصر نظرتها الى بطل ، مستعدة من جهة ثانية لافقاده حظوته عندها بمثل السرعة التي رفعتة فيها الى الأوج . فالقيبيادس وليساندروس مثلاً ، ونكتفي بذكرهما لأنها أشهر القواد ، قد نجوا من القسر المدني ، ورمزت أعمالهما التي لا تضاهى الى قدم المفاهيم الكلاسيكية . أضف الى ذلك ان بعض كتاب القرن الرابع المتكرين ، بفعل نزعاتهم الشخصية ، للديموقراطية ، والسريعي التأثير بنقائصها قد باشروا تصميم المثل الأدبي والعملية الأعلى للملك ، جاعلين منه رجلاً فوق الرجال بعدله وعقله ومواهبه وسعادتته كرجل دولة وقائد عسكري وصلت به بالالوهية في آخر المطاف .

جاءت الاحداث فجأة تؤيد وتعزز هذا المثل الأعلى . فمن احدى المناطق المتاخمة ليونان ، برز ملك هو فيلبوس الثاني المقدوني الذي انتصر على المدن . وفتح ابنه الاسكندر الشرق وحقق مآثر بدت وكأنها تفوق الاقيسة البشرية . فتخلّص التنافس بين الاطباع الشخصية من قيوده ؛ ولكن انتى له تسهيل عودة النظام والاعراف القديمة ؟ فان هذه الاطباع ، من جهة ، استندت الى وجود جيوش تختلف كل الاختلاف ، بضخامتها وتكوينها وانظمتها ، عن

جيوش المدن الجمهورية ، ولم يكن باستطاعة احد قط ان يعيد تكوين هذه الجيوش الملكية لجعلها ماثلة لجيوش المدن . ولم يكن باستطاعة اية مدينة ، حتى اذا كان لديها من الثروة ما يسمح باستخدام احد هذه الجيوش ، ان تؤمن قيادته . فاذا كان طمع الزعماء قد افضى ، والحالة هذه ، الى بقاء الجيوش ، فان هذا البقاء نفسه قد جعل من الملكية شيئاً لا مناص منه واوجد الزعماء الطامعين . ومن جهة ثانية ، اشتمل إرث الاسكندر ، الذي لم يكن اي اغريقي ليرضى بالتنازل عنه ، على اراض شاسعة- وشعوب غريبة عن الحضارة اليونانية الفت السلطنة الملكية القمينة وحدها بتنظيم استثمارها . فمن الجلي مثلاً انه يستحيل على مدينة ان تحكم مصر وبلاد بابل . ثم ان الملكيات الهلينية التي تباغت بيونانياتها لم تنبثق عن ملكيات شرقية . وهي لم تقتبس سوى النزر اليسير عن الملكية الفارسية التي اعلن الاسكندر نفسه خلفها المباشر . وقد اعتبرها سكان المنطقة الاصليون ، الذين احببتهم بعض الشيء ، بمثابة الملكية الفرعونية او الملكية البابلية اللتين زالتا منذ زمن بعيد . ولكن واقسع السيطرة اليونانية على الشرق له من الاهمية ، لتفسير قيام الملكيات الهلينية وبقائها ، ما لواقع منشئها العسكري .

كانت النتيجة رجحان النظام الملكي ، في كافة انحاء العالم الهليني ، حتى امتداد وقوة الواقع الملكي قيام السيادة الرومانية . وقد تغير توزيع اراضي هذا العالم بين الملكيات لا سيما خلال نصف قرن من عدم الاستقرار بعد موت الاسكندر . واذا ما نظرنا نظرة شاملة الى العهد ، تبين لنا ان عدد الملكيات قد نزع باستمرار الى الازدياد . فلسنا نشاهد اذ ذاك حصر السلطة السياسية ، بل تفتتها ، وهذا يثبت بعد الملكيات عن الكمال .

من الممل والحالة هذه ان نحاول احصاء الملكيات احصاء كاملاً . ولكن الواجب يقضي بان نذكر اهمتها . فقد كانت ملكيات الانتيفونيين في مقدونيا السبّاقة في الزوال حين قضت عليها روما في السنة ١٦٧ . وقد تأخر الاطاليون في آسيا الصغرى في الحصول على اللقب الملكي في « برغاموس » ، وساعدهم تحالفهم مع الرومان في السنة ١٨٨ على توسيع اراضيهم توسيعاً هاماً ، ولكن وصية « اطلال » الثالث الذي مات دون عقب في السنة ١٣٣ جعلت من روما وريثة ممتلكاته . وكان السلوقيون في البداية ، بفعل سيطرتهم على آسيا الصغرى وسوريا وبلاد بابل ويران ، الحلفاء الرئيسيين للملوك الفرس ؛ ولكن ممتلكاتهم ، منذ بداية القرن الثاني تنكش بسرعة لمصلحة الاطاليين والفارتيين ، ولم تكن الملكية سوى مجرد ظل حين ازالها روما في السنة ٦٣ . وفي مصر اخيراً كانت سلطة البطالسة او اللاجيين الاولى في بلوغ الاستقرار ؛ فامتدت في القرن الثالث امتداداً بعيداً في المتوسط الشرقي ، ثم انحصرت في وادي النيل ولم تعش بعد الملكيات الاخرى الا بفضل روما التي لم تقرر ضمها اليها الا في السنة ٣٠ بعد موت كليوباتره .

ان هذا الاستعراض السريع الذي يهمل ، في ما يهمل ، سيراكوزا والملكيات الثانوية في

شمالى اليونان كالأبير التي اشتهرت بفضل « بيروس » ، او فى آسيا الصغرى كبيثينيا والبونت ، مما يجعلنا نحس بالخطاط شبه متواصل ينتهى الى ضعف لا علاج له . ولهذا الاحساس ما يبرره على الصعيد العسكري باستثناء بعض وثبات عارضة . فان روما ، حتى عندما اضطرت فى اوائل القرن الثانى الى توجيه الضربات الحاسمة التى كان الضم نتيجتها ، لم تحتاج الى بذل جهود مماثلة لتلك التى فرضها عليها صراعها ضد قرطاج . ولكن هذا الانحطاط العسكري يستثنى على الاقل قرنا من العظمة والمجد هو القرن الثالث . وحين اخذت الحضارة الهلينية تعطي ثمارها ، كانت جذورها قد بلغت عمقا استطاعت هى معه البقاء على الرغم من هزائنها . فقد تأثرت هذه الحضارة اذن ، فى تكوينها ، بالملكية القوية والغنية آنذاك والمسيطرة على اراض واسعة تحمي وتنتشر فيها الحضارة اليونانية بين البرابرة : ولم يعد للمدينة امامها سوى دور ثانوي .

من نافل القول ان لكل من هذه الملكيات مميزات الخاصة . وتقوم بينها اختلافات المثالية الملكية مبدئية احيانا . فالأبير ومقدونيا ، وهما منطقتان كان سكانها يونانيين او اقربه متأثرين بالحضارة اليونانية ، تعرفان ملكيات قومية كان رعاياها فى الوقت نفسه مواطنين اعضاء فى جماعة : فان الملك رئيس وحامي هذه الجماعة يخضع لعرف تقليدي يجعله خادما لها اكثر منها خادمة له . اما الملكيات الاخرى القائمة فى الشرق فملكيات شخصية . لا شك فى ان بعضها قد خلف ممالك محلية : فالسلوقي يطلق على نفسه ، فى بعض الاحيان النادرة ، لقب « ملك بابل » ، واللاجي يلقب بصورة عادية ، كفرعون ، بـ « هوروس - رع » ، وملك الجنوب والشمال ، وهوروس الذهبي ، وملك مصر العليا والسفلى ، وابن رع ، ويخضع منذ اوائل القرن الثالث تقريبا لمراسم التتويج فى منف . ولكن هذا المظهر ، الذى يختلف كليا عن ذلك الذى يضيفه على الملكية الانتيجونية لقب « ملك المقدونيين » ، لا قيمة له الا للمواطنين الاصليين دون غيرهم . فالاغريق لا يعرفون سوى « الملك » ( فاسيلفس ) بطليموس « او » الملك ساوقس « ، وتشير هذه التسمية الى الصفة الشخصية فى الملكية ، اذ ان الكلمة الاولى ، التى تقوم مقام الاسم الشخصي ، انما تحدد صفة لا وظيفة : فمن حيث ان الدولة لا وجود خاص ومستقل لها عن الملك ، فانها لا تعتبر الا ملكا له فحسب .

انتشر هذا المفهوم انتشار بقعة الزيت فتسرب الى الملكيات القومية نفسها . وهو يعتبر عن مثالية واسعة الانتشار ايضا . فان الفلاسفة ، الى اية مدرسة انتموا ، قد تابعوا عمل مفكري القرن الرابع وتعمقوا فى النظرية الملكية وتوصل بعضهم الى مثال ملك سيد العالم ، فريد فى نوعه ، مماثل للحكيم بالذات ، اقله فى نظر الرواقيين . ولكن نظرية متوسطة واسعة الانتشار قد برزت ، صارفة النظر عن المجادلات وعن هذه الآفاق الواسعة التى تصطدم ، فى الوقائع ، بتعدد الملكيات .

الملك هو ذو الخطوة عند الإله الذى يعضده ويلهمه . وتظهر المواهب النادرة التى هو مدين للإله بها ، ظهورا لا جدال فيه ، فى الانتصار الذى هو افضل قياس لتفوقه . فالانتصار الذى

يريده الإله ويعطيه يثبت في آن واحد التمتع بالمواهب العسكرية وقوة الاشعاع على الجنود الذين لم يحب اخلاصهم الوفي .

ان الملك هو بالضرورة قائد جيش - كما يؤيد ذلك مثل الاسكندر والمنازعات التي عقت موته . عليه ان يسير على رأس جنوده في اشد الظروف خطراً ؛ فمن أصل ١٤ ملكاً سلوقيا ، لاقى عشرة حتفهم في ساحات الوغى . وعلى الملك من جهة ثانية ، بفعل السلطة المنبثقة عن صفته وعن شخصه ، وبفعل الاعجاب الذي يشد اليه رجالا آخرين ، ان يحيط نفسه باصدقاء ورفاق وجنود لا يتراجعون ، في سبيل مساعدته ، امام التضحيات على أنواعها ، ويؤيد ثباتهم ، في اشد الساعات حرجية ، صفاته التي لا تضاهيها صفات .

لو طبقت هذه النظرية بصورة الزامية لأفضت الى جعل القلقة عقيدة ايمانية . فان هذه النظرية هي التي بررت الاغتصاب وتجزئة الملكيات الكبرى ؛ وقد بنى الثائرون ، على الانتصار وهتاف جنودهم حقهم في لقب « الفاسيلفس » وهم انما اعداوا بذلك ما فعله قواد الاسكندر عند نشأة هذه السلالات الملكية . ولكن المسؤولين لم يلبثوا ان تفادوا أخطار الفوضى الملازمة لهذه المثالية عن طريق مبدأ الشرعية . فحاولوا بالفعل ان يبدلوا ، لمصلحة السلالة ، مفهوم الانسان المتفوق الحائز على العطف الالهي ، ونثروا الاساطير حول دور هذا او ذاك من الآلهة في مولد احد الجدود . اجل لم يكن النجاح كاملاً ولكنه لم يكن دون اثر : ففقد الانتساب الى سلالة من الملوك المتعاقبين عنصراً طبيعياً من عناصر صفات الفاسيلفس الشخصية .

كثيراً ما يعبر عن هذه الصفات بلفظة « اريتي » التي لا يعبر تعريبها بلفظة « فضيلة » عما تنطوي عليه من ايهام وغنى في المعاني. فلفظة « اريتي » تشتمل في الحقيقة على صفات من كل نوع ، عسكرية ، وسياسية ، وفكرية ، وأخلاقية أيضاً . وتستلزم الشجاعة والعدل والعقل التشريعي والاداري والعزم والرفق و « محبة الناس » والتقوى . واذا ما اضيفت كل هذه الصفات الى القوة والثروة اللتين ينطوي عليهما المثال الملكي أيضاً ، فانها تصبح ملموسة في « احسانات » الملك نحو أعضاء بطانته ورعاياه . فالملك اذن ، في جوهره هو « المحسن » و « النصير » و « المخلص » كما درجت العادة في تسميته رسمياً . وهنالك لفظة أخرى ذات معنى شامل ومبهم ايضاً استخدمت لغايتين : « افنويا » أي العطف أو بالأحرى الارادة الحسنة والاستعدادات الطيبة . فقد استعملت لتحديد سلوك وعواطف الملك حيال الناس الآخرين ، الأصدقاء والجنود والرعايا والشعوب الخليفة ، ولتحديد سلوك وعواطف هؤلاء الناس أنفسهم نحو الملك .

لا حاجة للفت النظر الى ما تتطلبه هذه المثالية من اضافة صفات كالية ، مع ان الملوك الهلنيين بشر ، وبشر حقيرون في أغلب الأحيان . وليست الدعاوة والزلفى وحدهما ما أحاطهم بمثل هذا التجلّي . فان المواطن الوضع الذي تعترضه صعوبات الحياة وتجاوزات

المستبدين المحليين قد رأى في الملك الملجأ الأخير ، الوحيد ، الذي يمكنه ان يضع آماله في عدله وكرمه . فكل شيء إذن قد تبدل وانهار في المبدأ الاساسي للخضاعة اليونانية الكلاسيكية المبني على المثل الأعلى للانسان ، المواطن الحر ، المساوي لغيره من البشر الأحرار ، والمتمتع في وحدة المدينة ، بالحماية والبيئة الفضلى لعمله ونموه . فالانسان ، في العهد الهلنستي يرتفع بأنظاره المليئة بعرفان الجميل والأمل نحو انسان يعترف ويعجب بتفوقه . أجل ، ان الحكيم – وهذا ما انتهت اليه عدة مدارس فلسفية – يحافظ على حريته ، ولكنه يعطي هذه الحرية معنى عقلياً ولا سيما جمالياً : أي ان المقصود هو حرية الفكر ، وحرية الروح حيال الاهواء . فالحكيم ملك والحالة هذه ، أقله على نفسه . ولكن الانسان الوحيد الحر بكل ما للتعبير من معنى ، والقادر وحده على تحقيق كمال نحو طبيعته الانسانية ، هو الملك .

الحق الملكي والاخلاق الملكية  
ان النتيجة العملية لهذه المثالية هي السلطة الملكية المطلقة . لا شك في ان الملك مقيد بواجبات ، وبواجبات أدبية في الدرجة الأولى ، ولكن تقيده بها لا يخضع لأية رقابة . فقد درجت العادة يوماً بعد يوم على القول إن الملك هو « الشريعة الحية » ، وسيصادف هذا التعبير نجاحاً متادياً . وهو ينطوي ، في أقوى معانيه ، على ما يقصد اليوم بالتعبير : « الارادة المطلقة » وقد أيدته تأكيدات مثل هذا : « ان ما يقره الملك هو عادل أبداً » .

وقد بلغ من أمر السلطة الملكية المطلقة انها تغلبت على حق سلالي هو حق 'مطيل' ، على كل حال ، وغير مجموع في كتاب . فالخلافة الطبيعية تنتقل الى البكر بين الذكور ، ولكن خيار الملك قد يقف حاجزاً دون ذلك . وكذلك أيضاً ، إذا كانت وحدة الزواج هي القانون وإذا احتلت الملكة مرتبة تفوق مرتبة السرايري الى حد بعيد ، فاننا نعرف أبناء زنى أقر بهم شرعاً فضّلهم آبائهم على الأبناء الشرعيين . وقد اعتمدت أحياناً الشراكة في الملك : نادراً بين الاخوة – وتبدو إذ ذاك مفروضة فرضاً على البكر – وأكثر حدوثاً بين الأب وابنه – وهي إذ ذاك في الدرجة الأولى ، حيلة غايتها تجنب شغور مركز الملك حتى لفترة قصيرة . ولكن ما حدث لا يخرج في الحقيقة عن مجرد ولاية مشتركة لا تؤدي الى قسمة المملكة لمدة طويلة . فالميوعة إذن هي الميزة الرئيسية لهذا الحق السلالي الذي هو في طريق التكون البطيء وتعترضه دسائس البلاط وبوادر العصيان أو الثورات ، والذي يخضع فيه نفوذ الحق العائلي اليوناني لصلحة السلالة التي تقضي باستبعاد قسمة الخلافة ، ولسلطة الارادة الملكية أحياناً .

ومن الصعوبة بمكان أيضاً ان نحاول أحد أغرب مظاهر الملكية الهلنسية ، أعني به استراك الأخ واخته ، المتحدين بالزواج ، في الملكية . ليس من ريب في ان بعض الظروف الطارئة تفسر قيام هذه الشراكة التي يتعذر علينا تعليلها إذا ما أغفلنا حياة ارسينوي السابقة وطباعها الشخصية وطباع بطليموس الثاني الذي خالف ، في زواجه منها ، الأخلاق اليونانية التي اعتبرت

الزواج بين الاخوة عمل زنى . ولكن لماذا اتبع البطالسة فيما بعد ، باستثناء حالات نادرة ، هذه الخطة يا ترى ؟ يستحيل ، بكل تأكيد ، ان لا نسلّم هنا بتأثير العادات المصرية التي لم تتنكر للزواج بين الاخوة . غير ان الملكية السلوقية نفسها قد تأثرت بهذا العرف الذي انتقل اليها من الاسكندرية : فمنذ عهد مبكر نسبياً ، لقبّت الملكة السلوقية ، مع أنها غريبة ، بلقب « الشقيقة » الرسمي ، وقد حدث فعلاً في أوائل القرن الثاني ان زوج احد الملوك ابنه من إحدى بناته التي تزوجت على التوالي ، بعد ارماعها ، من أخوين آخرين عند تسلمها زمام الملك بدورها . هذه هي الحادثة الوحيدة على ما نعلم ؛ فقد حالت المصادفة والاعتبارات الدبلوماسية دون رسوخ وشمول هذه الأعراف خارج مصر . ولكن لهذا الإعداء مغزاه على الرغم من سرعة زواله : ان الحرص على نقاء الدم والاحتياط لمطالبات ممكنة قد يقدم عليها أنساب بعيدون قد لعبا دورهما في تخطي موجبات الأخلاق اليونانية . وبذلك اثبت الملوك مرة أخرى انهم رجال يختلفون عن البشرية المتوسطة .

أما شارات الملك الخارجية فانها تدعو في الحقيقة الى الدهشة ببساطتها ورسالتها . فالبرة الرسمية هي أبداً البرة المقدونية التي هي في الواقع برة الميدان أي السُّوق والمعطف المتسَدِّل والخوذة أو القبعة الواسعة الأطراف ؛ ولم يكن اللون الأرجواني نفسه في المعطف والقبعة وقفاً على الملك ، إذ ان استعماله قد جاز لبعض أفراد البطانة الملكية . ولبعض السلالات شاراتها الخاصة : الصولجان للآشجيين ؛ والخاتم المزدان بنقش المرساة للسلوقيين ، ويطلق عليه اسم هبة ابولون . ولكن الشارة الوحيدة المشتركة حقاً بين كافة الملوك هي التاج الذي بلغ من سعة انتشاره أنه أصبح معادلاً للفظ « ملك » ودخل في سلسلة من التعابير الدارجة ، على غرار كلمة « العرش » في أيامنا هذه . نقله الاسكندر عن الملكية الفارسية واستخدمه كل خلفائه من بعده . والمقصود بالتاج عصية بيضاء ، أو بيضاء وارجوانية معاً أحياناً ، تحيط بالرأس وتجمع الشعر وتعتد الى وراء تاركة طرفيها يسترسلان فوق الرقبة . فهل من اشارة أقل لمعاناً من هذه ؟

أضف الى ذلك ان شخص الملك لا يحاط بعد بمعاملات شكلية خاصة . لا بل إننا ناس استمرار البساطة المقدونية عوضاً عن المراسم الشرقية ولا سيما الفارسية منها : فقد كانت الغلبة على هذا الصعيد للنفور الذي صادفه الاسكندر لدى رفاقه في السلاح . وإذا أخذت العادة تدرج ، في الاحتفالات الرسمية ، على حمل شعبة أمام الملك ، فإن الأجانب وحتى الرعايا يحظون دونما صعوبة بمقابلة الملك . واذا ما ساعدت الضرورات الدبلوماسية واختيرت خطيبة الملك اجمالاً ، منذ البداية ، من أسرة ملكية ، واذا كان عقد الاتفاق نتيجة مفاوضات ، واذا احتفل بالزواج بابهة عظيمة ، فقد يحدث أحياناً ان يتزوج بعض الملوك من بنات الطبقة المتوسطة ، ان لم يكن من الراعيات أحياناً . غير ان الملوك الذين يرتدون الألبسة البسيطة

ويختلطون بالجمهير قد أصبحوا موقع زلّة منذ أواخر القرن الثالث .  
وليس من أقل مظاهر أهمية العهد الهليني ان تتكون فيه ، حول واقع الملكية الحديث العهد المطبوع بقوة بالأخلاق المقدونية على شيء من المساواة وفاقاً للطريقة اليونانية ، نواة أولى من التقاليد والاعراف والمصطلحات القانونية والازياء في الملابس وغيرها . وستنمو هذه النواة رويداً رويداً بفعل تأثيرات غير التأثيرات الهلينية أيضاً . ولكنها ستنتقل من ملكية الى ملكية حتى بيزنطية وما بعدها أيضاً بواسطة روما .

### ٣ - الأنظمة الملكية

لا نستطيع ان نقسّم هنا سوى تلخيص عاجل وعمومي للأنظمة الملكية ، اذ ان فقدان التوازن في التوزيع الجغرافي لمستنداتنا يحول دون الاستفاضة : فإمام غزارة البرديات المصرية ، ليس لدينا ، عن مقدونيا والمناطق السلوقية الشاسعة مثلاً ، سوى كتابات نادرة متفرقة . أضف الى ذلك ان عدد وخطورة المعاضل التي يستعصي حلّها أو عرضها عرضاً على بساط البحث ليسا بعقبات أقلّ شأنًا . لذلك يتوجب علينا الاكتفاء باستخلاص بعض الخطوط العامة التي تليح لنا ادراك الملكية الهلينية ، في حد ذاتها ، ادراكاً أفضل .

السلطة الملكية الملك غير مقبّد ، وهو بهذه الصفة القائد الطبيعي للجيش . وهو المشترع الوحيد : يصدر أوامره في شتى المواضيع ويوجه الكتب الدورية الى الموظفين ويحجب على أسئلتهم . وهو أعلى سلطة قضائية : ولا يشذّ عن ذلك سوى الحق المعترف به تقليدياً للجمعية العمومية في الملكية المقدونية - وهو كثيرٌ ما يحرق عملياً - في ان تنظر في دعاوى الخيانة العظمى . ولكن القضاء ليس مفصّلاً آنذاك فصلاً تاماً عن الادارة ؛ لذلك فان الملك يتلقى في شتى الأمور عرائض لا تخصّ يقدها له حتى الوضعا من رعاياه : وان هذه العادة التي تأيدت ، فيما خص مصر ، ببرديات تعبّر عن آمال كلها سداجة أحياناً ، قد اتبعت في مناطق أخرى أيضاً . يبدو ان بعض الملوك قد برهنوا في النهوض بهذه المهام ، تساعد الفسلفة على ذلك ، عن شعور بالواجب ووعي لكرامتهم بلغا أحياناً مستوى رفيعاً جداً . فقد نسب لأحد الانتقونيين المتأثرين بالرواقية أنه قال يوماً لابنه : « هل أدركت جيداً ان ملكيتنا اما هي عودية محاطة بالتكريم والتجاة ؟ » ولكن الملك بحاجة الى العون والمساعدة مها كان من تقيده بوحى ضميره . ويتمتع الملك مبدئياً بحرية كاملة في اختيار معاوينه واسناد الأعمال اليهم . ويجري هذا الاسناد ، كما يطيب له ، دونما اعتبار للثقافة والمراتب والأقدمية : ليس من مقياس سوى رضام أي الثقة التي يوحى بها اليه .

بيد ان سمعة الملك تتوطد ، الى حد بعيد ، بنسبة اهلية واخلاق اولئك بطانة الملك والسياسة .  
نلّذين يلجأ اليهم لمعاولته . وعليه في الواقع ان يحسب حساباً لرأي الجنود ، ولا سيما الحرس ، واهل البلاط . ويحتل بعض معاوينه مراكز شخصية رفيعة ، فيضطر

للتراث والركون الى الجيلة للقضاء عليهم : وقد ارغم احد الملوك السلوقيين ، قبل الفوضى النهائية بزمان طويل ، على التآمر ونصب كمين لاغتيال وزيره الاول . فله سلطة المطلقة حدودها الواقعية اذن ، ولبس في ذلك ما يثير الدهشة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار للمكانة التي تخص بها المثالية السائدة صفات الفرد وما توفره له من تسلط على البشر الآخرين .

من حيث ان البلاط ، وهو ذيل من ذبول الملكية ، وبالتالي تجديد هيني ، واقع اجتماعي في الدرجة الاولى ، ينعم بنفوذ فكري وفني عظيم ، فانه يثبت من ثم وجوده على الصعيد السياسي . ومن نافل القول ان الدسيسة ، ولا سيما دسيسة المحادع ، تلعب فيه دورها بصورة حتمية . غير انه يندر جداً ان يكون هذا الدور موقع زلة . ولكن السرايري والغلمان والخصيان الذين لعبوا دوراً سياسياً لم يتجاوزوا عدداً ضئيلاً ، حتى اذا اطمأنا الى المستندات الطريفة التي تنتقدهم ، الا في الملكية اللاجية التي غدت ، منذ أواخر القرن الثالث ، العوبة بين أيدي مثل هذه الجماعات . بيد اننا نخطيء ان نحن شبهنا بهم تلك الملكات اللواتي ارتفعن الى مرتبة المدافعات عن فكرة معينة في المنازعات بين الملكيات الهلينية ، من أمثال أولميا والدة الاسكندر ، وكليوباتره العظيمة ، وارسينوي شقيقة بطليموس الثاني وروجه ، ولاوديديكي زوجة اطيوخوس الثاني السلوقي ، وكليوباتره « الالهية » التي كانت « ابنة ملك وشقيقة ملكين » من اللاجيين و« زوجة ثلاثة وأم أربعة » ملوك سلوقيين . وانما الأمر يعود الى تطور عام في المجتمع حيث أصبح للمرأة مكانة أرفع منها في السابق : فبمكنة الشخصيات النسائية القوية أن تلعب منذئذ دورها بسهولة ، لا سيما وأن وجود البلاط يولي الملكة مرتبة رسمية .

وما يلفت النظر أيضاً ان النسب والثروة ليسا من العناصر التي تقرر الأوضاع الشخصية في البلاط ، على ان لها بعض الأثر مع ذلك . فـ « الأولاد المكيون » ، المختارون في العائلات الكبرى يربون في القصر ويخصصون لخدمة الملك . وتسبّل عليهم التربية التي يتلقونها وبالتاليهم على الأمير الفتى ، ملك المستقبل ، دخول الوظائف العسكرية والادارية . ولكن هذه الوظائف لا يحتفظ بها لهم . ولم تتكون قط ، في أية ملكية ، طبقة من « الكبار » . فان حظهم منوط بالماهبة دونما تمييز اجتماعي أو جغرافي أو عنصري . فالعالم الهليني يتخطى الحدود ويؤلف وحدة بشرية كبرى يتجول الاغريق داخلها دونما صعوبة عارضين خدماتهم على أسياذ مختلفين . الضمان الضروري الوحيد هو الانتساب الى الحضارة اليونانية ، أو الأخذ بها فقط ، أقلته بالنسبة لبعض الملوك . فقد أجاب أحد الأنتيفونيين طالب مصلحة من ذوي النسب . « لا شأن عندي للقيمة الوالدية بل للقيمة الشخصية » .

الحكومة المركزية  
الفاسيلفس ، مبدئياً ، رجل ذو مواهب عالية قادر على ايقاد التفاني وبسند الذات ، أكثر من أي رئيس دولة . لذلك فان المعاونين الذين يسند اليهم المهام الحكومية الكبرى يعدّون بين « البطالة » جنساً الى جنب مع خدامه المخصوصيين . وهم

يؤمنون غالباً وظائف بلاطية . ويحصلون ، على الأقل ، على لقب يربطهم شخصياً بالملك ويتيح لهم التحدث اليه بمزيد من الدالة . فقد درجت في البلاطات الهلينية تسميات بطلانية ظهرت سابقاتها في الملكية المقدونية القديمة والملكية الفارسية على السواء ، ثم تعددت وطراً عليها نوع من التفضيم المفرط في الأكرام بسبب ابتذال التعابير البسيطة . فهناك « أهل » الملك و « آباؤه المربون » و « مهبوه » و « اخوته الرضع » أو « تلاميذه » ، ويمكن تقديم الدليل في بعض الحالات على ان المقصود بذلك ألقاب شرفية فقط . وهنالك خصوصاً « الأصدقاء » المنتظمون جمعية حقيقية بدرجاتها المختلفة : « الأصدقاء » دوناً صفة ، وفوقهم تسلسل الاصدقاء « المكرمين » و « الأولين » ، و « الأولين والمكرمين تكريماً خاصاً » . ويوزع الانعام الملكي هذه الألقاب لقاء شتى الخدمات مع ما يقابلها من شارات أكثرها رواجاً المعطف الأرجواني . ولا توجد هذه الألقاب سوى روابط شخصية بين من يوزعها ومن توزع عليهم اذ ان « صديق » الاب ليس بالضرورة « صديق » الابن .

وهكذا فان عدد رجال البطانة قد يكون مرتفعاً جداً . وتحمل بعض التعابير الرسمية على الاعتقاد بأنهم يشتركون في السلطة الملكية ، شأن الجيش أيضاً ، كأن هنالك ملكية جماعية . ويتباهى الملك في الحقيقة ، بعدد ووفاء « أصدقائه » وجنوده لأن في ذلك خير برهان على السحر الذي يشع منه ، وعلى سخائه و « انعاماته » ، وبكلمة ، على ما يكسبه نظرياً سلطته كفاسيلفس .

لذلك كان من الطبيعي ان يختار الملك بين هؤلاء الاشخاص من يمس فيهم الكفاءة لمعاونته . فالمشورات مرغوب فيها أبداً حتى ولو لم يكن هنالك مجلس استشاري دائم ومنظم . ويتلقاها الملك ممن يريد وبالشكل الذي يوافق . ومن المسلّم به أنه غير مقيّد بها ، ولكن الاستشارة ضرورية ، اذ ان الملك الذي لا يعبأ بهذه الحيلة يعرض نفسه لأن ينعت بالاستبداد .

ينتخب الملك أيضاً بين بطانته القواد والسفراء والوزراء ، وليس من الضروري ، على كل حال ، ان ينطبق هذا الترتيب المنطقي على الواقع : فالرجل الواحد قد يكون تارة قائداً وأخرى سفيراً ووزيراً ؛ وقد يحدث له أيضاً ، بعد ان يتولى قيادة عسكرية هامة ، ان يسلم قيادة دونها أهمية ، حتى ولو لم يفقد الخطوة التي يتمتع بها . غير ان الشؤون الادارية على الأقل ، اي الحرب والدبلوماسية ، قد اصبحت من التعقيد بحيث انها فرضت حتماً ادنى من التخصص والاستمرار . لذلك فاننا نرى في كل ملكية تقريباً رئيس ديوان ورئيس قضاء ومفتوض مالية . وقد يحدث احياناً ان يبرز ، بين جميع الشخصيات الكبيرة ، شخصية أكثر نشاطاً ومهارة يشيرون اليها بتعريض غامض في الكلام ، « المفتوض بالشؤون » ، الذي يبدي رأيه في كل القضايا ويبت في أكثريتها باسم الملك : ذلك هو المستشار الرئيسي والوزير الرئيسي . ولكن جميع هذه التعابير المستعارة من قاموسنا السياسي لا تعبر التعبير الصحيح عن ميوعة التنظيم في الحكومة

المركزية لبلاد واسعة ، والتنظيم شيء حديث جداً بالنسبة للاغريق .

الادارة المحلية  
من الامور المستلم بها ان الادارة المحلية قد كانت ، في ما يظهر ، ارسخ  
استقراراً من الحكومة المركزية . ولكن معرفتنا بها ضئيلة جداً اذا ما قارناها  
بالحكومة المركزية ؛ ويبدو الاختلاف بين الملكيات ، في هذا النطاق خصوصاً ، عظيماً للغاية  
لان كل ملكية مرغمة على تكييف انظمتها ومصطلحاتها وفقاً لمميزات الاراضي والرعايا التي  
تسرف على ادارتها .

لنأخذ مثلاً مصر اللاجية ، وهي الملكية التي نعرفها اكثر من غيرها . فقد احتفظ فيها  
بالتقسيمات الادارية التقليدية المعروفة بـ « الاقاليم » مع بعض الفوارق الطفيفة الناتجة عن التطور  
الاقتصادي او زيادة عدد السكان في منطقة من المناطق مثلاً . وقد عيّن في كل اقليم ، في البداية ،  
حاكم مصري وقائد عسكري يوناني ؛ ثم توارى الحاكم رويدا رويدا وراء القائد حتى زال  
نهائياً . وتشتمل المراتب الدنيا على رؤساء الاقضية ورؤساء القرى . ولكن المشاغل المالية  
قضت منذ البدء بان يعين ، الى جانب كل من هؤلاء الموظفين ، عميل يرتبط مباشرة بوزير المال ،  
هو « الكاتب » الذي يعرف عنه بمرکز وظيفته ، فيقال كاتب القرية ، وكاتب القضاء ، وكاتب  
الاقليم او الكاتب الملكي .

ليس في هذه اللوحة البيانية شيء من الخطورة . ولكنها لا تنطبق إلا على مصر ، أي على  
بلاد تسهل فيها المركزية بفعل طبيعتها وتاريخها السابق . أما في الملكيات الأخرى فالأمر  
يختلف اختلافاً بيناً . نحن لا نعلم في الواقع شيئاً عن مقدونيا ، كما نكاد لا نعلم شيئاً عن الملكية  
الاطالية . أما السلوقيون ، وهم الخلفاء الرئيسيون للملوك الفرس ، فقد حافظوا على اسم وواقع  
« المرزبانيات » القديمة ، باستثناء تقسيم بعضها الى اثنتين أحياناً . وقد تولى أمور كل مرزبانية  
قائد عسكري . فهل قام الى جانبه « مرزبان » وكلت اليه الأمور الادارية ؟ نحن نشك في ذلك ،  
ولا نعلم على كل حال بوجود موظف أطلق عليه هذا اللقب في عهد من العهود أو في منطقة من  
المناطق . وقد قسمت المرزبانية أخيراً الى أقضية تختلف أسماءها الرسمية وفقاً للمناطق ، وبالتالي  
أيضاً أسماء الموظفين المكلفين ادارتها .

بدلاً من ان نضع هذه القائمة الطويلة التي تثير مجادلات شتى وتفضي الى اعترافات بالجهل ،  
يحذر بنا ان نعرف كيف سارت هذه الادارة المحلية . يمكننا في هذا المجال ان نستخلص بعض  
النظرات العامة .

من الجليّ ان كل المراكز الرفيعة وجلّ الوظائف الملحقة بها قد احتفظ بها للاغريق في  
الملكيات الشرقية . أما في البدء ، وفي مناطق لم تخضع إخضاعاً نهائياً كآرمينيا وكبادوكيا  
وبيشينيا مثلاً ، فقد وجب مراعاة الأوضاع المحلية والقبول بإبقاء بعض المرازبة الشرقيين الذين  
ما لبثوا في النهاية ان أعلنوا الانشقاق فغدوا في الأساس من تكوين الملكيات الثانوية . أما في

المنساق التي شعر الملك اليوناني بأنه سيدها المطلق ، فلم يعول إلا على الاغريق أو الشرقيين « المستغرقين » فعلاً ، وكانت اليونانية اللغة الرسمية ، فأقصى التالي البلديون الجهال . أضف الى ذلك ان الاغريقي ، بفعل ثقافته والاستعداد الفكري المفروض فيها ان توجده فيه ، قد اعتبر موظفاً أوفر تنظيماً ودقة وأمانة أيضاً ، لأن الواجب يقضي عليه ، بالتضامن مع الملك أمام رعايا يمارسون حضارة أخرى .

فهل كان هؤلاء الموظفون عند حسن ظن الملك بهم يا ترى ؟ يمكننا التسليم بذلك ، بصورة عامة ، لجهة الامانة السياسية ، على الرغم من بعض الثورات التي أفضت الى الاغتصابات : وهي تقريباً وقف على الملكية السلوقية التي كانت أراضيها أوسع من ان تمكن مراقبتها مراقبة تامة دائمة . ولكن الامر على خلاف ذلك من ناحية الفعالية الادارية . فالحقيقة هي ان الاغريق الذين دخلوا في خدمة الملوك المستقرين في الشرق كانوا حتماً أقل من ان يتاح انتقاء العدد اللازم بينهم . وكثيراً ما أثارت نزاهتهم الريبة والشك . بيد ان الكتابات الخاصة بآسيا ، وهي على الأغلب نصوص رسمية وتكريمية ، قد تحملنا على الاعتقاد بان الوضع فيها وضع مثالي . أما في مصر فالبرديات التي تصف واقعاً يومياً ومتواضعاً تحتوي على شكاوى أو تأنيبات كثيرة وتطلعنا على سرقات وتجاوزات سلطة لا تدع مجالاً للشك . وان الادارة الحسنة تستلزم ، على كل حال ، خبرة وتقاليد وموظفين لم يتوفروا لهذه الملكيات الفتية التي قامت بعيداً عن الأرض الأم .

وتستلزم هذه الادارة الحسنة أيضاً مواصلات سهلة بغية نقل الاوامر وممارسة رقابة الحكومة المركزية بسرعة . غير ان المركزية في ملكيات ذاك العهد ، والرقابة منهطة بها ، تؤدي الى التعقيد وبطء المعاملات . وهذا البطء جليّ في مصر حيث تتطلب اقل معاملة تحقيقات شتى ومراسلات بين مكتب ومكتب ومروؤوس ورئيس . أما في الملكيات الأخرى فان المستندات المتوفرة لدينا ، وان كانت أقل جلاء ، تضعنا أحياناً أمام وقائع على مثل هذه الغرابة . ففي شهر آذار ، بينما كان احد الملوك السلوقيين في آسية الصغرى - في عصر السلالة الذهبي - اتخذ قراراً هاماً لمصلحة الملكة ، وكان على الموظفين المعنيين ان يسرعوا في ابلاغه ؛ غير ان القرار لم يصل الى الدرجات الدنيا من الادارة في احدى المربانيات المجاورة إلا في شهر أيار كما ، لم يصل اليها في غربي النجد الايراني إلا في شهر تموز . ويتراءى لنا من ثم ما يمكن ان تؤول اليه ، مع المخطاط الملكيات ، ادارات على مثل هذا النقص ، حين سلبت روما نفوذ الملوك

لذلك ، وفي كل زمان ، لم يتح لسلطة الملك ، وبالتالي لسلطة ادارته ، الوسطاء والامتيازات المحلية أن تثبت وجودها في كل مكان بشكل متكافئ وقوي . وفي هذا المجال ، يبدو اللاجئين - في مصر لا في مملكتهم الخارجية - في وضع موافق جداً ؛ ولكن عليهم ، حتى في وحدة وادي النيل ، ان يحسبوا حساباً لثلاث مدن يونانية . أما الملوك الآخرون فيصطدمون بمواجز شتى قوامها التقاليد المحترمة أو التنازلات . ويمكن مبدئياً نقض هذه

التنازلات أو التسليكات ؛ ولكن القوة غير متوفرة غالباً لنقضها فعلاً ، حتى ولو توفر المبرر المعقول لذلك . ثم ان الفاسيلفس قد يعرض سمعته للتحطيم اذا نقض « انعاماً » دون تبرير معنوي يختار المنعم عليه بحكمة ساعة توفيره له .

مما لا ريب فيه ، ربما باستثناء مقدونيا حيث يخيم العموض على الادارة الداخلية ، ان الملك قد مارس على الدوام سلطة لا حد لها ، بواسطة عملائه وحدها ، على أعظم أجزاء مملكته اتساعاً . وغالباً ما أطلق المعاصرون على هذه الأجزاء اسم « خورا » أي « الريف » أو « الأرض المنبسطة » لآظهار المضادة بينها وبين المدن المحصنة . ولكن أجزاء المملكة الاخرى التي لا جدوى فيها للسلطة المباشرة ، أو التي يجب على السلطة أن تحتال فيها على العقوبات ، تشتمل على مناطق أخرى كثيرة غير المدن أيضاً .

ان هذه العقوبات على أنواع كثيرة جداً وتختلف الاهمية النسبية لكل فئة اختلافاً عظيماً وفقاً للظروف المحلية . ففي مناطق الحدود ملوك ذوو اخاذات يكتفون بتأدية واجب الطاعة حين يمر الملك بالقرب منهم على رأس قوة مسلحة : فيطيب للرسميين ان يصفوا « بالجزية » ما يطلق عليه ذوو الاخذة اسم « الهدية » . وهنالك « السلايون » الذين يسيطرون على مناطق أقل سكاناً وثروة من أن يتجاسروا على اعلان نفوسهم ملوكاً عليها . وهنالك بعض المعابد التي يدير كهنتها أملاكاً عقارية تؤلف دولاً ثيوقراطية . وهنالك « شعوب » أو قسائل بلدية تخضع لشرائعها الخاصة وتعين رؤساءها : وأشهر مثل عنها الشعب اليهودي مع شريعته الموسوية ومجلسه ورئيس كهنته . وهنالك المدن أخيراً . فان ذوي الامتيازات هؤلاء ، أفراداً كانوا أم جماعات ، نزعوا بالسليقة الى الاستقلال . ولا ينم موقفهم من الملك ، عملياً ، سوى عن نسبة القوى الراهنة . لذلك فان الفوضى الداخلية كانت بالمرصاد للملكيات المتقهرة وأسرع في تفككها .

ان ما يستوقف انتباهنا بنوع خاص هو دور المدن في الحضارة الهلينية . أجل قد تكون هنالك بعض المدن المحلية البلدية . ولكن المدن التي يمكننا ، بفضل الكتابات ، مرافقة حياتها ، هي المدن اليونانية ، أو المدن « المستغرقة » كما في فينيقيا . ويوجد بينها مدن قديمة ومدن حديثة العهد . ولكن جميعها مثلاً أعلى واحداً لا يستطيع أي اغريقي أن يتنكر له ، هو « البولس » . فهي بحصونها وأسوارها وساحاتها العامة وأبنيتها تؤلف أشخاصاً طبيعية . وتؤلف أشخاصاً معنوية أيضاً بالدستور الذي ينظم مواطنيها جماعة مستقلة ، أي ناعمة بوسائل عمل وقضاة ومجلس وجمعية تستطيع بها أن تدير شؤونها وشؤون البقعة المرتبطة بها .

ويطرح هذا الدستور والنزعات التي من شأنه ان يمهدها ، على بساط البحث ، العلاقات بين المدينة والملك . فالملك لا يستطيع القبول بقيام علاقات مع اجنبي ، هو ابدأ عدو ممكن ، ولا المخاطرة بان يرى يوماً ابواب المدينة تقفل بوجهه او القلعة تستخدم مركزاً محصناً من قبل الثائرين . فهو بحاجة الى ضمانات . ولديه سلسلة مختلفة من المكافآت والعقوبات ، يعامل بها

المدن وفاقاً لاستحقاقها ، فيرسل اليها حامية او يسحبها ، ويثقل الجزية او يخففها او يلغها ، ومنح الامتيازات التجارية او الدينية ، الى ما هنالك . ولكن الطريقة التي كثر العمل بها قامت على ان يرسل الى المدينة « مفوض » يكلف ، دونما ضرورة لوجود الجيوش ، مراقبة الحياة المحلية ، وابداء الرأي في اختيار القضاة وفي قرارات الجمعية او المجلس ، ويوحى او يتحرر احياناً مشاريع المراسيم التي وافق عليها فوراً . ومن الطبيعي ان تفرض رقابة شديدة خاصة على المدينة التي يقيم الملك فيها او على مقربة منها ، كالاسكندرية عند اللاجئين وبرغاموس عند الاطاليين ، فيتولى بعض الموظفين الذين يعينهم قطاعات معينة في الادارة ، ويصبح الاستقلال الاداري مجرد ظاهر فحسب . وتكون هذه المدن الاولى في الاستفادة من سخاء الملوك في توزيع المال وغلوائهم في تشييد الابنية . ولكنها تدفع ثمن هذه الانعامات بفقدان حرياتهما ، ولم يحل ذلك قط دون انفجار السخط الشعبي احياناً ، اقله في انطاكية والاسكندرية منذ القرن الثاني ، وتحوله الى شغب صاحب قد يؤدي الى تقتيل المقربين الى الملك ، وطرد الملك نفسه ، واعلان سواه مكانه . فعلى الرغم من الانظمة الاربعة المعتمدة ، لم تتوصل الملكية الهلينية الى ازالة الاستقلال الاداري الذي اظهر المضادة بينها وبين « البولس » : فان فورة الاستقلال التي جاشت في « البولس » لن تحمدها سوى قبضة روما بعد اكثر من انتفاضة .

كثرت اذن الصعوبات التي وجب على الملوك محاولة التغلب عليها لفرض الطاعة  
الثروة وتأمين العنصرين المتلازمين آنئذ لمثال الملكية : الثروة والقوة العسكرية .

جاء القسم الاكبر من مواردهم المالية من استثمار « الريف » الذي لم يكن ملكهم المباشر فحسب ، بل ملكهم الخاص ايضاً . وفي كل الملكيات ، حتى في مقدونيا ، كانت اهمية الممتلكات الملكية من العقارات والاحراج والمناجم ، وحتى المصانع ، عظيمة جداً ، لا يقلل منها سوى « الهبات » التي يطيب للملك ان يقتطعها فيها كمكافأة تفاني المتفانين في خدمته او لبعث هذا التفاني . وملكوا عبيداً يتيحون لهم احياناً استثمار هذه الممتلكات استثماراً مباشراً باشراف القهارمة . ولكن طريقة الاستثمار العادية ، للاملاك الزراعية بنوع خاص ، هي التنازع الذي قد يفرض فرضاً على سكان « الريف » الذين ، حتى ولو نجحوا من العبودية ، يبقون خاضعين لموجبات لا يعين حدودها سوى رضى الملك وحده . وما كانت هذه الممتلكات لتصبح شيئاً يذكر لولا اليد العاملة التي تحرثها .

الى موارد الملاك هذه اضيفت موارد المليك المتمتع بالحق السامي الذي توليه اياه الفتوحات وصفته كفاسيلفس ، اعني بها الضرائب بخصر المعنى . وهي على انواع كثيرة تختلف باختلاف الملكيات وداخل الملكية الواحدة ، اذ ان على الملك ، بصدها ، ان يأخذ بعين الاعتبار الامتيازات المحلية . واكثر الضرائب رواجاً واعظمها دخلاً الجزية ، رمز السيادة المعترف بها ، التي ورثت عن الامبراطورية الفارسية واعتمدت اخيراً في مقدونيا نفسها . والمقصود بها مبلغ

من المال - يضاف اليه احياناً بعض المساهمات العينية - يحدد تحديدأ اجمالياً لكل جماعة ، او اقطاع ، او قبيلة ، او مدينة ذات امتيازات ، او قرية في « الريف » . ويترك الحيار لكل جماعة ، لدفع هذه الضريبة سنوياً للخزانة ، في ان تجمعها كما يطيب لها وان توزعها على هواها بين اعضائها . اما ضريبة الاعناق والرسوم على المواشي والاشجار المثمرة فتبدو اقل شمولاً ، اد انها تستلزم احصاءات لا تستطيع كافة الملكيات اجراءها بانتظام . وهنالك ايضاً الضرائب غير المباشرة ، الجمارك الخارجية والداخلية والمكس والرسوم على المبيعات الخ ، ولكنها تختلف عدداً وشدة . وهنالك اخيراً ، فوق كل ذلك ، المصادر والسخرة ، اذا ما مسّت الحاجة ، وحتى « التيجان » اي الهبات الطوعية والاستثنائية في زعمهم التي كثيراً ما كانت تفرض فرضاً في الواقع في اوقات معلومة ، لمناسبة عيد سنوي او انتصار او ، على العموم ، اي حدث موافق للتعبير عن تعلق الرعايا بالملك .

لا يوحى هذا النظام ، في أي مكان ، بمثل كاله المنطقي ودهائه وشدته في مصر . فهو يتفق فيها والمشاغل الاقتصادية التي تقضي الى سياسة تجارية وموجهة معاً . فان الملك اللاجي الذي يملك القسم الاكبر من أرض البلاد يحصل دخل تلتزم الاراضي ويستثمر الامتيازات التي تعود له واقماً أم قانوناً . ومن شأن الرقابة الدقيقة التي تقود هذه العمليات وكلاءه الى ممارستها حيال الناس ونشاطاتهم وحيال المحصول والتجول ان تجعل جباية الضرائب أكثر سهولة وفعالية . وقد اكثرت من هذه الضرائب نخلة هي أخصب وأسلس نخلة مالية عرفها التاريخ . فبلغ من كال هذا النظام ان الجزية ، وهي ضريبة جماعية كما رأينا ، قد أمكن ابدالها بضرائب شخصية ، كالرسوم العقارية أو المهنية .

كانت النتيجة ثروة الملوك الهلنيين . وأذهلت هذه الثروة اغريق اليونان القديمة الذين لم يعرفوا سوى الميزانيات الفقيرة في مدنهم الصغيرة . وغدت لهم طعماً جاذباً يحلمهم على الهجرة والبحث عن العمل والمال الوفير في الملكيات . وقد تعهد الانتيجونيون أنفسهم ، وهم أقل هؤلاء الملوك حظاً ، اذ ان اقتطاع الأراضي والسخرة ليسا بالأمر اليسير عند المقدونيين ، بلاطاً بلغ من بذخه انه اقتضى عدة أيام لفتح « ربيدنا » كي يعرض مغافنه في روما بعد انتصاره . وليس ما يضاهاه شهرة ملوك السرق المشروعة ، لاسيا شهرة اللاجيين الذين ساورت كنوزهم الاسطورة ، في القرن الأول ، نخلة الطامعين وأفراد العامة في روما .

في الحقيقة كانت النفقات الملكية باهظة جداً . فان تعهد الموظفين والبلاط ، وساسة السخاء ونصرة الآداب والفنون ، « والهبات للمدن وعبادة الآلهة » التي اعتبرت اذ ذاك دليلاً على « ذهنية ملكية حقاً » ، كل هذا كان الثمن المحتم لثروة توفرها سلطة الملك . ولذلك فان كل مجهود عسكري غير عادي يفرض اللجوء الى استنباط الحيل : إحداث رسم اضافي كذاك الذي فرض لمحاربة « الغالطيين » النازحين الى آسيا الصغرى والذي أبقي ، بعد

استيطانهم النهائي فيها ، لضمان هدوئهم ضماناً غير ثابت ؛ حجز الثروات المشينة مع ان الانعام الملكي هو مصدرها ؛ استلاب كنوز المعابد الذي أدى في النهاية الى ثورة المؤمنين ، في مقاطعتي سوسة واليهودية مثلاً ؛ تضخم النقد النحاسي المتداول في مصر . ولكن الحيلة لم تجد ، فلم يعض وقت طويل حتى عجرت كل الملكيات ، الا اذا حدثت من نفقاتها الاخرى ، عن تعهد جيوش تناسب حاجاتها .

القوة العسكرية قال مؤرخ معاصر : « العالم الهليني عالم عسكري » . ان مثالية « الفاسيلفس » نفسها تفسح للقوة مركزاً ممتازاً . وعلى كل ملك ، في الواقع أيضاً ، أن يكون قوياً للدفاع عن نفسه ضد جيرانه والاحتياط لهجاتهم ، ولابقاء رعاياه البلديين الشرقيين تحت نير الطاعة أيضاً . وقد احتاجت الملكيات ، لهذه المهمة الجديدة ، الى جيش دائم استطاعت المدن قديماً أن تستغني عنه ، هو الحرس الملكي والحاميات الموزعة على الحصون . وهكذا فقد أعيى اعاضة عريضة عن الفترات السلمية التي كانت ، باستثناء ولاية الملوك المتعطشين « للمجد » - وهم كثر آنذاك بين خلفاء الاسكندر - أطول منها في العهد السابق ، بين حرب وحرب .

غدت الحرب عملية معقدة . فقد استلزمت جيوشاً أضخم عدداً : أجل لم يبلغ أفرادها المائة ألف رجل الذين جمعهم الاسكندر في النهاية ، ولكنه ليس من النادر أن يجمع أو يقاد منهم خمسون ألفاً . وقد سار التقدم التقني بالطراد . فاستخدمت وسائل مادية قوية في محاصرة الحصون والدفاع عنها ، وظهرت الآلات الحربية على المراكب وحتى في ساحات الوعى . وزاد محمول البوارج الحربية وعدد جذافها ؛ ولكن الاساطيل قد اشتملت أيضاً على مراكب خفيفة للمناوشات والمفاجآت والانتقال السريع . وتنوعت الجيوش كذلك بالوحدات المختصة بالمهام المختلفة : الاستكشاف ، الهجمات الفجائية ، الالهاء ، الاصطدام العنيف ، الملاحقة . وأصبح لديها فرق الفرسان لاستثمار النصر : فان معركة بين جيشين متقابلين تقرر في أكثر الاحيان مصير حملة من الحملات . وكلما استطاع ملك الاتصال بالمناطق التي يسهل عليه فيها القاء القبض على الفيلة ، كان له فيلة يديرها ويستخدمها في الحرب .

كانت هذه التجسينات وهذه التجديدات نتيجة قيام الملكيات الكبرى التي توفرت لها وحدها وسائل تطبيقها . ولكنها استنزفت فيها جهداً أضناها .

أجل لم تكن الملكيات بحاجة الى الرجال . فللملك الحق بتعبئة رعاياه . ولكنه لم يلجأ الى هذه التعبئة على نطاق واسع . فان في تدريبهم أو إعادة تدريبهم على مهنة السلاح بعض المحاذير والاختطار . وللشرقيين بنوع خاص طرائقهم الخاصة في التسليح ونخوض المعركة ثبت تأخرها . فباشير الاسكندر توزيع الاسلحة المقدونية والتعليم العسكري المقدوني على الفرس . وتردد خلفاؤه في متابعة الاختبار الذي استاء منه رفاقه . فقام بالمغامرة أحد الملوك اللاجئين ، في أواخر القرن الثالث ، وألف « كتيبة » مصرية . ويضيف المؤلف اليوناني الذي أعلمنا بذلك ان

المصريين ، وقد انتفخوا كبرياء بفعل النصر الذي ساعدوا على احرازه ، اسرعوا الى اعلان الثورة . ولم ينخرط البلديون عملياً الا في قرق المشاة الخاصة الخفيفة وفرق الفرسان ولم يُرق بعضهم بالنقل الى الوحدات اليونانية الا نادراً وبصفة شخصية .

بما لا ريب فيه ان خير الجنود ، ومن الطبيعي ان يثق بهم ملوك من أصل يوناني ، كانوا الجنود اليونانيين ، وفي طليعتهم المقدونيون الذين دلت انتصاراتهم على المدن اليونانية وعلى الامبراطورية الفارسية على تفوقهم العسكري . فهم في فرق المشاة أخف تسليحاً من « هوبليت » العهد الكلاسيكي ، تؤلف « الكتيبة » وحدتهم المقاتلة الرئيسية ، وهي كتلة متراسة من صفوف الجنود المتوازية التي تحفض الصفوف الاولى منها نحو الخارج رماحها التي تتجاوز خمسة أمتار طولاً . وارتدى المقدونيون الدروع في فرق الفرسان ، وتألقت منهم أيضاً فرق الفرسان الثقيلة التي تولت الهجوم بقيادة الاسكندر وجعلته يحرز جميع انتصاراته . وقد اثبتت الخبرة - أو هكذا ساد الاعتقاد اذ ذاك - ان الكتيبة لا تتغلب عليها سوى الكتيبة وان الفرسان المقدونيين لا يتغلب عليهم سوى الفرسان المقدونيين . لذلك ففي كل جيش ملكي كتيبتة المقدونية وفرقه وفرسانه المقدونيون . ويجب لتأمين التفوق اما زيادة عدد الجنود في هاتين الوحدتين واما اللجوء الى الاغريق في حال عدم توفر العدد الكافي من المقدونيين . فالاغريق أيضاً ، وهم أخف تسليحاً من الهوبليت وأفضل تدريباً ، كفرسان ومشاة ، من حيث أنهم على العموم جنود محترفون ، يؤلفون وحدات ضرورية لمكاتفة الوحدات المقدونية ويقدمون الفرق المتخصصة في مهام الاستكشاف والمفاجأة .

قامت المشكلة اذن في الحصول على المقدونيين والاغريق . وهي لم تواجه الانتينيون المقيمين في مقدونيا ؛ ولكنها لم تحل بسهولة في الملكيات الاخرى ، فقد احتفظت هذه بكل من أمكنها الاحتفاظ به من جنود الاسكندر وجنود خلفائه المباشرين . واستمرت في اجتذاب واستقبال المهاجرين . وقد وزعت هؤلاء أفراداً أو جماعات مسكنة ايام في أراض تؤمن لهم أودهم وأود عائلاتهم . واحتفظت لهم هويتهم الأصلية ووفرت لهم كل التسهيلات كي يؤمنوا لأبنائهم التربية الجسدية والعسكرية التي تجعلهم قادرين على الخدمة العسكرية . ويبدو أن هذا النظام قد طبق في آسيا الصغرى وفي مصر على الجنود الشرقيين أيضاً ، لا سيما على «الفرس» الذين يغلب أنهم أسكنوا بعيداً عن نجد إيران قبل الفتح اليوناني ؛ ويعود لمثل هذا الاستمرار الفضل في وجود « المقدونيين » في آسيا حتى في ظل الامبراطورية الرومانية . وكان لهذه الطريقة حسناتها للملوك الهلنيين ؛ فهي توفر لهم الرجال دونما عناء للوحدات الذائعة الصيت في جيوش ذاك العهد . ويألف هذا الاستعمار العسكري بأشكاله المختلفة مع الاستعمار الزراعي الهام جداً في ملكيات غنية « بالأراضي الملكية » المفتقرة الى اليد العاملة .

بعد تقلبات الخمسين سنة التي عقت موت الاسكندر مباشرة والتي كثرت فيها الهجرة من

اليونان القديمة، وانتقلت الجيوش من قائد الى قائد ، أصبح من الصعب ، يوماً بعد يوم ، على الملوك المقيمين في الشرق تجنيد الاغريق ، ولاسيا المقدونسيين تجنيداً نهائياً . أجل لم تعوزهم الحيلة – التي لجأوا اليها فعلاً ، لاسيا اللاجيون ، منذ أواخر القرن الثالث – في ان يعطوا البلديين جنسية أرفع شأنًا، سعيًا منهم ورا ، امتزاج كاذب. ولكن الحل الذي فضلوهُ هو اللجوء الى المرتزقة . وقد اتاحت تجنيدهم وسائل عديدة كالاتفاق ، بفضل دبلوماسية سخية ، مع دولة لديها المزيد من السكان ، او استئجار فرقة احد قواد المغاوير ، او ارسال من يجند الرجال ، مع كثير من المال ، الى المناطق التي يكثر فيها طالِبو التطوع : فقد قامت لمدة طويلة في رأس « تيناروس » جنوبي اليونان ، ثم في افسس على ساحل آسيا الصغرى ، اسواق يتجمع فيها الرجال الذين يطلبون عملاً . ويخدم هؤلاء المرتزقة في وحدات خاصة اغربها ما يعرف عنه باسمها القومي ، فلبعض الشعوب صيت او اختصاص عسكري يُرغَّب في استخدامها على الرغم من انها دون صيت واختصاص المقدونسيين . فكان من الضروري ان يضم كل جيش جنوداً كريتيين نبّالين بنوع خاص ، وفرساناً طارنتيين مشهورين برشاقتهم ، على انهم اوفر عدداً من ان يكونوا كلهم من مدينة طارنتو . لا بل كان من الضروري ان يضم كل جيش وحدات بربرية من التراقيين ولاسيا من الغالاطيين ، وكان هؤلاء « كلتيين » جاؤوا من شمالي البلقان وأقاموا على مقربة من مقدونيا وفي قلب آسيا الصغرى حوالي السنة ٢٧٥ ، وقد حسب لهم جيرانهم حساباً بسبب شغبهم . ولكنهم قدموا محاربين جليلي الفائدة بصفاتهم الطبيعية واحتقارهم الموت وشغفهم بالقتال .

ألفت جيوش الملكيات الهلنسية ، بالتالي ، أجهزة كلية التعقيد . فقد اشتملت على وحدات دائمة : الحرس والحاميات ، المؤلفة من المرتزقة في أغلب الأحيان ، في الحصون الصغيرة القريبة من الحدود وحصون المدن المحمية . ولكنه يقتضي أشهر طويلة ، اذا ما لاح خطر الحرب ، لتعبئة وجمع القوى التي ستشارك في الأعمال العسكرية . فان تعبئة الجنود الفلاحين وتجهيز الفرق البلدية، ولاسيا تجنيد وحدات جديدة من المرتزقة ، قد تتطلب سنتين أو ثلاثاً في بعض الأحيان. أضف الى ذلك ان هذه الجيوش تورث أعباء مالية مرهقة ، فتضطر كل ملكية الى تعهد ادارة مالية عسكرية، مهما قل شأنها، ومرابض للخيل ومستودعات للفيلة ومرائب للآليات ، وعليها أيضاً ان تعطي من يحارب لأجلها أراضي وأجوراً . وهي تؤثر ، على كل حال ، في الظروف العادية، اعطاء الاراضي على دفع الاجور، لأنها أوفر ثروة عقارية ولأنها ترى في ذلك طريقة فضلى لأن تقيم في أراضيها رجالاً لا تتطلب تعبئتهم وقتاً طويلاً ويمكنها بعد ذلك ان تستخدم أبناءهم. ولكن مشاكل مادية خطيرة تواجهها لن يسمح لها ضعفها الداخلي والفوضى المتزايدة ، بعد فترة من الزمن ، ان تتغلب عليها .

ثم ان تنفوق روما العسكرية ، منذ القرن الثاني قبل المسيح ، سيتوطد بشكل ساطع .

فتقارم الملكية المقدونية خير مقاومة. ويعود الفضل في ذلك الى ارتفاع نسبة العنصر المقدوني الخاص في جيشها . فهي التي تعبىء في اسرع وقت وباقل كلفة جنوداً يتحلون بالصفات العسكرية . ولكن الكتيبة المقدونية نفسها التي فقدت الكثير من مرونة اشتهرت بها في عهد فيلبوس والاسكندر ، وغدت على قسط كبير من الالتكاك والجمود ، وعجزت عن المحافظة على تلاحمها في ارض غير متساوية ، قد برهنت اذ ذاك انها اداة حرب دون الجوقة الرومانية . اما الملكيات المقيمة في الشرق فليس لديها سوى عناصر مقدونية ويونانية قليلة العدد جداً . وقد اكّد احد القواد الرومان ، بالاستناد الى تأثير الارض والمناخ : « ان المقدونيين الذين يحتلون الاسكندرية في مصر وسلوقية في بلاد بابل والمستعمرات الاخرى المتناثرة هنا وهناك قد انحدروا الى مستوى السورين والفارقيين والمصريين » . هنالك بعض الحقيقة وكثير من المغالاة في هذه التأكيدات المحقرة . ولنكتف نحن بالملاحظة ان الملوك اليونانيين لم يبذلوا جهداً كافياً في تنظيم المتطوعين البلديين تنظيماً عسكرياً . فبدلاً من ان يعينوا الجنود الممتازين ضباطاً لجيش مختلط ، ابقوهم جنوداً في وحدات خاصة . وهكذا جارت سياستهم الاجتماعية كبرياء الاغريق وحرصت على استئثار سلبية الشرقيين وطغت على سياستهم العسكرية وأدت بها الى الإخفاق .

#### ٤ - العباداة السلالية

العبادة السلالية : هل يحذر بنا اخيراً ان نربط بالانظمة الملكية ، لا بالديانة ، العباداة السلالية اصولها التي تؤلف بالفعل واحداً من اغرب تجديدات العهد الهليني؟ لا ريب في انها تحتل هنا مكانها الافضل لانها نتيجة مثالية الانسان المتفوق الناعم برضى الإله واقرّب الناس اليه ، أي المثالية الملكية السائدة . ومن الجدير بالملاحظة ان العباداة السلالية لم تتسرب يوماً بشكل من الاشكال الى مقدونيا ، أي الى الملكية التي لم تتسرب اليها مثالية الانسان ، سفير العناية الإلهية ، الا تسرباً نادراً وبطيئاً ، لانها اصطدمت فيها بمفهوم آخر هو مفهوم الملكية القومية . فبين الملكية الشخصية والملكية القومية يكن الخلاف الحقيقي مرة اخرى .

اجل قد يستهويننا ان نبحث عن هذا الخلاف في مكان آخر اي ، عندما نلاحظ ان الملكية المقدونية قد حكمت ارضاً اوروبية ، ان ننسب ، الى نشأة العباداة السلالية ونمّوها ، تأثيرات شرقية . انها لم تتخط البحر الابيحي . ولكن هذا التفسير غير مقبول اذ ان ملوكاً مقدونيين عديدين يرجح كانوا موضوع عبادة في اوربا ، ولكن في اليونان لا في مقدونيا ، في مدن قد تكون ارتبطت به سياسياً ولكنها غريبة عن المملكة المقدونية بالمعنى الحضري ، واذ ان العباداة السلالية ، كما ورست في الشرق نفسه ، ليس لها سابقات محلية . فالفرعون وحده ، بين كافة الملوك الشرقيين ، كان موضوع عبادة قبل الاسكندر . وقد استمرت هذه العباداة التقليدية باقدم مظاهرها . فاعتبر اللاجيون ، شأن الفراعنة ، ابناء آلهة وآلهة ، ولكن لرعاياهم البلديين فقط .

ثم انتظمت في الوقت نفسه عبادة موازية جديدة في مفهومها ومظاهرها نرى عبادات أخرى مماثلة لها في الملكيات الشرقية الأخرى حيث لم يعتبر الملك من قبل أكثر من وسيط بين الآلهة والسعب . وهكذا فإن العبادة السلالية ، التي هي العبادة الهلينية الحقيقية ، قد اشتقت من أصول يونانية بنوع خاص

وقد تركزت لها العادات اليونانية مرتكزا كافي المتانة والانساج لتحقيق النهج الذي أبحرته . وكان هذا المرتكز معقداً على كل حال ، أو بالأحرى كثير الأجزاء . فهناك في الدرجة الأولى مثال غامض جداً وقابل بالتالي لشتى التفسيرات هو مثال الـ *Dutinnôn* و *Iyche* ( الحظ ) والروح أو الكائن الإلهي الذي يحمي ويلهم ويحمي كل فرد . فعند من يستطيع هذا الجهد الصغير من الآلهة ان يظهر أعظم قوة وجدارة بالعبادة منه عند لفاسيلفس ، وهو يوفر له النجاة والسلطة ؟ وهناك في الدرجة الثالثة عبادة الاموات التي يقوم براسها أحفاد لم تعورهم النوائل في هذا المجال ، لاستمالة أصدقائهم والمعجبين بهم بغية الحصول على استراحتهم فيها . وهناك أخيراً عبادة « البطل » ، ذلك الانسان العظيم الذي ألقى المعجزات وانتقل بعد موته الى جوار الآلهة ، ولاسيما البطل « المؤسس » ، مؤسس المدن بنوع خاص ، أي ذلك الذي أوجد مجموعة بشرية جديدة تعتبر له ، في تأدية عبادتها له ، من تقواها وتوسكرها ، وتضمن في الوقت نفسه تلاحمها الداخلي ووثوق الصلة التي تشد جميع أعضائها : فهل يا ترى من أبطال يفوقون الملوك الهلنيين بما ثرم وتشيد المدن الكثيرة ؟ كل ذلك قد اتحد ببعضه البعض ، وربما بعناصر أخرى أيضاً ، وأعطى المور للعبادة السلالية في كافة الملكيات المقيمة في الشرق .

جرت من قبل محاولات رضي عنها الاسكندر وشجعها لإقامة عبادة لشخصه وهو بعد في قيد الحياة . غير أنها لم تحرر على العموم نجاحاً باهراً . ولكنه كان من الطبيعي ، بعيد وفاته ، ان تضعف أعظم المقارمات شدة ؛ نظراً لصفاته ومآثره التي فاقت مقادير الطبيعة البشرية . فقامت المنافسة حول إرثه الروحي وحتى حول بقاياه الفانية . فصرح « أفينيوس » رئيس ديوانه القديم ، في وسط المعسكر ، الحيمة الملكية وأقام فيها مذبحاً وعرساً وضع عليه شارات الملكية : وقد اعتبر الاسكندر متربعاً عليه بشكل غير منظور وملهماً المذاكرات الجارية بحضوره وأفلح مرزبان مصر ، بطليموس الأول المقبل ، في ان يستولي بخدعة على رفات الاسكندر وينقله الى الدلتا . وشيد أخيراً في الاسكندرية صريح صخم غداً مركزاً لعبادة الاسكندر التي فرضت كعبادة رسمية على كافة سكان مصر

ولكن عبادة الاسكندر ، اذا هي كانت سابقة ، لم تكن مثلاً وقدوة . ففي مصر نفسها ؛ حيث نستطيع تدبّع تطور العبادة العام ، ظهرت عبادة السلالة اللاجية . وبعث دون ان تربط بعبادة الاسكندر .

العبادة السلالية :  
الاشكال  
ان وضع تاريخ هذه العبادة يذهب بنا بعيداً ويفقدو بالنتيجة مستحيلاً . لا  
بسل ان درس الأشكال التي انطوت عليها لا يمكننا أن نسير فيه الى حيث  
تتمنى . ولكن هنالك حقيقة راهنة أعني بها تنوع هذه الأشكال  
الكثيرة تنوعاً غريباً .

هنالك تنوع في غاية ممارسة العبادة . فيمكن ان تؤدي لهذا الملك الميت أو ذاك من السلالة  
أو لمجموع ملوكها الموتى أو للملك الذي على قيد الحياة وحده أو للملكة أو لأعضاء آخرين من  
الأسرة الملكية على السواء ؛ لا بل ان السراري الملكيات أنفسهم ، وحتى غلام الملك ، قد  
حفظوا أحياناً بمظاهر التكريم الالهي .

وهناك تنوع في العبادة نفسها . فالشخص الذي هو موضوعها قد يشرك بالالوهة التي قد  
تتنوع هي نفسها الى ما لا نهاية له ، ولكن التفضيل يكون ظاهراً وطبيعياً لمصلحة أفروديت  
عندما يكون هذا الشخص امرأة . ولكن مرحلة الاشراك هذه ، وحتى مرحلة الممانلة ، لا  
يقتصر عليها ؛ فالعبادة تؤدي الى ملك أو ، كما في مصر ، الى ملك وزوجته يؤلهان شخصياً ويضاف  
الى اسميهما الشخصيين لقب أو عدة ألقاب عبادية أو لقب « ثيوس » ، الاله ، أحياناً .

وهناك تنوع في مظاهر العبادة : معبد خاص أو مذبح فقط ؛ تمثال مزدان بخصائص  
مختلفة أو موضوع في معبد إله آخر ؛ صلوات وذبائح وتقادم في مواعيد قد تكون قريبة أو  
بعيدة يقدمها كهنة أو قضاة من مراتب مختلفة ؛ أعياد خاصة ترافقها احتفالات ومباريات  
تختلف نوعاً وفخفخة باختلاف الأمكنة .

ان تنوع الاشكال هذا له ما يبرره تنوع المؤمنين والحرية التي تطلقها الحكومة في مبادعات لا  
يمكن ان تقع منها موقع الاستقباح . ويعلن بعض الأفراد وبعض الجماعات المحدودة العدد عن  
تقواهم بتقادم متواضعة . وتتشء المدن عبادات بلدية - وهي اكثر اشكال العبادة رواجاً --  
باقرار مراسيم أبعد من ان تقتفي المراسيم التقليدية ، ولكن ذلك لا يمنع الملوك عن الاسهام في  
النفقات بهبات هي في الغالب اوقاف تستخدم ايراداتها لتوفير المزيد من الزهو والعظمة  
للاحتفالات . ويقدم الملوك أنفسهم اخيراً على بعض المبادعات ، اما اكراماً لجدودهم ، واما  
إكراماً لأنسابهم ، او اكراماً لأنفسهم أحياناً . وهم يتصرفون في عملهم هذا تصرف الأفراد ،  
والفارق الوحيد هو ان لديهم وسائل دعاوة وعمل لا تتوفر للأفراد . فلديهم النقد الذي تتداوله  
كافة الأيدي والذي ينتقون له على هواهم الرسم والخاصيات والنصوص ، ولديهم الأراضي والموارد  
لنشييد المعابد ومكافأة خدامها وإقامة الاعياد . ولديهم « الاصدقاء » الموظفون الذين لا  
يرضون إلا بالاشراك بحماس في هذه العبادات ، بلو كانت عبادات خاصة هبدياً .

عند هذا الحد رقت سلالة الأطلين ، وقد برهنت على كل حائن عن ترزّن نادر في هذا  
الجمال انه انها ، من جهة ثانية ، لم تؤله سوى الملوك الموتى ولم تسمح بتأليه غيرهم . ولكن بعض :

الملكيات الاخرى قد ذهبت الى ابعد من ذلك لا سيما وانه ليس هنالك من حد طبيعي بسين الملك في حياته الخاصة والملك في حياته العامة ، لا ولا بين أملاك الملوك والمملكة . فقد أضيف في مصر الى عبادة الملك كفرعون التي استمر البلديون في ممارستها ، وفاقاً لطقوسهم التقليدية ، عبادات يونانية فرضت على جميع السكان وسهرت الادارة على الاحتفال بها باللغة اليونانية ووفقاً للطقوس اليونانية : عبادة بطليموس الاول وعبادات سلسلة الازواج الملكيين الموتى واخيراً عبادة الزوج الملكي الذي على قيد الحياة اي الاخ والاخت المتحدين بالزواج والمشاركين في السلطة . اما في اوج سلالة السلوقيين ، في اواخر القرن الثالث ، فاننا نعرف ، بأقل تفصيل ودون جزم في استمرارها اللاحق ، عبادة الجدود وعبادة الملك الحي وعبادة الملكة التي تنظمها الدولة معينة في كل مرزبانية رئيس كهنة ورئيسة كاهنات . وهكذا فان اللاجئين والسلوقيين ، على الأقل ، قد اضافوا ، الى عبادات متنوعة جداً ، عبادة رسمية متشابهة الشكل ، شاملة ارض المملكة بأكملها ، موزعة على مقاطعات هي المقاطعات الادارية نفسها ، يخدمها كهنوت قد يشرف رؤسائه على الكهنة المحليين والعبادات المحلية ، وتستلزم موجبات تفرض على عموم الرعايا . وان هذه المرحلة لنتيجة منطقية للنظام السائد ، اذ ان موالاة السلالة تستتبع في النهاية التعبد للمالك سعيداً .

لفت بعض المعاصرين النظر الى انه ربما كان هنالك ، في بعض مظاهر التقوى العبادية السلافية : نحو الملك ، شعور ، برز بقوة عظيمة عند نشأة شعوب كثيرة ، ثم استمر مغزاها وأهميتها أوعاد الى الظهور ، في أن حيوية الملك ضماناً للخصب العام ، وبالتالي لرخاء مملكتهم وسكانها . وهذا أمر ممكن اذ ان الفكرة تتراءى فعلاً في بعض الصيغ النادرة على كل حال . ولكن صدق هذه الصيغ موضوع شكوك مشروعة : فكيف السبيل الى اكتشاف المشاعر الصادقة حقاً في سير ادارة يرضى عنها الولاة حتى ولو لم يستخدموا سلطتهم لفرض الاشتراك فيها ؟ أضف الى ذلك ان ما يعوزنا بنوع خاص هو الصلة الضرورية بين هذه الفكرة والتأليه . فقد كان يكفي الملك ، حتى يكون ضماناً ورمزاً ، ان يكون وسيطاً دوناً حاجة لأن يصبح إلهاً : ولنا في أكثر من بلاد من بلدان الشرق القديم مصداق على ذلك .

في الحقيقة ، تعتبر العبادات السلافية نظرياً عن عواطف المؤمنين لا من حيث هم رعايا بل من حيث هم بشر . وتشمل هذه العواطف الاعجاب المبهوت أمام هذا القدر من العبقرية ، وهذا القدر من السلطة في جميع الحقول ، وهذا القدر من السعادة ، وهذا القدر من الانعامات يهبها الآلهة بشرياً سفير العناية الالهية ، وعرفان الجميل للخدمات المؤداة ، والأمل الوطيد باحسانات مقبلة أعظم شأنها أيضاً : وبكلمة موجزة تشتمل مثالية الفاسيلفس نفسها كما وردت في اللغة الرسمية بتسميات « المخلص » والحسن التي ترقدي قيمة عبادية في الدرجة الأولى . وهنالك لقب أقوى ايماء : فمن حيث الملك هو « ابيفانيس » أيضاً ، فانه إله « يتجلسى » .

ومن ناحية نظرية أيضاً ، يبقى انشاء أكثر هذه العبادات واسهام المؤمنين فيها أعمالاً حرة

وبديهية : فالعواطف التي سبق تحديدها ليست من تلك التي تستطيع سلطة سياسية ان تفرضها . وكانت هذه القاعدة مطردة باستثناء حالتين : حالة العبيد الملكيين المرغين بالضرورة على ممارسة عبادات سيدهم الخاصة ، مع اننا نجهل ما اذا كانت سلطة هذا السيد قد امتدت اذ ذاك الى فدائي الأراضي الملكية ؛ وحالة العبادات الرسمية ، مع اننا لا نعلم شيئاً عن مدى موجباتها حيال الرعايا : فواقع الموجبات المالية نفسه لم نتحقق منه الا في مصر فقط . وان فكرة العبادة السلالية ، في الحقيقة ، تذكرنا بالعبادات البلدية العديدة التي ليس من ريب في ان انشاءها يعود الى قرار السلطات في كل مدينة ، كما يتضح ذلك من تنوع أشكالها ومن اختلاف تواريخ انشائها .

حريّ بنا ، بموازاة الناحية النظرية ، ان لا نهمل وضوح الناحية العملية ، فمما لا ريب فيه ان بداهة عواطف المؤمنين ، الراغبين في الاعراب عن تعلقهم أو الخاضعين لضغط ليس ضغطاً معنوياً فقط ، لم تكن في أكثر الأحيان سوى ظاهر بداهة فحسب . ويجوز القول نفسه عن بداهة عواطف المدن التي تنشأ أبداً بالانعامات الملكية والتي تدرك ادراكاً مسبقاً أحياناً ايماءات المراجع العليا . وهكذا فان العبادة السلالية تعبر عملياً عن عواطف كثيرة المفارقات يتعذر علينا ان نميز بين نصيب الصدق ونصيب التملق فيها ، لا سيما وليس أمامنا سوى المستندات الرسمية التي انتقلت اليها عن طريق الكتابات .

فن حيث ان العبادة السلالية تحمل ، بمثل هذه القوة ، طابع المثل السياسية والواقع السياسي ، فهل هي تعبر عن عاطفة دينية حقيقية يا ترى ؟ قد يكون من الحكمة ان لا ننفي ذلك نفيّاً باتاً . وسنعود الى هذا الموضوع في سياق البحث . ولكن الشيء الثابت هو أن الاحتفال بالعبادة قد اقتصر في أغلب الأحيان على القيام بطقوس اصطلاحية لا تتعدى قيمتها قيمة الحركات الرمزية . ولعله يجدر بنا ان نفسر بذلك كيف ان اتساع العبادة السلالية ، وحتى تعميمها كعبادة رسمية ، لم يصادف مقاومة ، على ما نعلم . فان الوثنية ، التي لم تُقِم حدوداً واضحة المعالم بين ما هو بشري وما يفوق قوة البشر وما هو إلهي ، قد أوجدت ، بهذا الصدد ، حقلاً مؤاتياً جداً . أجل كان هنالك شعب يؤمن بالله واحد ، هو الشعب اليهودي . ولكن السلطة قد سلكت حياله سلوكاً حكيماً ، وان هو ثار على الملكية السلوقية بعد السنة ١٦٦ ، فالعبادة الملكية أبعد من أن تكون السبب الرئيسي للثورة ، لأنها لم تدخل أورشليم الا بمظاهر عيد لمناسبة ذكرى جلوس الملك ، وليس لهذه المظاهر ، بالضرورة ، أي مغزى ديني . أما في المناطق الأخرى فلم تقم أية صعوبة بوجه السلطة على الرغم من أنها كانت حرة طليقة في تصرفاتها .

اضف الى ذلك ان تأدية العبادة ، سواء كانت بديهية او موصى بها او مفروضة فرضاً ، لم يكن لها ، في ما يظهر ، فعالية سياسية . ولا يعجب من ذلك إلا من يدسى ان الاغريق قد جهلوا ابداً النظام الشوقراطي وإن آلهة مدنهم لم يتدخلوا قط في شؤون مدنهم وان اعظم هاتفي

الغيب شهرة قد اخفقوا على العموم عندما خرجوا عن تحفظهم المتحذر . ولعله من المرجح ان الملوك ، بقبولهم تعظيم هؤلاء الهاتفين او بلجوئهم اليه قد استهدفوا اعلاء شأن نفوذهم الشخصي وايثاق تعلق مؤمنيههم بهم . ولكن هذه الطريقة قد بقيت دون جدوى لأنها طبقت على جميع الملوك دون استثناء ففقدت بالتالي قوتها . فالقرارات الشرعية والمظاهر المؤثرة ، مهما بلغ من امرها ، لم تخدع احداً . ولم تحل دون اقدام المؤمنين على العصيان والثورة عندما تتعرض مصلحتهم للضرر او عندما تعطيه الظروف الراهنة بعض الامل بالنجاح . ومن الامور الثابتة ان كمال تنظيم العبادة هنا او هناك لم ينجح في تأخير المخططات أية ملكية من الملكيات .

### الخلاصة

ان قدرة الاغريق على الابتكار السياسي لم تنطو لذن ، في العهد الهليني ، على أي دليل من أدلة النهضة . فهم قد حاولوا انقاذ المثال الجمهوري بتنظيم الاتحادات وتوسيعها . ولكنهم ابتكروا ، مع الملكية ، أشياء جديدة تنطبق على الظروف التي نشأت عن الفتوحات .

ألفت الملكية ، اقله في الشرق ، بين مثالية الانسان المتفوق وبين النظرية القانونية للشرعية أي نظرية الحق السلافي في التملك . وتكون هذه النظرية قاعدة متينة للسلطة المطلقة كحق إلهي وبشري معاً من جهة ، وللخلافة الوراثية التي تجنب الفوضى وتتيح تلافى نتائج الكوارث من جهة أخرى . وانطلاقاً من هذه السلطة تكون جهاز اداري ومالي وعسكري كامل توجته العبادة السلافية بغية ضمان تنفيذ قرارات الملك وجمع القوى المادية والأدبية في أراضيه بين يديه ، وهو جهاز على قليل أو كثير من التعقيد لأنه يأخذ بعين الاعتبار الظروف المحلية ، ولكنه يقرب من الكمال أحياناً . وفي الحقيقة برهنت العبقريّة اليونانية ، في الملكيات ، عن امكانيات عقلية وتقنية فائقة .

غير ان الملكيات كلها قد أخفقت . وقد بدأ الانحطاط يدب فيها جميعها في أوائل القرن الثاني كأبعد حد ، وبرز مادياً في عجزها عن مقاومة قوة روما . فكان أمر زوالها المبكر منوطاً بروما دون غيرها : ولم تضمن هذه أو تلك من الملكيات بقاء أطول الا بفضل تزدادات روما فحسب . ولكن هذا الانحطاط يبرز أيضاً في حقول أخرى من التنظيم الملكي .

يجب الاعتراف هنا بأن الاغريق قد أخذوا على عاتقهم ، بسبب قلة عددهم ، وفي وجه الكتل البشرية التي كان من الواجب عليهم تحريكها وتطويرها ، مهمة ثقيلة جداً ، لا سيما على الصعيد الاجتماعي .

## الفصل الثالث

### الاقتصاديات والمجتمعات

لم تكن ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية دون ظروف الحياة السياسية تغيراً ، وانما الجدة الكبرى هنا هي توسيع النطاق الجغرافي المفتوح أمام مشاريع الاغريق والاتصال الذي أقيم ، للمرة الأولى في التاريخ ، وبهذا القدر من التآلف ، بين اقتصاديات ومجتمعات مختلفة في الأصل اختلافاً كلياً . هذه هي النتيجة المباشرة لفتح الامبراطورية الفارسية على يد الاسكندر ، وقد أبقى عليها ، في جوهرها ، طيلة قرون عديدة ، خلفاء الفاتح . وقد شبه بعضهم حملة الاسكندر باكتشاف أمريكا الذي كان منطلقاً للأزمة الحديثة . ولكن في هذا التشبيه بعض المغالاة ، لأن الامبراطورية الفارسية لم تكن « أرضاً مجهولة » ، للاغريق قبل ان يمسوا أسياها . غير أن المقارنة بين الحدين أمر ممكن من حيث اتساع نتائجها وديمومتها في بعض النقاط .

#### ١ - العالمان

فقد أصبح هنالك عالمان متشاركان بفعل تفوق أحدهما العسكري . وقد اختلف اليونان القديمة وضعها وحاجاتها الخاصة اختلافاً شديداً .

في العالم اليوناني القديم ، ظهرت بوادر الهبوط على الحياة الاقتصادية منذ منتصف القرن الرابع ، او اقله لم يعد هناك التثام حالص بين المجتمع وبين التطور الاقتصادي . فقد صعب على صغار الملاكين ، يوماً بعد يوم ، ان يؤمنوا معيشتهم بتعاطيهم شخصياً زراعة أراضيهم الريفية . وغدت المنافسة بين المدن الصناعية أشدّ عنفاً ، بينما غدت الطلبات الخارجية نادرة ، على اثر ظهور صناعات محلية ، لا سيما صناعة الخزفيات ، في ايطاليا وخلقيس وفي روسيا الجنوبية نفسها . وجاءت الحروب الخارجية او الأهلية ، الى جانب ذلك ، تزيد البؤس وتساعد على ازدياد الارتزاق : فارتفعت ارتفاعاً تصاعدياً نسبة السكان الاحرار في اليونان القديمة الذين لم يؤمنوا بعد ذلك في وطنهم معيشتهم ومعيشة عائلاتهم ، فأرغموا على المخاطرة بحياتهم في خدمة دول اجنبية

قد تكون أحياناً في عداد اعداء الاغريق . فلم يكن لهذه الازمة من حل سوى عن طريق ثورة اجتماعية او عن طريق العودة الى الاستعمار الذي توقف منذ قرين . فجاءت السيطرة المقدونية على المدن التي مزقتها المنازعات الداخلية تسدّ المنافذ أمام الثورة الاجتماعية . ولكن حملة الاسكندر فتحت الشرق أمام الهجرة اليونانية .

اختلف هذا الشرق اختلافاً لا حدود له .

الشرق

قامت فيه اراض بالغة الخصب استثمرتها منذ زمن بعيد استثماراً جيداً جماهير مجتهدة نشيطة اعتادت العمل الدليل تنفيذاً لأوامر السيد : هذه الاراضي هي مصر وبلاد بابل ، درّتا الفتح الفريدتان . وقامت فيه مناطق اخرى اقل خصباً لزراعة الحبوب اعتمدت فيها جزئياً زراعة افضل تلاؤماً مع المناخ وضعف الموارد المائية وموجّهة شطر زراعة الاشجار المثمرة ، الكرمة وشجرة الزيتون بنوع خاص : كالشواطىء المتوسطية في آسيا الصغرى وسوريا - فينيقيا مثلاً . اما في واحات سوريا وفي بلاد الفرس ومنطقة البختيار التي لا يعرف عنها شيء الكثير ، فاننا نعتقد على الاقل باستخدام مياه الينابيع والآبار فيها استخداماً دقيقاً لزراعة البقول والحضر . ولكن ما زالت ، بين هذه المناطق الزراعية المتطورة الى حد بعيد ، مساحات شاسعة بقيت الحياة الريفية فيها بدائية جداً غير مختلفة أحياناً عن المظاهر الراعية والبدوية .

ونشاهد التناقض نفسه بصدد الانتاج الصناعي . فكانت هنالك يد عاملة واسعة الاختبار لديها تقنيات ابعد تقدماً أحياناً من تقنيات الاغريق تعمل في حوانيت المدن وحتى في المصانع الملحقة بالمعابد حيث الاشغال خدمية بنوع خاص . ولكن القسم الاكبر من الامبراطورية الفارسية ما زال في مرحلة العمل غير المتقن بغية سدّ حاجات العائلة أو القرية .

وتوفرت للتجارة بعض الطرقات لسير القوافل والوحدة اللغوية التي تحققت في هذا الحقل كما في الادارة لمصلحة اللغة الآرامية . ومن الثابت ان التجارة قد انتصفت ، هنا او هناك ، بعض النشاط ، لا سيما في جوار البحر المتوسط ، على الرغم من ان المرافىء اليونانية في آسيا الصغرى والمرافىء الفينيقية قد فقدت الكثير من ابردهاها الماضي . ولكن مناطق واسعة لم تزل تعتمد في معيشتها اقتصاداً شبه مغلق ، منكشّة على نفسها ، حاهلة النقد تقريباً . وكالت المعادن الثمينة متوفرة في كل مكان ، باستثناء الفضة في مصر . وقد ضرب الملك والمراربة الفرس نقوداً ، وبعض المدن التجارية ايضاً ، ولكن بكميات غير كافية . وكثيراً ما لجأوا الى تخزين المعادن الثمينة بشكل سبائك في حصون العواصم وبشكل مصوغات في القصور ومساكن الاثرياء والمعابد التي 'سقف بعضها' بقراميد « من الفضة والذهب . وعلى الرغم من النقود اليونانية ، لا سجا الاثينية منها ، التي انتشرت في بعض الاحيان بعيداً في الداخل ، كان الاقتصاد النقدي ابعد من ان يحرز الانتصار في كل مكان ويبرز اثره في إنشاء اسكال تبادل غير المباشرة الاولى .

ويمكن القول نفسه عن التفاوت الاجتماعي في البلدان التي احتلها الاسكندر . فكانت آسيا

الصغرى الغربية وسوريا وفينيقيا ومصر وبلاد بابل مناطق عرفت فيها الحياة الحضرية ، وهي على العموم قديمة جداً ، نهضة لامعة أحياناً . غير ان هذه الحياة كانت في هبوط في كل مكان تقريباً . اُضيف الى ذلك انها لم تبد في كل مكان بمظهرها في اليونان . فالطبقة الكهنوتية قد لعبت فيها دوراً اعظم اهمية ولم تسيطر عليها قط فكرة وحدة المصالح بين المواطنين المتساوين حتى ولا مجرد فكرة المواطن . وقد خضع القسم الاكبر من الامبراطورية الفارسية خصوصاً لنظام اجتماعي آخر . فالناس توزعوا فيها اجهزة ثيوقراطية مرتبطة بالمعابد ابي بكنهتهم وحتى برؤساء كهناتهم ، او قبائل تخضع لرئاسات شبه اقطاعية تشمل ذوي الاخاذات والزعماء وتنتهي عند القمة بشخص الملك . وارتدت الفدائية اشكالاً مختلفة ، حتى العبودية أحياناً في جوار المعابد ، وكانت عملياً نظاماً لكثرت عمالية كثيرة ، كما كانت ، في كل مكان تقريباً ، نظاماً للفلاحين الملحقين بالاراضي التي يستثمرونها بمراقبة الوكلاء . وقد شبّه اغريق القرن الرابع « البرابرة » بفدائيي مدينة سبارطة ، وهم لم يأتوا بهذا التشبيه عملاً اعتبارياً .

كان العالمان مختلفين إذن . فهل كانا متكاملين يا ترى ؟ يمكننا اثبات ذلك شركة ام استثمار ؟  
الحاجات الاغريق . فان اراضي واسعة الارحاء قد توفرت لنشاطهم وهجرتهم واستعمارهم وتقنياتهم الزراعية والتجارية والهندسية والادارية . وكانت اليونان بحاجة الى الشرق لتأمين بقائها بكل ما في كلمة « الحاجة » من معنى مادي . ومهما كان من قلة عدد مرشديها الذين وعوا ذلك ، فانها قد شعرت شعوراً غامضاً بهذه الضرورة وانتهرت الفرصة السانحة . فما القول عن الشرق اذن ؟ انه لدن قابل للمعالجة غني بإمكانات التطور . يقدم اراضيه وموارده الطبيعية ، وهو بحاجة لمرشدين كي يحسن استثمارها واستخدامها . ويقدم طاقاته البشرية ايضاً . ولكن الخيار الذي سيتوقف عليه المستقبل يجب ان يتم عند نقطة الانطلاق . باستطاعة الاسياد الجدد ان يسيروا بهذه الطاقات البشرية شطر تطور مماثل لذاك الذي سبق لجودهم اليونانيين ان قطعوا مراحله ، بغية اشراكها في الانتفاع بالخيرات الهادية التي سيكثرها المجهود المشترك . وباستطاعتهم ، على نقيض ذلك ، ان يحاولوا حصر البلبلة الاجتماعية بالاحتفاظ لانفسهم بفوائد استثمار اقتصادي اقل شمولاً لانه يرتكز الى عمل يد عاملة متدنية ، ولكنه يكفي لسد حاجاتهم الحالية الملحة .

ان التجربة الهلنسية ، التي كان من شأنها ان تؤدي الى نتائج تفوق أهميتها كل تصوّر ، قد أضارها تردد الاغريق أو أنانيتهم . فبمقدار رؤيتهم للحلّين واختيارهم بينها اختياراً واعياً - ولم يحدث ذلك باستمرار - قد اختاروا بالتفضيل الحل الثاني الذي كان يحد من نشاطهم . ولا ريب في ان الاسكندر كان أثر الحل الأول ، كما يبدو ذلك من الميول التي ينم عنها سلوكه الشخصي وأعماله السياسية حيال البلديين . ولكن العدد الأكبر من مرافقيه لم يخفوا استنكارهم ، فكان الامل ، بعد وفاته ، بصيب محاولات الامتزاجية . ولم تعد هذه المحاولات الى الظهور الا في عهد متأخر ، تحت ضغط الظروف ، ودون هدف معين اجمالاً ، ولكنها لم تجر ، على كل

حال ، على النطاق الواسع الذي كان من الواجب ان يفرضه عدم توازن الظروف الجغرافية والبشرية . وهكذا فان الاغريق قد ألزموا أنفسهم بعمل يتجاوز حدود طاقتهم ، لأنهم آثروا ، اعتداداً بتفوقهم ، الاستثمار على الشركة .

## ٢ — الاقتصاد والمجتمع في اليونان القديمة

لم تحن اليونان القديمة فائدة طويلة الأمد من استثمار الشرق هذا .

### ١ — التطور الاقتصادي

انصهرت اليونان منذئذ في وحدة اقتصادية أعظم اتساعاً ، الى حد بعيد ، منها في السابق . وحدت المسافات وصعوبات النقل البري من مدى هذه الوحدة نحو الشرق . ولكن هذه الوحدة تضم مع ذلك ، بأقل تقدير ، المتوسط الشرقي بكليته — مع بعض التمديدات نحو صقليا وقرطاجة ، وحتى نوميديا ماسينييا — حيث تسهل المواصلات البحرية وحيث نستطيع التأكد من مطابقة التطور في الأسعار . فالعالم اليوناني القديم يتأثر اذن بمنافسة بلدان ان لم تكن « جديدة » فان الطبيعة كانت لها أكثر سخاء على الأقل وتوفرت لها ، على كل حال ، يد عاملة ألقت مستوى حياتيا متديناً .

البجوبة الأولى  
وثب الاقتصاد اليوناني في البداية وثبة قوية . فالحرب نفسها التي ترفقت نسبياً آنذاك باليونان وعاثت فساداً في البلدان الأخرى ، وحاجات الجيوش المتنقلة ، التي تستهلك كثيراً ، والاضطراب وحتى الشلل التام أحياناً اللذان يصاب بهما الانتاج وتيارات المبادلات العادية ، كل ذلك ساعد على عودة الازدهار الى حين . وارتفعت أسعار كافة الحاصلات الزراعية والصناعية بسبب تضائل العرض وازدياد الطلب ونمو التداول النقدي بفضل ضرب المعادن الثمينة التي كانت تكنز في الشرق قبل ذلك العهد . أجل طرأت على الأسعار تقلبات كبيرة ومفاجئة . فكان لنشاط بعض المضاربين أثره أحياناً : من ذلك أن مرزبان مصر كليومينوس قد احتكر في أيام الاسكندر القمح المصري المعد للتصدير فأسهم بذلك في رفع أسعاره في جميع حوض بحر ايجيه بغية تحقيق أرباح طائلة . ولكن هذه المضاربات لم تكن سوى ظروف عارضة أظهرت اتجاهاً عاماً نحو رفع الأسعار . ومن حيث أن اليونان تستورد القمح ، فانها قد تضررت من هذا القبيل وشكت من القحط . ولكن ذلك ليس بالنسبة اليها سوى الوجه الثاني المحتمل لوضع جزيل النفع على العموم . فهي تجدد وتنتج لمستهلكين أوفر عدداً لا يعوزهم المال . أضف الى ذلك ان مبيعاتها وعودة الجنود والمهاجرين اليها تنقل اليها قسماً من ثروات الشرق ، فتحصل من ثم على رؤوس أموال يساعد توفرها على انماء حركة الانتاج .

لذلك عرفت عهداً من البجوحة . ولكن هذا العهد لا يدوم عملياً الى ما بعد السنة ٢٨٠ ، أي الى ما بعد استقرار العالم الهليني . فحوالي هذا التاريخ قام توازن اقتصادي جديد وطابق الانتاج الحاجات وانتظمت التيارات التجارية . وان اليونان القديمة ، التي لم تضمحل الحروب فيها بل تعددت وغدت أشد قسوة ، لم تستمر بعدئذ المستفيدة الأولى ، عن طريق الرجال الذين غادروها ، من العالم الشرقي الذي فتحه الاسكندر أمام مشاريعها .

منذ السنه ٢٨٠ تقريباً تدنت الأسعار ، وقد دام هذا التدني حوالي ثلاثين سنة ، أقله للمنتوجات الزراعية التي ترتدي وحدها صفة الديومة بطبيعتها ونوعها ، والتي يمكن بالتالي مقارنة أسعارها . وبعد منتصف القرن الثالث ارتفعت بعض الأسعار مرة أخرى . ولكن القسم الأكبر منها لم يطرأ عليه أي تغيير وبقي متدنياً . غير أن اليونان ، في كلا الحالين ، لم تستفد قط .

مزاخمة الزراعة والصناعة  
فالحبوب هي المنتج الرئيسي الذي لم تبق أسعاره في المستوى المتدني الذي بلغته حينئذ من الزمن ، وهي بالضبط ما تفتقر اليه اليونان . وليس لدى الريفيين منها سوى كميات فائضة قليلة للبيع . لذلك فان ارتفاع الأسعار لم يؤمن لهم الثروة بينما هو أضر بسكان المدن . فبرزت مشكلة التمويل في مدن عديدة بشكل مستعص حاد . فاسند أمر حلها أو بالأحرى تخفيفها الى بعض القضاة وأثرياء المواطنين الذين تعهدوا ادارة أموال خاصة كثيراً ما تغذيها الاكتتابات وسعوا وراء زيادة الاستيراد وتنظيمه محاولين تأمين المواد الضرورية للأسواق وبيعها بأسعار معقولة للفقراء . وقد لجأ بعض الملوك الراغبين في اجتذاب احدى المدن اليهم الى اهدائها شحنات من الحبوب أو الى توفيرها لها بأثمان منخفضة ، لأن السخاء سلاح من اسلحة دبلوماسيتهم . ولكن عها كان من أرابة رجال الدولة اليونانيين ، فانها لم تقض على المشكلة التي تصبح مقضبة عند اقل تغير مناخي او اقل حدث عسكري . وقد اشتكى سكان مدن عديدة من غلاء الغذاء الرئيسي ومن الفاقة احياناً . وقد جاء على لسان احد الهزليين في اواخر القرن الرابع قوله ان الناس الجائعين في اثينا يتغذون املاً وهواء عليلًا .

مقابل هذا القحط في انتاج القمح ، اثبتت تربة اليونان جودتها لزراعة الاشجار المثمرة ، واهمها آنثذ ، كما في السابق ، الكرمة وشجرة الزيتون . ولكن الزيت لم يرتفع سعره عملياً بعد السنة ٢٥٠ ، واذا ما بدا بعض الارتفاع في سعر النبيذ ، وهو ارتفاع معتدل على كل حال ، فهو لم يتناول نبيذاً تلتجيه اليونان القديمة . ومرد ذلك الى ان زراعة هذه الشجيرات او النباتات الزيتية السنوية ، كالسمسم مثلاً ، قد نمت نمواً كبيراً ايضاً واقتنت في البلدان الشرقية . وثبتت النصوص النادرة التي لدينا ميزات طرائق الاستثمار الريفي المعتمدة في اليونان الاوربية او في الجزر . بيد ان ذلك لا يعني ان طبقة صغار الملاكين لا تتعنى ، ولا يوفر لها دخلاً كافياً من اراضيها ،

ولا يحول دون اضطرابها للاستفادة ورهن ممتلكاتها ، أي ان الاثرياء بكلمة موجزة ، قد استطاعوا على حسابها توسيع اراضيهم . فتحسين التقنيات واللجوء المتزايد الى استخدام العلف الاصطناعي خلال سني استراحة الارض وتقدم تربية المواشي التي توفر مزيداً من اللحوم والاسمدة في آن واحد ، كل ذلك عاد امره للملاكين الميسورين المستثمرين ذوي رؤوس الاموال . اما الباقون فقد نهكوا انفسهم في الاحتذاء بهم .

ولم تكن الصناعة اوسع ازدهاراً .

فالاعتقادات القديمة لا تزال مهيمنة والطبقات الاجتماعية العليا لا تزال قليلة الاكثارات بها . غير ان هنالك ظروفًا كثيرة مؤاتية لها . فرؤوس الاموال متوفرة . والشرق يجباهيره الغفيرة ، مها كان من قدي مستواها الحياتي ، سوق تجارية لا تحدد حاجاتها . ويكفي لتأمين هذه الحاجات باسعار تستحيل معها المنافسة ان تحسن وتستخدم ، بشكل آلات ، التطبيقات العملية التي توصل العلم اليها حينذاك . ولكن الاغريق لم يسلكوا هذا السبيل . فبقيت الصناعة صناعة يدوية : لا بل اننا لا نعرف ، في بلاد اليونان آنذاك ، مصانع يدوية يبلغ عمالها المائة والعشرون كما سبق . ورأينا في معمل والد ليزياس .

ليس عجباً من ثم ان تتحمل الصناعة اليونانية ، شأن الزراعة ، بصعوبة ، منافسة الشرق . فقد توصل الشرق الى ان يكفي نفسه بزيادة وتحسين انتاجه الخاص . فأقفلت السوق التي بدا وكأنه فتحها . لا بل انه توفق الى ان يصدر الى اليونان بعض مصنوعات الفخخة التي توفرت له خاماتها او حصل عليها بسهولة . فاستحال الصراع ، او بالاحرى مجرد البقاء ، ما لم يسلم الاغريق ببعض التضحيات في الارباح المعتبرة مشروعة حتى ذاك العهد ، أي ان حالة الصناعي او العامل الجرد قد تدنت وكادت لا تفضل حالة العامل العبد .

أما التجارة فما من ريب في انها نمت نمواً عظيماً اذا ما نظرنا الى مجموع المتوسط تطور التجارة الشرقي الذي تجتازه مبادلات لم يعرف لها من قبل مثيلاً ، من حيث النشاط والاتساع . ومن نافل القول ان هذه المبادلات لم تجر كلها خارج شبه الجزيرة اليونانية .

نلاحظ بالفعل ، في اليونان ، فقدان مركزية التجارة البحرية التي نزع مرفأ البيره من قبل الى اجتذابها اليه . فقد دببت الحياة في مرفأء صغيرة عديدة اقتصر نشاطها في السابق على المساحلة المحلية فنجحت في اقامة العلائق المباشرة مع البلدان النائية . غير ان تجارة اليونان قد هبطت من حيث قيمتها المطلقة وقيمتها النسبية . وبعدت عنها الطرق الرئيسية للتجارة البحرية . فانحرفت نحو الجنوب بسبب الأهمية الاقتصادية التي أحرزتها مصر ، وازداد عددها بفضل بروز نشاط المدن اليونانية في آسيا الصغرى ، ولم تتجه بعد ذلك نحو ما كان ، بمغالطة جغرافية ، بمثابة القلب لبحر إيجه ، فتلاقت منذئذ ، بشكل أقرب الى المنطق ، في جزر السيكلاد نفسها .

كان من شأن فقدان المركزية وانحراف الطرق ان سبباً ، مجتمعين ، تأخر اثني . وهذا

التأخر واقع لا ريب فيه . فقد أتى مسافر تجول في أنحاء اليونان الوسطى في القرن الثالث على ذكر بعض المرافئ الصغيرة دون أن يخص مرفأ البيره بكلمة واحدة وأشار الى وجود أجناب كثيرين في اثينا ولكنهم من السائحين والطلبة . أجل بدت الحركة المرفئية والتجارية وكأنها تتجدد في القرن اللاحق . فعاد الازدهار الى اثينا كما يتضح ذلك من ضرب النقود الوفيرة التي اشتهرت « بالطراز الجديد » لأن رسم « اثينا » فيها قد فقد طابعه التقليدي القديم . وصدر مرسوم عن الجمعية المدافعية يقضي بأن تقبل ، في كل مكان ودون مضاربة ، النقود الأثينية من قطع الدراهم الاولى . ولكن هذه النهضة في مدينة كانت العاصمة الاقتصادية للعالم اليوناني الكلاسيكي قد بقيت محدودة : فالنقود الأثينية التي انتشرت في الشرق انتشاراً واسعاً في عهد الاسكندر لم تشاهد فيه عملياً بعد ذلك .

وحلت مرافئ أخرى آنذاك محل مرفأ البيره .

فهناك أولاً رودس ذات الموقع الممتاز ، جنوبي البحر الايجي ، على طريق ، هي محور حوض المتوسط الشرقي ، تبدأ من البحر الأسود شمالاً وتنتهي الى سوريا ومصر جنوباً . وقد اتضحت اهميتها منذ اواخر القرن الرابع بعد ان كانت وضعة في اول امرها . فصدرت الزيت والنبيد في القوارير الرودية التي اكتشفت حتى في نجد ايران وفي قرطاجنة . وجمعت في مستودعاتها بنوع خاص منتوجات كافة أنحاء العالم المتوسطي التي تولت هي توزيعها . فأناحت لها الأرباح التي جنتها الدولة والأفراد ، على غرار اثينا في القرنين الخامس والرابع ، ان تشيد الأبنية الفخيمة — ومنها « الجبار » الشهير الذي هو تمثال لإله المدينة « هليوس » اي الشمس — وتتعهد اسطولاً حربياً يحسب له اعظم الملوك حساباً ، وتفرض سيطرتها على بعض الرعاسيا في المناطق الآسيوية المجاورة لجزيرتها ، وتبسط نفوذها على مدن كاريا وايونيا .

وبعد رودس بزمناً ، تأتي ديلوس في المرتبة الأولى . فديلوس هذه جزيرة صغيرة تعجز عن التوصل بنفسها الى القوة المادية . ولكنها جزيرة قائمة في قلب ارخبيل السيكلاد ، وخصوصاً جزيرة مقدسة ساد الاعتقاد بأن البضائع ورؤوس الأموال تكون فيها بأمن من أعمال القرصنة والحرب . خضعت فيما مضى الى حماية اثينا ثم حصلت على الاستقلال بانعام من احد القواد في اواخر القرن الرابع ، ثم عادت الى الخطيرة الأثينية في السنة ١٦٧ بانعام من روما ، فعدت اذ ذاك ، بنوع خاص ، مركزاً تجارياً هاماً لأن روما جعلت منها في الوقت نفسه مرفأ حراً . منذ ذاك التاريخ توافد اليها التجار من كل البلدان ، لا سيما الآسيويون والمصريون والاطاليون . وقد اعتمدها الايطاليون الأقوياء سوقاً رئيسية لهم في الشرق . وهم لم يبيعوا فيها بضائع كثيرة ولكنهم وظفوا رؤوس اموالهم واشتروا فيها المواد والمصنوعات التي كانوا يصدرونها الى الغرب . وكانت ديلوس ، على الاخص ، سوقاً كبيرة للرق ، قد يباع فيها ١٠.٠٠٠ عبد في اليوم كما يثبت ذلك سترابون ؛ وقد ابحر منها ، نحو مصائر جديدة وبائسة ، عدد كبير جداً من العبيد

اليونانيين - اسرى الحروب واسرى القراصنة - والشرقيين الذين كونوا جماهير الفدائيين في صقليا وإيطاليا .

يتضح من ذلك ان النشاط التجاري المستمر او المستعاد في اليونان البلقانية والبحرية تزداد سيطرة روما عليه يوماً بعد يوم . ومرد يقظة ازدهار اثنينا في القرن الثاني الى رضى روما بنوع خاص التي لم تكن لتخشى بعد مدينة عديمة القوة تعيد لها ديولس فتجعل هي منها قاعدة لعملياتها المالية في الشرق . وانما جرى كل ذلك ضد رودس التي ارادت روما الاقتصاد منها لأنها لم تثق بأمانتها السياسية . وقد حاول موفد رودسي ، بعد انشاء مرفأ رودس الحر بزمان قليل ، ان يثير الشفقة في المجلس الروماني باعلانه ان دخل الجمارك السنوي قد هبط من مليون درهم الى ١٥٠.٠٠٠ . اجل ليس من ريب في ان هذه الارقام مغالى فيها . ولكن مها يكن من الامر ، فان تقهر رودس قد سار سيراً مطرداً . وقد انتهى نشاط روما الى النتيجة نفسها في كل مكان آخر ، وفاقاً لكيفيات مختلفة وفي تواريخ على كثير او قليل من الوضوح وبصورة مباشرة او غير مباشرة . فان كورنثوس ، التي يبدو انها حافظت على نشاطها حتى ذاك التاريخ ، قد نهبا ودمرها الجيش الروماني المنتصر ، في السنة ١٤٦ ، ولن تستيقظ قبل قيصر . وفي اوائل القرن الاول ، دمرت ديولس واثنينا ايضاً : الاولى تدميراً كاملاً لن تنهض بعده ، على يد انصار ميثريدات الذين أرووا فيها غليل حقدهم على الرومان ؛ والثانية تدميراً جزئياً بسيطاً على سيد سيللا الذي عاقبها بذلك على مناصرتها ملك البونت .

أكمل التطور الاقتصادي دورته حينذاك : فلم تبع اليونان القديمة الى الاجانب سوى دروس أساتذتها في الفلسفة والبيان والروائع الاصلية لفنها السالف أو نسخاً عنها ؛ وليست اثنينا ورودس بعد ذلك سوى مدن جامعات ومتاحف ؛ وانجرت الاسكندرية والمرافئ الآسيوية مباشرة مع روما .

## ٢ - الطبقات الاجتماعية

كان لهذه الظروف الاقتصادية ، بالضرورة ، ردة فعل على المجتمع اليوناني . ففي كل مكان تقريباً بدا ذوو اليسار باعداد اكبر منها في العهد السابق . وقد شدد المؤرخ الكبير ميخائيل روستوفتزييف ( Rostovtzeff ) ، بحق ، على نمو ما أسماه بكلمة « بورجوازية » الفرنسية . وان هذا التعبير لأفضل في الحقيقة من « الطبقة الوسطى » لأت تركيبها الاشتقاقي يلفت النظر ، على الاقل ، الى الصبغة المدنية و « المتمدنة » بجميع ما لهذه الكلمة من معان - التي يصطبغ بها اولئك الذين تعنيهم . وسنشاهد هذه البورجوازية في مدن الملكيات الشرقية حيث يؤلف وجودها وتحقيقاتها وقائع قد تكون أبعد تأثيراً . ولكنها تبرز وتنمو ايضاً في المدن اليونانية القديمة .

يجب ان لا نتكلم بصدها عن الثروات الكبيرة . فلم تتكون اذ ذاك ، كما لم تتكون من قبل ،

ثروات طائلة ، و « النباب » الممولون موجودون في غير مكان ، أي في الشرق . وقد أوضح « بوليب » ان اعظم اغريق اليونان ثروة ، في اوائل القرن الثاني يملك ٢٠٠ مثقال ( ١٢٠٠٠٠٠٠ فرنك في السنة ١٩١٤ ) اي بالضبط ما ملكه كاليباس اغنى أثيني في القرن الخامس . وتتميز هذه الطبقة بيسار كريم يسمح للشخص بان يعيش وتعيش معه عائلته ، وفاقاً لقواعد الاعتدال ، دون فخفة صاخبة ، ودون اهتمام كبير للأعمال ، مع بعض العبيد البيتين الذين يؤمنون أعمال المنزل .

فما هو في الاصل مصدر هذا اليسار يا ترى ؟ لا نعلم ذلك بمزيد من التفاصيل ، وليس باستطاعتنا سوى الاعتقاد بمكاسب تجارية ، وبنشاط مثمر ، عام او خاص ، في الشرق احياناً . فقد خلقت مهزلة ذاك العهد مثلاً جعلته موضوع تهكم هو مثال المتظاهر بالشجاعة أو بالاحرى قائد الجنود المأجورين الذي يتباهى بارباحه الضخمة في خدمة الملوك : انه انتقام البورجوازيين ، البشري ، من ضباط ضاحكين متعجرفين يخدمون في الحامية الملكية المقيمة في حصن المدينة . ولكن هذا الانتقام يحمل على الظن أنه اذا كان لأحدهم جد من أمثال « بيرغوبولينيقوس » ، « المنتصر على مدينة محصنة » « فانه يهمله ولا يأتي على ذكره . ولا يشار كذلك الى جد طيب أو محام أو استاذ : ويغلب على الاعتقاد ان هذه المهن الحرة ، مع انها اسمى اعتباراً من دي قبل ، لا تؤمن ، إلا بصورة استثنائية ، ثروة كافية للسمو بالعائلة الى المجتمع الراقي . غير انه من الواضح ان الازدهار الاقتصادي في اوائل العهد ، ودخول رؤوس الاموال الشرقية المستلبة أو المضروبة الى اليونان ، والخدمة في الادارات والجيش الملكية ، كانت الاسباب الرئيسية لنمو البورجوازية اليونانية . وحين نضبت موارد الاثراء ، كان المهم الجوهرى قد تحقق ، فتمكن الاغريق حينذاك من قصر عملهم على الانتفاع بفائدة أموالهم . وقد تم ذلك بان وظفوا معظم رؤوس أموالهم في المشاريع الزراعية وقسماً ضئيلاً منها فقط في المشاريع التجارية . فعاشت البورجوازية في اغلب الاحيان من المداخل العقارية ، اما بتأجير اراضيها واما باستثمارها مباشرة .

ولم يرتفع قط ، في الحقيقة ، عدد افراد هذه الطبقة المدورة الذين عاشوا في الريف . فالمدينة هي محل اقامتهم العادي . وهم الذين اداروا في الواقع شؤون المدينة حيث غدا المواطنون الفقراء لا يلعبون سوى دور عرضي . ومرد هذا التطور السياسي الى الغاء التعويضات في كل مكان حتى في اثينا : فقد امسى مجرد اسمها مجدداً ، او رمزاً ، كما يقول الكاتب « بوليب » في القرن الثاني ، لفوضى الحكم الجماعية . وقد قابل هذا التطور ، بالضرورة ، شيء آخر : فقد توجب على الحكام ان يبرهنوا عن سخائهم ، ويكتبوا للقروض البلدية ، ويقدموا ، على الاقل ، سلفات لمخصصات التموين بالحبوب ، ويتحملوا ، عن طريق الخدمات العامة كما في العهد السابق ، او عن طريق الهبات ، اعباء بعض النفقات الجماعية . ولكن كيف لا نشك شكاً على الاقل ، كما تجيز لنا ذلك بعض النصوص ، في ان ادارة المدينة ، وخصوصاً ادارة املاكها العقارية ، قد توفر

## الارباح احياناً بفضل التلذذات الموافقة ؟

من الطبيعي والحالة هذه ان يكون هنالك مثال بورجوازي معين وان  
المثل البورجوازي الأعلى : يكون له اثره في كل مكان . فالطبقة اليسورة نزعت الى سعة العيش  
المدينة والبيت  
وفاخرت بمدينتها في آن واحد .

تدلت المدن مادياً . فانتشر البناء في كل مكان : الحصون المتقنة والمعابد والمسارح والملاعب  
ومحلات الرياضة والاروقة وغيرها . وفي كل مكان ايضاً اعيد الاحتفال بالاعباد القديمة وقررت  
اعباد اخرى جديدة : الولايم العمومية ، المباريات ، الالعب ، التمثيليات المسرحية . وعرفت  
هذه الاخيرة ، بنوع خاص ، شهرة ورواجاً يفسران شمول بناء المسارح وتنظيم فرق من الممثلين  
المتهنين والمتنقلين اعني بها الاخويات المنتسبة الى ديونيسوس . وغالباً ما اقتصرت الفكرة  
الدينية الاصلية على مجرد حجة . واهتمت المدن اهتماماً كبيراً في الواقع بمنافسة بعضها البعض  
بمذخبا والآلهي التي ترفه بها عن حياة مواطنيها . فأصبح مثال اثينا القديم مثلاً مشتركاً عاماً .

وهكذا فان الملوكة الهلنستينيين لم تعوزهم الظروف لاطهار سخائم الذي ينطوي في الوقت  
نفسه ، من جهة اخرى ، على غاية دبلوماسية وعسكرية . فأسهموا بنفقات كل هذا البذخ .  
واسهموا بهياتهم المالية او الفنية في تشييد الابنية حتى ولو لم يتولوا وحدهم الانفاق عليها .  
وقدموا الزيت لمحلات الرياضة حيث يستهلكه الفتيان بكيات كبيرة للاعتناء بأجسامهم .  
واسسوا اوقافاً تقوية او علمانية خصصت عائداتها لشتى المشاريع . وقد اخذ « بوليب » على  
المدن انها اهتمت كرامتها بتأدية واجب الشكر لهم عن طريق المراسيم التقريظية واقامة التماثيل  
وحتى التكريم « الالهي » احياناً . وهذا مظهر غير نادر لتجاوب اشرنا اليه اكثر من مرة ،  
بن « الانعامات » و « عرفان الجميل » .

ولكن هذا الاسهام الخارجي ابعد من ان يكفي . فالفنقات الرئيسية مطلوبة من موازانات  
الجماعات التي تصاب بالارهاق والتي لا تبقى متاعبها دون انعكاس على الشؤون العسكرية  
والسياسية . فيتوجب على المواطنين الاغنياء القيام بتضحيات مالية تكافؤ ، شأن تضحيات  
الملوك ، بالمراسيم التكريمية . وهم يقومون بها بداعي التفاني المخلص والمجد الباطل . وتزايد  
الاوقاف المختلفة ، عن طريق الوصية او غيرها ، وتستثمر بشتى الطرق : البيع او التزيم او  
الاعارة مقابل رهونات او استثمار الدخل من قبل قيمين يعينهم الواهبون او تنتخبهم المدينة .  
وهكذا فتكون يوماً بعد يوم انظمة بالغة التعقيد احياناً تتعلق بشتى مظاهر الحياة المحلية ،  
وحتى حياتها الاقتصادية ، الريفية والمصرفية بنوع خاص . وفي المدن التي يعطيها احد معابدها  
شهرة كبيرة خاصة ، كدلفي ودبلوس ، لا تتوقف اعمال التجميل في الابنية ويزداد عدد الاعياد  
ازدياداً مطرداً ، فيؤمن شطر كبير من سكانها ، بفضل تحضير هذه الاعياد وتهافت الحجاج اليها ،  
سبل معيشتهم . ولكن كل ذلك ، بطبيعة الحال ، عرضة للزوال السريع لانه تحت رحمة

الحروب والانحطاط الاقتصادي . وقد بدأت الازمة فعلاً منذ اواخر القرن الثاني قبل المسيح  
ثم اخذت تزداد خطورة حتى تنظم الامبراطورية الرومانية التي ستؤمن البقاء لهذه الحضارة  
وتنتشر مثالها لعدة قرون .

كان للمثال البورجوازي اثره الجلي ايضاً على صعيد الحياة الخاصة . فاذا جمّلت المدن ، فان  
المساكن الخاصة قد جمّلت ايضاً . ولم يكن البذخ رائد البورجوازيين لأهم افتقروا الى الوسائل  
المادية الضرورية لتحقيقه . ولكنهم رغبوا ، بصدد رفاهية ولذة حياتهم العائلية ، في جو اوسع  
رحابة وأوفر هواء واجمل منظراً . لذلك فقد اتضح آنذاك ، في الاحياء الجديدة اكثر منه في  
وسط المدن القديمة ، مثال البيت المنظمة اجراؤه حول فناء تحف به الاعمدة : وهو مثال اتقن  
درسه في ديلوس وانتشر في « بومباي » ، اي في اكثر اجزاء ايطاليا انفتاحاً على التأثيرات  
اليونانية ، وائر بعد ذلك في « مقصف » العهد الامبراطوري . وقد ازدان هذا البيت باللوحات  
الرحامية والرسوم والفسيفساء والتأثيل الصغيرة والتأثيل الكبيرة . وتووع اثاثه وتحسن نوعاً  
وشمل الاسرة التي نزل فيها العاج والمعادن الثمينة ، والمشاجب ، والشعدانات ، والمصوعات .  
وكان للأطعمة الفاخرة وبعض خمر الحزر وآسيا فيه تقدير عظيم ، في الولايم التي قضى قانون  
تقييد النفقات المفرطة ، في اثينا ، بتحديد عدد مدعوها بثلاثين شخصاً .

وافق هذا الاهتمام بالرفاهية اهتمام بالثقافة . وقد تجاهت البورجوازية  
المثل البورجوازي الاغنى : الهلينية بالثقافة المجردة عن الغاية . وسهرت على تربية اولادها واقدمت  
التربية والثقافة  
راضية على الاتفاق عليها . وكثيراً ما اهتمت المدينة بها بغية تنظيمها  
— وقد ارغمتها على ذلك بعض الاوقاف احياناً — ومراقبتها ، مع انها لم تتول الاتفاق عليها الا  
في حالات نادرة . وقد عين قضاة خصوصيون لهذه الغاية . ومهما يكن من الامر ، فان المدارس ،  
عمومية كانت ام خاصة ، قد ارتفع عددها ، كما ارتفع عدد محلات الرياضة وازدادت ، في اعلى  
الدرجات ، دروس البيان والفلسفة التي ألقاها اساتذة لم يستغرب احد ارتفاع اجورهم . واذا لم  
يفرض المثال المسلم به تعمقاً في المعارف فانه قد انطوى منذئذ على رشاقة فكرية حقيقية او اقله  
على رشاقة في التعبير الشفاهي او المكتوب .

وقد حدث تغيير أكثر ظهوراً : لم تعد تربية البنسات محصورة في الامهات وحدهن في  
الحرم الذي ليس له أي اتصال بالخارج . فهن على غرار اخوتهن يختلفن الى المدارس وحتى الى  
محلات الرياضة : ولم يعد مثل سبارطة امراً شاذاً على هذا الصعيد . فنتج عن ذلك ان حياة  
النساء ، في الطبقة الميسورة ، غدت اوفر حرية . اجل لم يتلق كثير منهن العلوم النظرية العالية .  
ولكننا نعرف عدة شاعرات ، وليس الحديث ، بعدئذ ، في الأدب والفلسفة والفن وقفاً على  
بعض المتحررات المتقدمات . فقصد بدأت اقتسارات الزمن الماضي بالتراخي . أجل لم تظهر  
سيدات المجتمع الراقى في الولايم ، ولكن اصبح باستطاعتهم ان يخرجوا الى المدينة دون ان يرافقهن

أحد ، وقد سمح لمن ازواجهن بالتقاء رجال غير انسبائهن . ولذلك فقد تطورت الاخلاق نحو ادب اسمى رقة : وتعود الى هذا العهد بعض عادات المجاملة ، كتقبيل الأيادي .

الطبقات الاجتماعية الدنيا  
نتمنى لو أننا نعرف جيداً وضع وحياة الطبقات الاجتماعية الدنيا . ولكن المعلومات بصدها نادرة جداً كما سبق ورأينا اكثر من مرة . غير انها كافية لاطهار تناقض بين مصيرها ومصير البورجوازية اعظم بروزاً منه في الزمن القديم . فقد تمتعت البورجوازية بقسط أوفر من اليسار وتأثر بذلك مثالها وحياتها العملية تأثراً سريعاً . اما الطبقات الاجتماعية الدنيا ، فإما استمرت في عيشتها الماضية واما عرفت ظروفاً مادية أشد قسوة - وهذا ما حدث غالباً - في ما يظهر .

تألم صغار الفلاحين والصناعيون المدنيون أيضاً بسبب منافسة حاصلات الشرق ومصنوعاته . واتجهت الاجور نحو الهبوط كما يتضح من حسابات قهرمة ديولس المقدسة حيث يتقاضى نقاش الكتابات ، مثلاً ، درهماً مقابل ١٠٠ و ١٣٠ حرفاً في أواخر القرن الرابع ، ومقابل ٣٠٠ حرفٍ فيما بعد ، دون ان يهبط مستوى عمله في هذه الاثناء . ولكن الارباح ، حتى اذا نحن اهلنا مثل هذه الحالات القصوى ، لا تتناسب وتقلبات اسعار المعيشة . فان ارباح الزامرة أو « خادم » المعبد مثلاً ، أي ارباح غير اهل الكفاءات ، قلّما تتجاوز ١٢٠ درهماً في السنة ، يضاف اليها تعويض لباس فتصبح ١٤٠ او ١٥٠ . ولكن غذاء اليافع دون غيره يكلف ، شرط ان يكون معتدلاً ، ١٥٠ درهماً في السنة ٢٨١ ، واذا ما هبطت كلفته الى ٩٠ درهماً في السنة ٢٥٠ فانها قد ارتفعت بعد ذلك الى ١٣٠ درهماً في اوائل القرن الثاني ؛ وفي التواريخ نفسها تبلغ كلفة غذاء عائلة مؤلفة من اربعة اشخاص ٤١٠ و ٢٤٦ و ٣٥٨ درهماً . لذلك كان العمل امراً واجباً على كل شخص في العائلات الوضيعة ، وعلى الرغم من تضافر هذه الجهود ، فان البؤس كان في اغلب الاحيان شديد الخطورة . ويتضح لنا أمام هذه الارقام المشاغل التي واجهتها حكومات المدن بسبب ندرة واسعار الحبوب في السوق المحلية .

ويتضح أيضاً كيف ان مصادر الارتزاق اليونانية لم تنضب . ففي اليونان القديمة ، بقي الارتزاق ، حتى اواخر القرن الثالث ، ظاهرة اجتماعية على نطاق هام ، استفادت منها الملكيات المقيمة في الشرق كل استفادة ممكنة . واذا ما هو اخذ يخف فيما بعد ، فليس السبب الرئيسي لذلك نقصان عدد المرتزقة . بل يجدر بنا ان نرى في ذلك نتيجة لنقصان طلب المرتزقة ، اما بفعل تراخي الروابط السياسية بين الملكيات واليونان ، وأما بفعل منافسة المرتزقة البرابرة وهم محاربون لا يكلفون كثيراً ولا يرضون بدمائهم ، واما ، خصوصاً ، بفعل افتقار الملكيات وضعفها . ولكنه من الجلي ان احتلال الاسكندر للامبراطورية الفارسية ، الذي اتاح للاغريق الهجرة باعداد كبيرة الى ما وراء البحر المتوسط ، لم يكن الدواء الناجع لهذا الداء ، لأنه لم

## طويلة الحالة الاقتصادية والاجتماعية في اليونان .

ان الصعوبة التي تعترض المؤرخ المعاصر تقوم في كيفية تعليل استمرار البؤس في بلاد اصبحت يمثل هذا النقص في سكانها . يجب علينا حقاً ان نبحث عن سبب ذلك في ظروف . فالنشاط الاقتصادي في هبوط على العموم : وهذا يستتبع نقصاً في الحاجة الى . ولكن ديولس التي جاءتنا منها اهم مصادرها حول الاسعار والاجور تشد في هذا القاعدة العامة ؛ فانه كان من شأن وجود معبد ابولون فيها ، وارتفاع عدد الاعياد زائرين من جهة ، والنشاط التجاري من جهة اخرى ، ان توفر فيها بسهولة سبل العمل لدين تعوزهم هذه السبل . لذلك يستهين ان نبحث عن التعليل في مبررات اخرى ، زدياد عدد العبيد وفي التنافس الذي يبين المضادة بينهم ، شأن المحررين ، وبين رار .

ضاً ، نتمنى لو ان لدينا معطيات واضحة ، ولكننا مضطرون لسوء الحظ للاكتفاء ثبرات .

ريب فيه ان العرض في اسواق الرق قد ازداد ازدياداً عظيماً ، واتسع نطاق « التزود » كبيراً ايضاً ؛ فالجرب والقرصنة اللتان ما رالتا على عنفها مؤنتا بهم التجار . ولكن يد ابعد من ان تتدنى ، ان لم يكن في مناطق الاحتلال وراء الحيوش ، فأقله عند ح الاخيرة للمشتري المباشرة : فان رحلاً في شرح الشباب ، دون ميراث تقنية خاصة ، سير الحرب ، يباع بـ ٥٠٠ درهم تقريباً . ولم تتدن اسعار النقد ، كما يبدو ذلك منطقياً ، توزيع العبيد قد اتسع بمقدار لا بل فوق نطاق التزود : فان روما وايطاليا اللتان لم تين ، قد اشترتا العبيد ، في حوض المتوسط الشرقي ، منذ القرن الثاني قبل المسيح ، ايدت باستمرار .

اليونان القديمة فلا يجوز الجزم بارتفاع عدد العبيد إلا في المناطق الشمالية والشمالية كالأبير مثلاً ، بسبب حداثة عهد الحضارة المدنية فيها . وليس ما ينبت ذلك في اخرى . اصف الى ذلك ان المزيد من العبيد الذين امتلكتهم البورجوازية ، بعد ان دها وتكامل يسارها ، قد كانوا عبيداً منزليين بنوع خاص لا يرهق وجودهم ارباح . حرار بل يخفف عن المرأة ، التي تتحرر ، اعباء الاعمال العائلية التي كانت تنهض بها . فيجب والحالة هذه ان تكون الصلة بين العلة والمعلول اسد تعقيداً .

يجدر بنا ان ننظر الى حالتي العبد العامل لحسابه والعبء الحرر . فعلى هذا ي بعض الضوء وثائق التحرير التي انتقلت اليها عن طريق كتابات المعابد ، لا سيما دلحي لت السينامنه اكثر من ألف وثيقة . وقد اخذ التحرير الفردي ، لا الجماعي الذي سنشاهده ، يشق طريقه الى اخلاق الاغريق . ولا يستلزم هذا التطور ، على كل حال ، ازدياد

عدد العبيد : بل يدل غالباً ، بصرف النظر عن نور روح التساهل ، على ان سيد العبد يستفيد من تحريره ، لأنه من النادر جداً ان يحدث ذلك دون مقابل مالي . والاعتقاد السائد هو ان الاله يشتري العبد من سيده ويعطيه حريته ضامناً تنفيذ شروط العقد : هذا هو مصدر الحرص على حفظ نص هذه الشروط في الحرم المقدس .

اما في الواقع فقد قسام كل شيء بطبيعة الحال على الاتفاق السابق بين العبد وسيده . فالسيد يرضى بثمان وبظروف مختلف باختلاف الحالات النوعية التي لا نعلم شيئاً عن عوارضها . غير انه من المفروض في العبد ، كي يستطيع دفع المبلغ المتفق عليه فوراً ، ان يكون قد جمع بعض المال وان يكون قد تصرف ، في عمله المتفاوت حرية ، بجد ادنى من الربح . فان العرف الذي سمح للعبد بان « يعيش على حدة » والذي عمل به في اثينا قد عرف الانتشار والشمول ، في ما يظهر . ومن المفروض في العبد ايضاً ، حتى يرتبط بتعهدات وحتى يقوم بها على الاخص ، ان يكون متأكداً ، بعد تحرره وتصرفه بكافة ارباحه ، من ان يجد عملاً وزبناً . اليك مثلاً عبداً لم يدفع شيئاً عند تحريره ولكنه سيدفع ١٠٠ درهم لمدة ١٣ سنة ؛ والسيك آخر يمارس ، في ما يبدو ، مهنة تغدق عليه الارباح ، يدفع على الفور ٦٠٠ درهم على ان يدفع ٢٠٠٠ درهم في المستقبل ، مع انه يعد بالقيام « بكل اشغال » سيده ؛ على اننا نرجح ان هذا الوعد لا يتناول من الاشغال إلا ما هو من اختصاصه وحاجات عائلته سيده المباشرة فقط . ويغلب ان هذه التعهدات تنفذ بجذافيها لأنها لم تلغ . واكثر من ذلك : فأننا نرى العبد المحرر نفسه في بعض الحالات ، بعد عشر سنوات تقريباً يحرر بدوره عبيده : وهذا يعني انه استطاع ان يفي سيده حقه ويؤمن المعيشة لعائلته ويقتني عبداً ويسمح له بالعمل لحسابه الخاص . ولكننا نتصور ما يتطلبه ذلك من عناء ضار ومن حرمان يدوم سنين طوالاً ، ولا نستغرب المنافسة الشديدة التي يصادفها عامل حر لا يشجع بمجوده مثل هذا الامل .

لا يغربن عن البال ، مع ذلك ، ان معظم هذه المعلومات لا تتناول سوى جماعات بشرية تعيش على مقربة من المعابد . ففي دلفي يؤلف الحجاج ومستشيرو هاتف الغيب ومشاهدو الأعياد زبناً كثيرين يميلون الى الانفاق بسعة او فر منها في محلات اقامتهم ويعطفون على ممارسة المهن الصغيرة والتجارات الصغيرة المزدهرة . لذلك يستحيل ان نعمم هذه الظروف الاستثنائية على كافة أنحاء اليونان . وليس تفسير البؤس عن طريق العبودية بالامر الاكيد ، ولو بسدا محتملاً ومنطقياً .

اضف الى ذلك ، كما سبقت الاشارة ، ان الركود الاقتصادي والهبوط الاقتصادي اللذين يكوّنان السبب الرئيسي للوضع المتعاطم خطورة في الطبقات الاجتماعية المتدنية ، كان من السهل تلافيهما لو ان الاغريق استفادوا من تفوقهم العلمي لتحسين تقنيات انتاجهم ، ومن وجودهم في الشرق لرفع مستوى المعيشة عند طبقة البلديين ، أي لزيادة طلب أصناف الاستهلاك . ومن ثم

فان البورجوازية الهلينية قد وقفت في وجه مصلحتها الشخصية بعدم تجويز مثالها الثقافي وبعدم اكترائها بالانتاج الصناعي ، ان لم يكن الزراعي أيضاً .

### ٣ - الآفات والاضطرابات الاجتماعية

كانت نتائج هذا الوضع على جانب من الخطورة .

كان من شأن نوع معيشة و اخلاق البورجوازية ، دونما ريب ، ان يكدّر تدني عدد السكان معاصري بريكليس لو انه ساد البلاد في ايامهم . وهو قد كدر ايضاً ، في هذا العهد نفسه ، رجالاً لم يمتحنوا تعليم الاخلاق ولكنهم عزوا اليه احدى إحن اليونان التي شكوا منها بعنف ، اعني بها تدني عدد السكان . ولعل اشهر هؤلاء الكتّاب هو « بوليب » الذي عاش في القرن الثاني والذي وصف في صفحة شهيرة الداء باسمه الكلاسيكي « اوليفانثروبيا » أي « نقص الرجال » ، موضحاً ما كان سببه في ما ارتأى : « نلاحظ اليوم ، في كافة انحاء اليونان نقصاً في الاولاد والرجال تقفر معه المدن ويشل انتاجها ... أما السبب فواضح والدواء ففي أنفسنا . ان الرجال يعزفون عن الزواج وعن تربية اولادهم حباً بالتظاهر وحباً بالمال وجبناً : فهم ، ان ربوا ، لا يربون اكثر من ولدين حرصاً منهم على الحفاظ على الثروة وعلى تربيتها في ظل حياة هانئة متخنة . وهكذا فان الداء الحفي قد برز فجأة . فاذا لم يكن هنالك سوى ولد او ولدين واذا ما قضت الحرب او المرض عليها فمن الجلي المحتم ان تقفر البيوت ... ولا يختلف اثنان على القول ان تلافي ذلك منوط بنا وحدنا ، اما بتغيير ما هو هدف التنافس بيننا واما باعتماد شرائع ترغم على تربية الاولاد الذين يبصرون النور » . وقد حاول بعضهم احياناً الانتقاص من اهمية هذه الصفحة باعتبارها بياناً اخلاقياً . قد يكون في ذلك بعض الحقيقة ، ولكنها تنطوي على اهمية لا تنكر .

انها تكشف عن استمرار عادة « اهمال » الاطفال حال ولادتهم التي انتشرت في العهد السابق . وانما هن البنات ، كما في العهد السابق ، اللواتي يرفض الأب تربيتهن . فهل ان هذه العادة ، التي هي أشد خطورة في نتائجها العملية من تحديد النسل الاختباري ، قد أصبحت شاملة حينذاك ؟ ان بوليب يثبت ذلك ضمناً ؛ ولكن الاسباب التي يعزوها اليها لا تتناول سوى الطبقة الميسورة ، وهذا هو العيب الاكبر في استدلاله . والحقيقة هي ان الطبقات الاجتماعية الدنيا تبدو متأثرة بهذه العادة المتفشية تأثر الطبقات العليا نفسها . فلم نر في وثائق التحرير في دلفي أي ذكر لعائلة كثيرة الافراد بين المحررين . وقد اتخذت مدن عدة احتياطات لزيادة عدد مواطنيها بقبول الاجانب في هذه الدرجة الممتازة . وقد نصح ملك مقدوني الى احدى المدن التساليسية بالتشبه بسخاء روما في هذا الموضوع . وقد اقام الملك نفسه في مملكته جماعات من البرابرة البلطايين

« وارغم جميع رعاياه على المحاب البنين وتربيتهم » كما كتب احدهم دون ايضاح الكيفية . وكان بوليب على علم بهذه السابقة حين اشار باعتماد مثل هذه الشرائع . ولكن رأيه ومثل فيلبوس المقدوني الخامس ، على ما نعلم ، لم يعمل بها في اي مكان . لذلك يتعذر نكران تدني عدد سكان اليونان منذ ذاك العهد . ولا مبالاة الحكام الشاملة تقريباً أو اقله عجزهم امام وضع كان يهدد بالخطر لا استقلال دولهم سياسياً وعسكرياً فحسب ، بل حيوية وحتى وجود حضارة يتباهون بها أيضاً .

وعلى نقيض ذلك لم يتوصل بوليب ، في تحليل الأسباب إلا الى حقيقة جزئية ليست أبعد الحقائق اهمية . ولكننا لا نستطيع إمامها لا سيما وانه يعطينا في غير مكان تفاصيل دقيقة حول « التخنت » واستهواء الأعياد والولائم . فعندما يتكلم عن البيوسيين - الذين لا يجهج - في أوائل القرن الثاني ، يحزم قائلاً : « ان اولئك الذين لا أولاد لهم يوصون بملكائهم للأكل الفاخر والسكر ويجعلونها مشاعاً لأصدقائهم ، بدلاً من ان يتركوها لأنسابهم ... وأخذ كثير من اولئك الذين أنجبوا اولاداً ينفقون على الولائم معظم ثروتهم بحيث ان بيوسيين عديدين أقاموا في كل شهر ولائم تفوق بعددها أيام الشهر » . هذا هو التشويه الحتم لحياة اجتماعية جعلت مطابقة لمثل أعلى في الرفاهية واللذة . وبديهي ان يصعب التوفيق بين هذه الحياة وواجبات العائلة العديدة الأفراد وان تفضي بالضرورة الى استحالة التعويض العددي الطبيعي عن جيل سابق بالجيل اللاحق . وكان للطبقات الدنيا أعذار أخرى كثيرة للهروب من الواجبات العائلية المرهقة .

يتوجب علينا ، مع ذلك ، دون ان نتوقف عند الحقائق الاخلاقية المسلم بها ، كما فعلنا ، ان نضيف شيئاً الى تفسيرات بوليب .

ففي الدرجة الأولى كانت اليونان منطلقاً ، نحو الشرق الذي احتله وأداره ملوك يونانيون وانتشر فيه واستثمره الاغريق ، لهجرة عارمة حرمتها من عناصر فتيّة أي من اهم ابنائها نشاطاً وتديباً . ولا ريب في ان هذه الهجرة التي كانت في البدء على نطاق واسع قد خفت بعد ذلك رويداً رويداً ؛ ولكنها لم تنقطع قط انقطاعاً تاماً ولم يعوض المهاجرون العائدون قط عن المهاجرين النازحين . واذا ما نحن أغفلنا هذه الحقيقة استحالة علينا إدراك التوازن في مجتمع كان « يربي » ذكوراً أكثر من البنات . فجلي ان الرجال هم الذين هاجروا بنوع خاص كمرتزقة وموظفين وفنيين ومستعمرين واتخذوا لهم زوجات شرقيات .

ثم ان الصعوبات الاقتصادية المتزايدة التي عرفتها اليونان لم تبق دون نتيجة في هذا المجال أيضاً . فقد ظهر أثر التأخر الزراعي والصناعي والتجاري في البورجوازية نفسها . وحين نضبت المصادر الطبيعية للاثراء رأت البورجوازية نفسها مرغمة على عدم زيادة عددها ، ان هي أرادت الحفاظ على مستوى اليسار الذي بلغته ؛ ولم يكن من المستطاع علينا ان نحافظ عليه ، بسبب هباتها للمدن ، إلا بانقاص عدد اعضائها وجمع ثرواتها بفضل الإرث والهبات عن طريق الوصايا.

ولكن الفقراء خصوصاً ، الذين لم ترافق مواردهم ارتفاع الأسعار ، اذا لم تخفّف أحياناً ، لم يتمكنوا من العيش إلا بفرض الحرمانات على انفسهم ، وكان اقلها صعوبة مباشرة ، وبالتالي أول ما يقبل به منها ، يستهدف الأولاد . وهكذا فان « نقص الرجال » من حيث هو علة ومعلول في آن واحد قد زاد بدوره من انحطاط اقتصاد البلاد ، وذلك باقلال طلب السوق الاقليمية التي كانت هي في افضل وضع لسدّ حاجاتها .

هنالك آفة أخرى ، هي نتيجة تنحدر مباشرة من بؤس الوضعاء ، الاضطرابات الاجتماعية اضطت اليونان ايضاً ، اعني بها خطر الثورة الاجتماعية الذي ليس جديداً ولكنه ، بعد هدوء العهد الكلاسيكي ، برز مرة أخرى بمزيد من الخطورة الهائلة .

انطوى برنامج ثوار القرنين السابع والسادس على بندين تقليديين : توزيع الاراضي والغناء الديون . ويرى هذان البندان نفسهما الآن اكثر شعبية من اي وقت مضى . كلاهما يستهويان الريفيين الذين ارغموا على مغادرة اراضيهم او يخشون ، بفعل الديون المتراكمة عليهم ، من ان يطردوا منها ، او حتى من ان ينتهوا الى السجن بفعل عجزهم عن الدفع . واذا كان فقراء المدن اقل اهتماماً للديون — اقل اهتماماً فقط ، لأن الفقير المعتمد وحده يعجز عن ان يتفوق الى من يقرضه مالاً — فانهم لم يهتموا بالامل بأن يصبحوا يوماً ملاكين صغاراً .

غير ان هذا البرنامج الذي لم يفقد شيئاً من عنفه ، اضيفت اليه آنذاك مطالب تتعلق بالعبيد الذين لم يسبق في الماضي ان احيطوا بأى اهتمام . قد يكون مرد ذلك الى التضامن في البؤس الذي يقوّيه انتساب عبيد كثيرين الى الاصل اليوناني كأسرى الحرب ومخطوفي القراصنة . ولكن الأرجح انهم يمثلون قوة لم يأنف آنثد احد من اللجوء اليها في ساعات حدة الصراع .

وهم الوحيدون ، على كل حال ، الذين لا يتجاسرون على الحركة . اجل قد تحدث عرضياً بعض الثورات كما جرى في السنتين ١٣٠ و ١٠٣ في أثينا ، وفي السنة ١٣٠ ايضاً في ديلوس . ولكن هذه « الحروب الفدادية » المحصورة في المناطق التي كثيراً ما تخضع فيها جماهير غفيرة من العبيد لنظام شديد القساوة — كديلوس ، تلك السوق الكبرى التي تصدّر الى الشرق البعيد دون امل بالعودة ، واثينا حيث لم تتحسن ظروف العمل في مناجم « اللوربون » — لا تحدث من جهة ثانية الا في عهد متأخر جداً : وليست سوى صدى الثورات التي اندلعت في صقليا وآسيا الصغرى في السنتين ١٣٥ و ١٣٣ . ولكن الحركات الثورية التي كانت من الخطورة بمكان هي تلك التي نهض بها الاحرار والعبيد جنباً الى جنب يوحد بينهم البؤس المشترك والحقد المشترك على الملاكين : وان هذا الاتحاد لجدّة يعود الفضل فيها الى العهد الهليني .

لم يكن لمثل هذه الاضطرابات دافع عقائدي على ما نعلم . اجل لقد نادى بعض الفلاسفة بالمساواة بين البشر . ولكن هذه المساواة في نظرهم ، شأن حرية الشخص البشري ، كانت شيئاً داخلياً اكثر منه اجتماعياً لأنها تتعلق بالقوة المعنوية الفردية اكثر منها بالنظام القانوني : فالرجل

الحرب والغني قد يبقى دون العبد ان لم يكن سيد نفسه . لذلك فان مثل هذه الآراء لم تدفع الى العمل . وكذلك ، اذا وجد بعض المؤلفين لذة في وضع نظريات خيالية ، فان هذا الفن الادبي الذي درج حينذاك ، لم يكن ليحرك الجماهير . وهناك بعض اشاعر بلوونيزي من القرن الثالث هي في الحقيقة فريدة من نوعها والوحيدة التي تنبض بروح ثورية في الادب اليوناني ؛ ففيها ان على الغني ان « يتقياً » ، وان للتوزيع صفة إلهية ؛ ويتسامل عما اذا كان للإله عين خلد لأنه يعزف عن اخذ خيرات المرابي لاعطائها من يعجز عن سد جوعه . ولكن الشاعر ، سرسيداس ، قد لعب دوراً دبلوماسياً وعسكرياً ناشطاً ضد الثورة حين كانت على وشك النجاح ، بحيث لا يمكن اعتباره سوى مناصر التحق بها في الساعة الحاسمة . وبكلمة موجزة ، فان الثورة الاجتماعية في اليونان قد افتقرت الى رئيس روحي من حيث انها افتقرت الى برنامج عقائدي .

بيد انها ، في بعض الظروف وبعض المدن : قد وجدت رؤساءها اثناء العمل الثوري نفسه . وغالباً ما كان هذا العمل غير منظم ، ونادراً ما كان منسجماً وغير منقطع ، وقد تحطم ابدأ على صخرة مقاومة البورجوازية والتدخل الاجنبي . وقام عند الايتوليين رجال سياسيون من المرتبة الاولى يقترحون الشرائع حول الديون ، فانتهوا الى الابعاد . وفي بيوسيا توقف سير القضاء عملياً لمدة خمس وعشرين سنة : فكان ذلك فوضى فاضحة جاءت جزيلة الفائدة للدائنين . ولو توفرت المعلومات لدينا ، لاتضح لنا دوناً شك وجود وتامل حركة اصلاحية ، ان لم تكن ثورية ، في كل مكان تقريباً .

كانت الازمة خطيرة جداً في سبارطة حيث تفسر خطورتها ظروف الثورة الاجتماعية في سبارطة خاصة جداً . ومعلوماتنا عنها اوفر منها في اي مكان آخر . سعت سبارطة تقليدياً وراء مثل اعلى لمساواة حقيقية بين المواطنين المتمتعين بحقوقهم الكاملة ، « المتساوين » . ولكن عددهم قد انخفض انخفاضاً هائلاً ، فغدوا سبعمائة فقط في اواسط القرن الثالث بعد ان كانوا تسعة آلاف في الاعلى على الأرجح . وقد ادّى الى هذا الانخفاض تحديد النسل الاختياري الذي هو النتيجة المحتمة غير المباشرة لتشريع حظر على المواطنين كل نشاط مأجور ورسم بعدم الاهلية كل من يتدنى دخله الى ما دون حد ادنى . قانوني . وادى اليه ايضاً ارتفاع نسبة الوفيات في ساحات الوغى بسبب تقييد السبارطيين بقانون قاس جداً خاص بالشرف العسكري . وقد ادى اليه اخيراً ازال الذين يخالفون واجباتهم كمواطنين ، مهما كان السبب ، لا سيما الفقر ، الى الفئات الدنيا . فلم يبرز « نقص الرجال » في اي مكان بروره في سبارطة .

افضى هذا التطور - البلية الى الانحطاط العسكري وإلى نتائج اجتماعية هامة . فالمساواة ، العملية او النظرية ، قد قضى عليها منذ زمن بعيد . وتجمعت الثروات ، بما فيها الممتلكات العقارية ، في العائلات المحظية ، ولا سيما في ايدي النساء ، الوارثات الغنيات . ولكن قيام

الارستوقراطية الضيقة قابله في الجهة الثانية فقر بقيّة السكان . فكثيرون منهم كانوا مدينيين مهددين بمخطر الحرمان من الحقوق السياسية وبعض الحقوق المدنية ؛ وكثيرون من أصيبوا بهذا الحرمان راودهم الامل في اعادة توزيع الاراضي الذي سيؤمن لهم حياة سبارطية حقيقية ويعطيهم حقوقاً لم يعتبروا انفسهم غير اهل لها . وقد دفعهم استيائهم الى البحث عن حلفاء ، ان لم يكن بين العبيد القليلين عدداً في سارطة ، فأقله بين الفدادين الرسميين المتطرفين ، الذين كانوا يتوقون ، هم ايضاً ، الى وضع قانوني وادي افضل . فظهر الاختيار منذ اوائل القرن الرابع وافضى الى اضطرابات عنيفة في النصف الثاني من القرن الثالث .

كان الرؤساء في البدء ملوكاً يتمتعون بشرعية تامة : « أغيس » الرابع و « كليومينوس » الثالث . فشل الأول بسرعة وحكم عليه بالموت . اما الثاني وهو ذو حنكة سياسية عرف كيف يرضي الزهو القومي ويبين الفائدة العسكرية من الاصلاح ويستثمر النفوذ الذي اكتسبه بانتصاراته ، فقد حقّق انقلاباً : فأمر بتقتيل القضاة وأبعد المعارضين . فاستطاع بذلك إلغاء الديون واعادة توزيع الاراضي وزيادة عدد المواطنين . ورفع عدد الجنود أيضاً ووسّع انتصاراته الخارجية وبدأ قادراً على ان يعيد الى سبارطة عظمتها السالفة ، لأن العدو البلويزيني الرئيسي ، الاتحاد الآخي ، قد دبّ فيه الانهيار بانتقال العدوى الثورية اليه . ولم يتمكن الحكام الآخيون من التغلب على كليومينوس وإرغامه على الهرب إلا بفضل التدخل المقدوني الذي دفع المقدونيون ثمنه غالباً على كل حال .

هكذا أعيد النظام المحافظ الى سبارطة ، ولكنه لم يدم طويلاً فعاتت الأزمة أشدّ عنفاً منذ السنوات الاخيرة في القرن الثالث . وكان نابيس زعيم العصاة الاول ، وهو رجل من اصل ملكي توصل الى الحكم بطريقة غير قانونية . وتمعن المصادر التي لدينا والتي تكرهه في الروايات المحيصة عن قساوته حيال الاغنياء في سبارطة او في المدن التي استولى عليها كأرغوس ، وعلاقاته بالقراصنة وقطاع الطرق المختلفي الجنسيات ، والانعامات التي أغدقها على اقل اتباعه اخلاقاً حسنة . اجل يترامى لنا ، من خلال هذه البغضاء ، رئيس فقط ولكنه مدفوع الى القساوة بسبب الحرب الاهلية والخارجية ، ومصلح جريء يتناول في اصلاحه ، لا الديون والاراضي فقط ، بل رؤوس الاموال المنقولة أيضاً ، ويرفع عدد الموظفين الى حدّ بعيد باختيارهم بين المرتزقة والفدادين الرسميين وحتى بين العبيد . فهل من استغراب والحالة هذه لما أثاره سلوكه من فضيحة ورعب في اليونان ، ولا سيما في الجوار القريب ، بين اولئك الذين يدعوم بوليب ، المؤرخ الآخي المحافظ ، بـ « ذوي التفكير السليم » ؟ وروما هي التي تدخلت هذه المرة ، دون ان تفرض سقوط نابيس . ولكنها اضعفته إضعافاً كافياً لحرمانه من نفوذه . وما لبث ان مات قتلاً ، فانتهت عن سبارطة صفة المنجم الثوري التي اتصفت بها طيلة نصف قرن .

تبين هذه الامثلة بوضوح كيف تكوّنت المعضلة الاجتماعية في اليونان الهلنستية : فهي لم تبرز يوماً منعزلة مستقلة بل متشابكة أبداً بمعاصل سياسية . وبديهي انها تشابكت بالسياسة الداخلية لانها في جوهرها ،

المعضلة الاجتماعية  
والمعاصل السياسية

وفي الدرجة الاولى ، احد عناصر هذه السياسة . ولكنها تشابكت بالسياسة الخارجية ايضاً ، وهذا هو الدليل على خطورتها لان الخوف من العدوى قد لعب دوره في العلائق الدولية اكثر من مرة . فقد استفادت الدول العظمى ، الاكثر اتصالاً وثيقاً بالشؤون اليونانية ، أي مقدونيا وروما ، من البلبلة التي خلقتها هذه المعضلة : فساند الملوك المقدونيون ، دون سابق تصميم ، هذه النزعة هنا وتلك النزعة هناك ، غير مبتغين سوى المنافع الفورية واجتذاب الحلفاء ؛ اما روما ، التي ارتبطت دبلوماسيتها وجيوشها حينذاك بنسلاء مجلس الشيوخ دون غيرهم فقد أبدت نفوراً ظاهراً وفعلاً في أغلب الأحيان من كل ما من شأنه ان يعكر النظام التقليدي ولكنها تورّطت أحياناً في تسويات املتتها عليها الانتهازية .

كانت نتيجة ذلك الانقسام الذي قاست منه الامم طبقة الحكام اليونانيين في كل مكان تقريباً . فقد اضطروا ، في هذه الفترة أو تلك ، الى الاختيار بين مخاطر الثورة الاجتماعية وبين السيطرة الاجنبية ، وقد انحصرت مأساة بوليب وأصدقائه السياسيين ، لا سيما بطله ومعلمه فيليبومين « آخر الاغريق » كما يتضح ذلك مما تبقى من مؤلفاته ، في انهم لم يستطيعوا ، على الرغم من كل جهودهم ، التخلص من ضرورة هذا الاختيار . ففضل بوليب قبول السلطة الرومانية التي لا تقاوم . وصرف بورجوازيون آخرون كثيرون ، أخيراً ، النظر عن مصالح طبقتهم . ولكن المصيبة ، بالنسبة لاستقلال اليونان ، انهم لم يقرروا هذا الاختيار في كل مكان وفي وقت واحد قبل ان يفوت الأوان : فقد أدى به انقسام البلاد الى دول كثيرة ومنازعاتهم القديمة والجديدة الى خوض المعركة الحاسمة بنظام غير موحد . ولم يقرر الزعماء الآخيون إلا في السنتين ١٤٧ و ١٤٦ خوض حرب لا هوادة فيها ضد روما ففرضوا تأجيل دفع الديون وقرروا مساعدات للفقراء وحرّروا وسلّحوا ١٢٠٠٠ عبد . فقبلوا بذلك حلولاً آثر خلفاؤهم عليها ، فيما مضى ، ضد رأي كليومينوس الثالث ، الحماية المقدونية ، وضد نابيس ، الحماية الرومانية . ولذلك لم يكن لتدابيرهم الصدى اللازم حين كانت لا تزال هنالك ملكيات عظمى قادرة على موازنة قوة روما .

بعد ان انتصرت روما على هذه الانتفاضة التي أعوزها التلاحم والعضد الخارجي وطدت حينذاك ، في كل مكان ، النظام الاجتماعي وسيطرتها . ولكن التسليم للأمر الواقع ، في البورجوازية كما في الطبقات الاجتماعية الدنيا ، لم يتم إلا بكل بطء : ولا نلسه حقاً إلا في عهد الامبراطورية حين اتيح للبلاد ، التي اضعفها تناقص سكانها من جهة ثانية ، ان تعرف ، بالإضافة الى السلم ، ادارة لائقة ، وان تتوصل الى التوازن الاقتصادي باكمال مواردها الطبيعية بفضل استثمارها السياحة وتصديرها الى الغرب الروائع الفنية والرجال الذين ثقفتهم حضارتها ، الاطباء والاساتذة والصناعيين اليدويين الماهرين .

### ٣ — الحياة الاقتصادية في الشرق الهليني

كانت الظروف مختلفة كل الاختلاف في الملكيات القائمة في الشرق . فمن الناحية الاقتصادية ، زخرت

اراضيتها الشاسعة والواسعة الأفاق بالمزيد من الثروات ، وبمِنوع خاص تانك الدرتان اليتيمتان اللتان وهبتهما طبيعة سخية العطشاء وكيفها عمل الانسان الجليد طيلة آلاف السنين ، اعني بها بلاد مصر وبلاد بابل . ومن الناحية الاجتماعية ، أَلَفَ الرعايا كتلاً ضخمة ، لم يكن للفرد فيها كبير اعتبار ، اعتادت الخضوع بانقياد الى اوامر السيد مهما كان من امر متطلباته . لذلك فان المعطيات الاولى للاختبار الهليني قد تباينت تبايناً كلياً في الشرق عنها في اليونان . وقد رافق هذا التناقض تناقض آخر اساسي في الظروف التي جرى فيها الاختبار . فبينما بقي الاغريق في اليونان وحدهم لم يدخل عليهم عنصر خارجي آخر غير العبيد ، فانهم لم يؤلفوا في الشرق ، على العموم ، سوى الطبقات الحاكمة وضباط الحيوش . اغريقاً ، اصلاً وحضارة ، كان الملوك الذين اتجهت انظارهم ابدأ نحو اليونان . واغريقاً كان المهاجرون الذين اتوا يبحثون ، في ما وراء المتوسط ، كبطانة وموظفين وفيين وجنود ومستعمرين وتجار ، عن فرص عمل او يسار مادي لم تتوفر لهم في بلادهم . وكان من شأن الاختبار ان يفضي الى نتيجتين قصوين على طرفي نقيض : اما استثمار الشرق واما نشر الحضارة اليونانية فيه . وقد توصل في الواقع هنا او هناك الى هذه النتيجة او تلك . ولكن اتساع الشرق وتنوعه يجعلنا نرى ، بين هذين التقيضين ، فوارق وسيطة كثيرة .

لم يصب اليونان سوى النزر اليسير من عطاء الطبيعة . وكذلك لم يتساوِ  
إسهام الاغريق  
هذا العطاء في جميع مناطق الشرق : فقد قامت فيه جبال محدبة  
في نمو الشرق الاقتصادي  
ومناطق صحراوية او بورية . غير ان المناطق الحصبية لم تكن قليلة  
فيه : فنظر اليه فاتحوه بسببها نظروهم الى جنة نعيم . فعمدوا ، اول ما عمدوا ، الى النهب والتبذير .  
ثم جاء الاستثمار المنظم ، مرتكزاً الى الاستفادة من الثروات الطبيعية وتجديدها وفاقا لتعاقب  
الفصول .

لم يكن كل شيء بدائياً في هذا المجال . ففيما خص بعض اشكال الحياة الزراعية على الاقل ، ولا سيما تلك التي استخدمت الري ، وحتى فيما خص بعض التقنيات المهنية ، ولا سيما صناعة النفائس والاقشة والمصوغات والزجاجيات ، لم يكن الشرق دون اليونان تقدماً ، لا سيما وان اليونان لم تعوِّض عن كل تأخيرها على الرغم مما حققته من اقتباسات خلال العهد القديم . ومع ذلك فان كفة الميزان اليونانية كانت راجحة بشكل واضح . فاسهم الاغريق الى حد بعيد في نمو الشرق الاقتصادي .

فقد وفرت سيطرة الملوك الهلنيين ، اولاً ، ان لم يكن السلم الشامل ، فاقله سلباً اقل نقصاً . سبق للامبراطورية الفارسية ان تعرضت لأكثر من ازمة داخلية ، كانت نتائجها الثورات والحروب والصرايب . وحدثت ازمات اخرى زاد من خطورتها تنافس الملوك ودسائسهم وحملاتهم العسكرية وحتى غزوات « البرابرة » من امثال الغاليين الذين اتوا في اوائل القرن الثالث

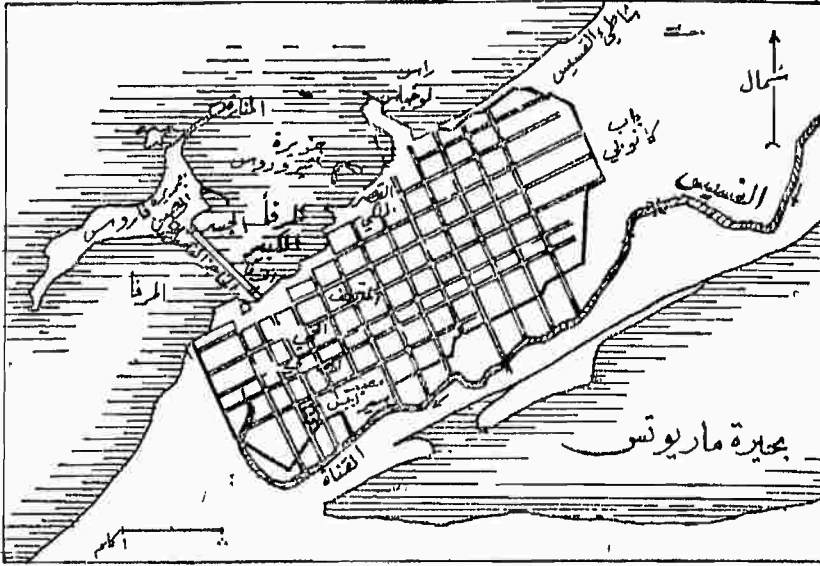
وأستقروا في قلب آسيا الصغرى حيث غدا سجنهم شغلا شاغلا خطيرا للسكان المجاورين . ولكن الامن ، على الاجمال ، كان اعم منه في الماضي .

سهل هذا السلم النسبي عمل الادارة الخيرة . لم تبلغ الادارة اليونانية يوماً الكمال التام ، ولكنها برهنت ، دون كبير عناء ، عن انها اذقّ من الادارة الفارسية وافضل منها فنياً : فلم ترتبط الادارة الفارسية عملياً ، في النهاية ، سوى بالمرازبة ، الاقطاعيين الايرانيين الذين تراخت رقابة الملوك الاولى عليهم . واستعادت بلاد بابل ومصر ، بنوع خاص ، النظام الطبيعي والتنظيم الضروري لحسن استعمال مياه انهرهما ولاستثمار خصبها الطبيعي استثماراً منطقياً .

ترتب على الادارة اليونانية واجب اول طبيعي هو انشاء او اصلاح وسائل المواصلات . فبدون هذه الوسائل تصاب السلطة الملكية بالشلل ؛ وبدونها تتوقف التجارة أيضاً . فرمت الأقنية والجسور والطرق التي تضررت كثيراً بفعل الاهمال والفوضى السابقين . وتتوفر لدينا ، في هذا النطاق وغيره ، المعلومات الكثيرة ، لا سيما حيال مصر ، بفضل استخدام البرديات وحفظها : عناية بأقنية الري القديمة وحفر أقنية أخرى جديدة ؛ تجديد العمل في الاراضي المهملة ؛ توسيع الاراضي الزراعية ، لا سيما في الفيوم ؛ بناء الارصفة والسدود والأنابر والمخازن ؛ اكمال أو إعادة فتح القناة التي تصل دلتا النيل الشرقية بخليج السويس ؛ انشاء ورقابة طرقات القوافل التي تجتاز الصحراء العربية حتى البحر الاحمر ... الخ .

يدل هذا التعداد الممكن إطلالته ان الملوك قد اقتصروا في أغلب الاحيان على ترميم أو متابعة عمل أسلافهم القريبين أو البعيدين ؛ فنحن نعلم أنه سبق للانسان ، في عهد السلالات القديمة جداً ، ان اخذ يحسن في الفيوم الاراضي الجديدة للزراعة . ولكن الاغريق أخذوا أشياء جديدة أحياناً بفضل تقنية وعلم مهندسيهم الذين برهنوا عن مقدرتهم في بلادهم ووجدوا هنا الآن اليد العاملة والمال بوفرة كلية . كانت المرافئ بنوع خاص أحد تحقيقاتهم الرئيسية : مرافئ عديدة على كل الشواطئ ، حمتها وحسنتها انشاءات ضخمة أحياناً على غرار رصيف ساموس الذي أحدث منذ القرن السادس . ولعل أهم نجاح في هذا المجال انشاء مرفأ لابل مرافئ الاسكندرية . فعند رأس جزيرة فاروس شيدوا برجاً يبلغ علوه ١٢٠ متراً تشتعل فيه نار يراها البحارة على ابعد من خمسين كيلومتراً ؛ وان شهرة هذا البناء ، الاول من نوعه حتى ذلك العهد ، قد حوّلت اسم الجزيرة الى اسم نكره ( *Pharos* ) . وقد وصل الجزيرة باليابسة سدّ يتجاوز طوله ١٢٠٠ متر ترك عند كل من طرفيه ممر للمراكب يعلوه جسر ، فتكوّن بهذه الطريقة مرفأً واسعاً مجهزاً بالارصفة . كما وصلت احدى الاقنية بحيرة داخلية بالنيل . وهكذا فان المهندسين اليونانيين قد حققوا ، قبل المهندسين الرومان بزمان بعيد ، اموراً عظيمة اثارت دهشة العالم القديم وكانت له مثلاً يحتذى به . وفي هذه الامور دليل على عظمة اتساع مجهود التجهيز الذي بذله في الشرق اسياده الجدد والذي لم يلبث اثره ان برز في نشاط الحياه الاقتصادية .

كانت اقامة المهاجرين الاغريق في الشرق وتأسيس مدن كثيرة جديدة كسباً آخر للتجهيز الاقتصادي ، اقله من بعض الواجهه . فالاغريق ، على العموم ، وفروا الاجهزة الفنية لاستثمار الموارد الطبيعية استثماراً افضل . اما المدن فقد غدت اسواقاً ومراكز تجارية في مناطق كثيراً



الشكل ٢٦ - الاسكندرية الحديثة

القسم الاخير من القناة غير معروف ؛ ولا نعلم الى أي المرفأين كانت تنتهي

ما كانت محرومة منها . واشترى سكانها المحاصيل الزراعية من الارياف المجاورة التي ارتفع انتاجها بفضل هذه الاسواق الجديدة ، بينما قدم صناعيو المدن للريفين مصنوعات علمهم . فبلغت اراض كثيرة ، لا سيما في آسيا ، مستوى اقتصادياً ابعد تطوراً واعظم نشاطاً .

ادخل الاغريق ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ، وبفعل مجرد وجودهم وحاجاتهم واقامة العلاقات مع البلدان النائية ، طرائق استثمار مجهولة ، او حسنوا الطرائق القديمة . فأخذت زراعة الكرم تنشر في كل مكان تقريباً ؛ اما زراعة شجرة الزيتون ، المتعددة في وادي النيل ، فقد انتشرت الى حد بعيد في آسيا الصغرى . وقد اظهر ملوك عديدون اهتماماً بالغاً بهذه الامور العملية . فاشرفت الادارة في مصر على زراعة الاشجار وقدمت بذار القمح الاجنبي الممتاز ؛ واصدر احد الملوك امراً الى احد المقربين اليه بالسعي سعياً حثيثاً منظملاً للحصول على موسم سنوي ثاب ؛ واستحضر احد كبار الملاكين ، وهو موظف ذو نفوذ ايضاً ، من آسيا الصغرى ، اغناماً اصيلة ورعاة اختصاصيين . وقد احتفى احد الملوك الاطاليين ، في جبال « إندا » الحرجية ، التي استخرجت منها اخشاب وصمغ بطمية شهيرة ، بـ « الصنوبرة العظيمة » التي يبلغ ارتفاعها ٢٠

متراً ودائرة جذعها ٧ امتار ؛ واشترى آخر ، بأسعار مرتفعة جداً ، خنازير ذات قسامات وأوزان استثنائية ؛ ونشر ملك ثالث « بحثاً في الحقائق » مكرساً لعلم النبات وللأشجار المثمرة بنوع خاص . وكان لجميع السلالات مصانع ملكية حيث تعنى اليد العاملة الفدادية بإنتاج مصنوعات الفخفخة التي تغدو في الأساس من انتشار الأزياء . وكثيراً ما قورن هذا العهد بعهد المستبدن الواسعي العلم في القرن الثامن عشر : ان ما يدر هذه المقاربة خير تبرير هو عناية الملوك الخاصة بنمو دولهم الاقتصادي .

مهما بلغ من جدة هذه الجهود وتنوعها ونشاطها ، فان تقنية اثر العمل السياسي على العمل الاقتصادي ما زالت ، بسبب بدائيتها ، ابعد من ان تكون فعالة في جميع الحقول . وان العمل في حقل النقد قد فاق اهمية ، بنتائج العملية ، جميع الاعمال الاخرى ؛ ويمكننا الكلام ، في هذا المجال ، عن ثورة حقيقية . فالشرق لم يستخدم النقود الا نادراً قبل الاسكندر ؛ ولم تصرب الحكومات منها الكميات قليلة : حتى ان النقود لم تكن متداولة في مصر عملياً . فالملائق التجارية مع اليونان واجور المرتزقة هي وحدها التي اوجبت استخدامها ، وقد قامت القطع النقدية الاثينية - بصعوبة ، كما هو طبيعي - مقام القطع النقدية المحلية النادرة . وكان هذا النقص حاجزاً في طريق نمو المبادلات ، وبالتالي في طريق الانتاج . ولكن كل ذلك تبدل تبدلاً عميقاً في ايام الاسكندر وخلفائه الذين ألقوا في التبادل ، بفضل ضرب المزيد من النقود ، السبائك المكدمية على غير جدوى في مستودعات الملك الفارسي والاواني والقرامد الذهبية والفضية الموجودة في المعابد . ولكنهم لم يحققوا يوماً وحدة عيار ووزن النقود . فساد في آسيا النظام الاثيني الذي اعتمده الاسكندر في مقدونيا ، بينما كان لمصر نظامها الخاص . غير ان تشابه النظام المصري بالانظمة الفينيقية والرودية قد سهل العمليات الحسابية التي تسبق المبادلة . وهكذا فقد هذا الاطاليون حذرو المدن اليونانية في شاطئ آسيا الصغرى وضربوا ، وفاقاً للنظام الاثيني ، قطعاً نقدية كثيرة تبلغ قيمتها ثلاثة دراهم ولكنها توازي عملياً قطع الارمنية دراهم المصرية ، كما توازي قطع الثلاثة دنابر الرومانية . وقامت هنالك صعوبات اخرى كثيرة . فقد اضطر اللاجئين ، للحصول على معدن الفضة الذي افترقت اليه مصر ، للجوء الى سياسة تجارية . وقد طرأ على نسبة القيمة بين المعادن المضروبة ، لاسيما بين الذهب والفضة المستخدمين للعلائق الدولية من جهة ، وبين النحاس للتداول المحلي من جهة اخرى ، تغييرات هامة عديدة . فقد انخفضت قيمة النقد النحاسي على الاخص في مصر حيث اكثر الملوك ، لتلافي عجز الخزنة ، من اصدار تلك القطع التي ألفها رعياهم البلديون فانتقلت النسبة الاولى ١/٦٠ بين الفضة والنحاس ، اكثر من مرة ، منذ السنة ١٦٠ قبل المسيح ، الى ٤٠٠ وحتى ١/٥٠٠ . ولكن نتيجة سيطرة الاغريق ، على الرغم من هذه السيئات ، كانت عظيمة على هذا الصعيد . فقد ارتد الشرق جميعه الى اقتصاد نقدي ، بينما لم تعتمد مناطق واسعة جداً في ما سبق سوى الاقتصاد الطبيعي والمقايضة . وجلي ان التجارة قد وثبت بفضل ذلك وثبة كبيرة الى الامام .

لذلك فان نمو الحياة الاقتصادية مما يلفت الانظار اذ انها قد بلغت نشاطاً  
النشاط الاقتصادي :  
الزراعة والصناعة  
لم يسبق لها ان عرفت من قبل . غير ان المعلومات تعوزنا لوضع خريطة  
للمحاصيل الزراعية . فيجب علينا ان نكتفي بذبوع البهرة الذي عبّر  
عنه آنذاك في ما يمكن ان ندعوه اليوم بالكلام السائر ، وبالصادرات التي من شأنها ان تترك  
مزيدياً من الآثار في مستنداتنا . تفوقت مصر بوفرة الموارد التي حصلت عليها من ارضها .  
وحري بنا القول انها تبدو متفوقة فقط لانه يجب علينا ان نأخذ بعين الاعتبار جهلنا المطبق  
حيال بلاد البختيار التي نرجح انها كانت كثيرة الانتاج ، وجهلنا شبه المطبق حيال بلاد بابل ،  
باستثناء ثروتها في زراعة النخيل والقمح . اما المملكة اللاجية فقد كان لديها كميات كبيرة من  
الحبوب للتصدير ؛ والمحاصيل الارضية الوحيدة التي اضطرت الى استيرادها ، الى جانب الخشب  
والمواد الصمغية الضرورية لاسطولها الذي لا وجود له في بلاد تفتقر الى الاشجار ، هي التمور  
المشهورة او زيت الزيتون المفضل على زيت النباتات السنوية كالسمسم او الخروغ . وتمتعت  
حينذاك اشجار فينيقيا وسوريا ببهرة ستستمر قروناً طوالاً . اما المناطق الساحلية في آسيا  
الصغرى فقد اضطرت الى استيراد القمح ، ولكنها باعت النبيذ والزيت والعسل ، بينما وجدت  
المناطق الداخلية في تربية الغنم تكملة لانتاجها الزراعي .

كذلك لا تترأى لنا الصناعة الا من خلال صادراتها اي من خلال مصنوعات التزيينية .  
وفي هذا الحقل ايضاً يتضح تفوق مصر الغنية بالمواد الأولية الثمينة وباليد العاملة الاختصاصية :  
فهني تباع البردي الذي تكاد تحتكره احتكارات ؛ وتبيع المصوغات والعطور والمنسوجات  
والخزفيات والزجاجيات والبرونزيات . ولكن فينيقيا تنافسها في اكثر هذه المصنوعات كما  
تنافسها « برغاموس » في الرق والخزفيات التي تقلد البرونز والعطور والمنسوجات التي تتخللها  
الخيوط الذهبية والتي تنتجها المصانع الاطالية .

واليك مثلاً محسوساً ابلغ من هذا التعداد يريك وفرة الانتاج في الشرق . في اعقاب زلزال  
دمر رودس حوالى السنة ٢٢٥ قبل المسيح تسابقت كافة الدول الهلينية في اظهار بوادر السخاء  
نحو المدينة المنكوبة . فلنكتف باهبات العينية التي ارسلها الملكان اللاجي والسلوقي فوراً او  
وعداً بارسها في اجل قريب جداً . فقد قدم الاول ٤٠٠٠٠٠٠٠ لير قمحاً ، وكمية من  
الخشب تكفي لبناء ٢٠٠٠٠٠ مركباً و ٢٠٠٠٠ متر من عوارض خشب الصنوبر و ٣٠٠٠٠ ورنه من  
الدار و ٣٠٠٠ قطعة قماش للأشعة ، وقدم لاعادة صنع « الجبار » ٣٠٠٠٠٠٠٠ مثقال من البرونز ،  
بالاضافة الى مساهمة ١٠٠ مهندس و ٣٥٠ مدير اشغال ، كما قدم ٨٠٠٠٠٠٠٠ لير قمحاً للباريات  
المقدسة والذبائح و ٨٠٠٠٠٠٠ لتغذية بحارة عشرة مراكب . وقدم سلوقس الثاني من جهته ،  
بالاضافة الى عشرة مراكب مع عدتها ٨٠٠٠٠٠٠٠ لير قمحاً ، و « خشباً وقطراناً وشعراً » تبلغ  
عدة عشرات الآلاف من الاذرع وعدة ألوف من الوزنات . فيمكننا انطلاقاً من اهمية هذه  
الهبات ان نقدر اهمية الانتاج والصادرات .

النشاط الاقتصادي :  
التجارة

كفى كل هذا لتغذية تجارة ناشطة جداً . ولكن التجارة قد فقدت ميزتها الخاصة في الوقت الذي تطورت فيه . ففي المتوسط الشرقي عجزت الزراعة والصناعة اليونانيان عن الوقوف في وجه منافساتها التي لم يعوزها من قبل سوى التجهيز والتقنيات ، وهي التي وفرتها لها الاغريق انفسهم . والشرق الذي كان حتى ذاك العهد سوقاً لمصنوعات اليونان القديمة قد اقلل لأنه غدا يسد بنفسه اغلب حاجاته . لا بل اصبح باستطاعته ان ينافس المصنوعات المحلية في اليونان نفسها . اضيف الى ذلك انه تعلم كيف يلجأ مباشرة ، دون وسيط اجنبي ، الى المبادلات التي استلزمها فائض انتاجه . فجاءت النتيجة ثورة تجارية حقيقية كانت أثينا اولى ضحاياها .

استمرت اليونان في الاستيراد ، أقله في استيراد الحبوب ؛ ولكن صادراتها تدنت ، ولم تعد تجارة بحر إيجه وفقاً على اسطرها . لا بل ان هذه التجارة قد انتقلت بمعظمها نحو الشرق وأمست تسير في اتجاهين ، شمالي جنوبي وجنوبي شمالي ، بين البحر الاسود ومصر بمحاذاة الشواطئ الشرقية . واستيقظت المرافئ الآسيوية من سبات عميق ولعبت رودس دور الوسيط بفضل موقعها عند ملتقى كافة الطرق البحرية : وقد أطلق على جزيرة في أحد مرفأئي الاسكندرية اسم « انتيرودس » أي مقابل رودس . ولكن الاسكندرية ، بنوع خاص ، عرفت نشاطاً غير مألوف غربي الدلتا . فبفضل تيار بحري قريب من الساحل حماها من غزو الرمول الرسوبية ، وبفضل اتصالها بالنهر الكبير الذي هو شريان مصر كلها ، غدت مرفأ مصر الوحيد ومركز جميع المبادلات الخارجية . فكل ما يخرج من مصر أو يدخل إليها يجب ان يمر في أرصفتها ، وإليها تنتهي ومنها تتفرع الملاحة الداخلية التي كان من شأن سهولتها ان تفوقت مصر تفوقاً عظيماً على منافساتها . كان عمر الاسكندر أربعاً وعشرين سنة حين أصدر امره بتأسيس الاسكندرية : ففي ذلك اليوم ، كما في أيام كثيرة من حياته القصيرة ، غيّر وجه ومصير العالم الذي تناوله نشاطه .

ولكن المتوسط لم يحدد افق الشرق التجاري . فالاسكندر قد وسع هذا الافق بادفاعة حتى تركستان ونهر الهندوس والخليج الفارسي . أجل كانت الفتوحات العسكرية عرضة لزوال سريع : فقد اضطر خلفاؤه ، الى الشمال والشرق من ايران ، الى التخلي بسرعة عن بعض المناطق . وقد فقدت هذه المناطق النائية فقداً نهائياً منذ أوائل القرن الثاني ؛ ثم جاء الفارتيون من تركستان وتقدموا نحو الجنوب وأقاموا في بلاد بابل عازلين بذلك اغريق البختيار عن باقي العالم الهليني . ولكن هذا التراجع السياسي لم يحل دون استمرار العلاقات التجارية .

فقد اتاحت هذه العلاقات للمتوسطين الحصول على المصنوعات النادرة التي طبعت بطابع العظمة حياة العلية من الطبقات الاجتماعية . ربما كان من الممكن استحضر بعضها من افريقيا الوسطى أيضاً ، كالعاج والاشخاب النادرة ، ولكن نقلها عن طريق المحيط الهندي كان اسهل

منه عن طريق الصحراء او السودان . وقد وفر عالم الشرق الاقصى للمناخي عطور وبنجور البلاد العربية ولآلء الخليج الفارسي ولآلء الهند الجميلة والماس والحجارة الكريمة . ثم ظهرت الافاويه فأحرزت نجاحاً مطرداً . واستورد القطن بكميات ضخمة ، والحرير ايضا الذي فاق ما كانت تنتجه دودة برية هنا وهناك ؛ وقد نسج الحرير في صور وفي جزيرة كوس فأعجب به كل ذي ذوق مرهف ولكنه اخذ ، يوماً بعد يوم ، ينفر الغيارى على الاخلاق . ولم يكن لدى العالم المتوسطي شيء يبيعه بالمقابلة ، سوى الاقمشة الملونة وانتاج صناعته الرائجة . ولا شيء من هذا يصدر بعيداً على العموم ، على الرغم من توفر الادلة على وصول الاقمشة السورية الى بلاد المغول . ولكن المعجز يسد بتصدير النقود ، فتكُون منذئذ وضع سيستم حتى في العهد الروماني .

بيد ان هذه التجارة كانت جزيلة الفائدة لجميع المعنيين ، لا سيما للوسطاء ، على ما نرجح . وقام تنافس شديد بغية الاشراف على طرق هذه التجارة ، وحاولت كل بلاد ايصال هذه الطرقات اليها ، لتأمين الخامات الثمينة ولجني الارباح الطائلة من اعادة توزيعها او تحويلها . وقد تعددت هذه الطرقات . ولم تكن الطريق البحرية في ايدي الاغريق لأن اكتشاف الرياح الموسمية لن يحصل الا بعد زمن . فقد سيطر عليها البحارة العرب ، وحاول البطالسلة توجيه معظم تجارتها نحو مرفأهم في البحر الاحمر ، وغالباً ما افلحوا في محاولتهم ، بينما عني السلوقيون ، في اقصى الخليج الفارسي ، بمرفأ « الاسكندرية خار كس » التي سيطلق عليها فيما بعد اسم انطاكية . وكانت هنالك طريق برية تمر في تركستان وتبلغ بحر قزوين ثم تنتهي الى البحر الاسود بعد ان تجتاز اودية القفقاس : ويبدو انها قد اهملت . وانطلقت الطريق البرية الرئيسية من البختيار وانتهت ، بفضل القوافل الايرانية ، الى بلاد بابل . واسس السلوقيون هنا مدينة « سلوقية دجلة » التي هي عاصمتهم الشرقية والتي استخدمت مستودعاً لكل البضائع التي تنقل برأ او بحراً . ثم تفرعت الطرقات نحو الغرب . ولكنها تبعت كلها - بسبب قلة استخدام وادي دجلة وبلاد ما بين النهرين العليا - مرحلة مشتركة هي وادي الفرات الذي سارت فيه صعوداً مسافات تتفاوت طولاً وقصراً . وقد افترق بعضها بسرعة عن هذا الوادي واجتازت الصحراء التي اخذت تزدهر فيها « مدن القوافل » واتجهت بخط مستقيم نحو مرفأ فينيقيا . وافترقت طريق اخرى عن الفرات في سوريا الشمالية واتجهت نحو انطاكية ، عاصمة السلوقيين الغربية ، ومرفأ « سلوقية بيبيريا » . واتجهت اخيراً اطول هذه الطرق الى ميله وافسس بنوع خاص ، على بحر ايجه ، مروراً في كيليكيا ووسط آسيا الصغرى . فأثارت هذه النقاط المتوسطية التي انتهت اليها الطرقات اطماع الدول المختلفة : فقد تنازع اللاجيون والسلوقيون بعناد السيطرة عليها . وكانت الغلبة للسلوقيين طيلة القرن الثالث . فسيطروا اذ ذاك على سوريا الجنوبية والشاطئ الفينيقي ، كما سيطروا على سلوقية بيبيريا حوالى ثلاثين سنة . اما في الشمال ، فانهم قد أمّنوا ، حين لم يسيطروا مباشرة ، حماية او تحالف معظم الطريدة الساحلية في آسيا الصغرى . ثم قلب السلوقيون الموقف رأساً على عقب ، واذا طردتهم روما من آسيا الصغرى لمصلحة الاطالين . فانهم قد احتفظوا ، حتى

الفوضى النهائية ، بسوريا وفينيقيا، واستهدفت حروب كثيرة فتح او اقفال نوافذ آسيا على البحر المتوسط : فقد حرص الملوك على الاشراف على المرحلة الاخيرة من التجارة مع الشرق البعيد بالإضافة الى العلاقات المباشرة مع اليونان القديمة .

وفي ذلك ما يلفت النظر الى صفة بارزة من صفات الحياة  
رجحان السياسة على الاقتصاد :  
الاقتصادية في الملكيات الهلنستية . ففي كل الحقول تلتقى  
الملوك يضعون يدهم على الحياة الاقتصادية  
الانتاج والمبادلات احثاثاً قوياً كانت نتيجه نمو عظيم .  
ولكن الدولة تدخلت في كل مكان لتوجيه هذا النمو توجيهاً يتلاءم ومصالحها .

كانت هذه المصالح ، في أغلب الأحيان ، أميرية ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، تستهدف زيادة دخل الضرائب او إقامة احتكارات لمفعتها الخاصة أحياناً . وكانت أحياناً تجارية أيضاً تستهدف زيادة الخزون من المعادن الثمينة في أراضي الملكية . فان زيادة انتاج بضائع الاستهلاك لا تهم الملوك إلا بالنسبة لحاجات الاغريق الذين رغبوا في إرضائهم لاجتذابهم اليهم او لابقائهم على مقربة منهم ، ولكنها لا تهمهم بالنسبة للجماهير البلدية . وكان المهم في نظرهم ، كما كان في نظر المستبدين المستنيرين من قبلهم ، الموارد والمصنوعات المعدّة للتصدير التي يجب الحصول عليها بأدنى سعر ممكن ، كي يستطيعوا التغلب على المنافسة . فلم يستهدفوا اذن رفع مستوى حياة الطبقات الريفية الدنيا ، التي تؤلف سواد رعاياهم : فإن إبقائه منخفضاً ، على نقيص ذلك ، شرط لسعر الكلفة المنخفض . وقد سبق ورأينا ان هذا المفهوم الضيق كان نكبة للاقتصاد اليوناني ، فسبّب أيضاً ضعف السيطرة اليونانية على الشرق . فلم يكن الشرق ، في نظر الملوك ، سوى ارض للاستثمار سعوا جهدهم ، بتحسين المناهج ، الى زيادة دخلها بغية زيادة وسائل عملهم السياسي . وقليلون جداً هم الملوك الذين لم يكتفوا بالدخل المباشر القريب ، بل فكروا بالمستقبل : ولعلمهم السلوقيون دون غيرهم ؛ ولكن الهزائم التي منوا بها لم تسمح للمستقبل بأن يبرهن انهم كانوا على حق .

لم يبلغ الاهتمام بالدخل المباشر القريب وتحسين مناهج الاستثمار في أية ملكية ، ما بلغه عند اللاجئين . فقد اقاموا في مصر نظاماً يصح في تحديده التعبير « اقتصاد مباشر » بالترفضيل على « اقتصاد موجه » ؛ والمقصود بذلك اضيق تدخل دولي مباشر لا يهتم إلا لجباية الاموال الاميرية . وقد مهدت الطريق امامه كل تقاليد البلاد الناشئة من الظروف الجغرافية نفسها التي فرضت وجوب مراقبة فيضان النيل والاستفادة منه الى ابعد حد ، وهو في الوقت نفسه علة ومعلول لانقياد الفلاحين المنظم . ولكن الملكين الاولين من الملوك البطالسة استفادوا منه بصرامة منطقية ومرونة في الابتكار ودقة في التنظيم تثير كلها دهشة المعاصرين الذين قطعوا ، على صعيد « الاقتصاد المباشر » ، المرحلة التي تجوز فيها الدهشة . فتوصلا ، لحير خزانتهن الاكبر ، الى التوفيق بين « التصميم » والسلطة والرقابة والتلازم والضرائب والاحتكار .

القسم الأكبر من مصر مُلِك المليك المباشر . يلزم قطعاً صغيرة وفاقاً لدفتر شروط دقيق جداً ، ويستثمر ، فيما خص الرراعات الرئيسية ، وفاقاً لأوامر الملك . يجدد وزير الاقتصاد كل سنة المساحة الواجب بذرها في كل مقاطعة ، اقله فيما خص القمح والنباتات الزيتية والكتان . ويوزع الموظفون الاوامر العائدة للبذر بين المزارعين ويتأكدون من تنفيذها . وتسلف الدولة حبوب البذار . ويصدر الامر بجمع المواسم التي تحجز وتخزن في مكاتب عمومي تحت حراسة اشخاص مسؤولين يصادرون في كل قرية . وهكذا تحصل بالتفضيل حقوق الدولة بنسبة متساوية تحددها هي : إعادة البذار مع فائدته ، استيفاء المتأخرات المطلوبة للخزانة ، دفع الضرائب وقيمة التازيم . ثم يرفع الحجز ويستطيع الفلاح التصرف بما تبقى له . . . اذا لم يكن الصنف خاضعاً لاحتكار ما . وهناك في الواقع اكثر من احتكار ، لا على الحبوب ، بل على الزيت مثلاً الذي نعلم عن احتكاره الشيء الكثير بفضل بردي يحمل نص امر صادر عن بطليموس الثاني . ويتضح من هذا الأمر ان الحبوب الزيتية يجب ان تباع كلها ، دون أي استثناء ، الى ملتزم وانه يحظر على الفلاح ان يقتني في بيته هاوئاً او معصرة او اي شيء آخر من هذا النوع . وتخضع العمليات اللاحقة كلها ، منذ نقل الحبوب الى معصرة الزيت حتى بيع الزيت الى المستهلك ، مروراً بعملية السحق والنقل ، الى سلسلة من التازيمات التي تفرض عليها الضرائب واعمال الرقابة التي تعاقب ادنى مخالفة بالجزاء النقدي . اصف الى ذلك ان الدولة تحدد السعر في كل مرحلة من هذه المراحل فستطيع من ثم ان تعين حداً ادنى لأرباح الملتزمين . فنتج عن ذلك انه كان بالامكان الحصول على زيت الزيتون ، مع انه مستورد من الخارج ، بسعر دون سعر الزيت المحلي بمراحل ، لو لم تراقب الدولة استيراده وتفرض عليه رسوماً مرتفعة جداً .

تعطينا هذه الأمثلة من استعراض الاحتكارات والضرائب التي لا حدها . وهي تظهر ، بما فيه الكفاية ، ان الحياة الاقتصادية كلها في مصر اللاحية ترتبط بالملك ، وان نموها لا يفيد سوى الملك . وقد يؤدي رضى الملك ، الذي يظهر باقطاعات عقارية قابلة الابطال توجب استثمار الاراضي الحديدية ، الى انراء بعض المقربين المحظيين . واستطاع الاغريق النشيطون الماهرون ، الذين لقوا كل ترحيب في المملكة ، ان يحصروا فيها بسهولة على قسط وافر من اليسار . ام الجماهير البلدية فقد اضطرت الى العمل كي توفر لسيدتها سبل اثبات سلطته وسخائه ، في حال انها لم تتأكد يوماً من انها ستبلغ اوضع مستوى حياتي .

لم يبلغ « الاقتصاد المباشر » هذه الدرجة من الاحكام في الملكية الاطالية التي ارتفعت فيها ، على كل حال ، نسبة الاغريق والشرقيين « المستغرقين » الذين يصعب تطبيق هذه الاساليب الشديدة حيالهم . غير ان اختلاف الاساليب لم يحل دون وجود نرعة عامة مماثلة . ان المشكل اللاجي لا يمكن تحقيقه الا في ارض الفراغنة : ويبدو ان الاطاليين قد حاولوا الاقتراب منه جهد المستطاع . فهم قد امتلكوا قسماً كبيراً من السهول واستثمروها بواسطة فلاحين فداديين

ينفلونهم من ارض الى ارض كما يطيب لهم . واقتطعوا قسماً من الحصاد في الاراضي المقطعة للفلاحين اليونانيين . وفرضوا اموالاً اميرية باهظة حتى على المدن اليونانية التي حدث ان حجبوا ممتلكات معابدها مقابل مساعدة سنوية للخدمة الإلهية . وكان لهم مصانع ملكية يعمل فيها العبيد رحالا ونساء . وتصرفوا بمواد، خامية او مصنوعة، التجروا بها او وزعوها لدعم دعاوتهم ودبلوماسيتهم . فلم تستطع الطبقات الاجتماعية الدنيا عندهم ، كما عند اللاجئين ، ان تشعر بأي تعيير في مصيرها المادي ، بفعل السيطرة اليونانية ، غير رطأه ادارة اشد حرصاً على مصالح الملك المباشرة واكثر دقة في تحصيل مطالبها .

لا نجد التراخي في هذا المجال الا عند السلوقيين . ولا يعني ذلك ان هذا المثل الأعلى بالغريب عنهم . فمن حيث هم ملاكون كبار ايضاً ، فان لديهم وكلاء يراقبون اسثمار اراضيهم بواسطة فلاحين مرتبطين بها . وقد حصلوا ، اقله في بعض المناطق ، كبلاد بابل التي تتوفر لديها المستندات حيالها ، ضرائب تستلزم رقابة الأشخاص والمواشي والاشجار والحاصلات وكافة المبيعات . فلم يأنفوا اذن من رقابة النشاط الاقتصادي رقابة شديدة . ولكن اتساع رقعة مملكتهم قد وفر لهم دخلاً كبيراً دون اللجوء الى الرقابة التي لجأ اليها اللاجئون . لا بل ان مملكتهم اوسع من ان يكون ذلك ممكناً ، لانه يفرض عليهم اختصاصيين وموظفين كثيرين جداً . فاضطروا والحالة هذه الى تنازلات عديدة تاركين لجماعات بشرية مختلفة حياتها الاستقلالية شريطة دفع ضريبة اجمالية سنوية هي رمز خضوعها . ويبدو ، حتى في الاراضي الملكية ، ان ادارة قرى الفلاحين لم تكن ضيقة ولا مزعجة . ونمت ، بقسط اوفر من الاستقلال ، السكان المرتبطون بالامراء ذوي الاخاذات او بالمعابد التي يدير كهنتها « الارض المقدسة » ، وخصوصاً « القوميات » المحلية التي سارت في حياتها ، كاليهود مثلاً ، على شرائعها الخاصة ، اي وفاقاً لتقاليدها ، والمدن ايضاً يونانية كانت أم غير يونانية . اجل قد يحدث ان تلج الحاجة الى الضرائب وان يفرض تموين الجيش ، مثلاً ، بعض المساعدات العينية ، او ان يقرر الملك مؤقتاً ، بسبب حاجته الى المال ، وضع اليد على كنز معبد من المعابد . ولكن ذلك لم يعتمد قاعدة ولم يصطبغ بصيغة النظام اللاجبي : فليس ما يقبذ عمل الرعايا اليومي بتنظيم دقيق معدّ للتهديد لما يشبه مصادرة ارباحهم .

#### ٤ — الاتصال بين المجتمعين

من المحم ان يترك هذا الخلاف اثره في الحياة الاجتماعية . اجل باستطاعتنا ان ننظر الى هذه الحياة من زوايا عديدة . ولكن الجدة الكبرى ، في هذا النطاق ، مردها الى دخول الاغريق بين الاجانب بنسبة متفاوتة الارتفاع . فقد برزت من ثم معضلة عظيمة الامة هي معضلة الاتصال بين حضارات متباينة الجوهر واستساغة جماعة بشرية لجماعة اخرى وتبادل التأثيرات والانفعالات . غير ان معطيات هذه المعضلة تختلف اختلافاً كلياً اذا الملك شجع هذا الاتصال وهذه الاستساغة او لم يشجعها .

أما المقصود هنا هو المدينة اليونانية .

المدينة اليونانية  
والمواطنون الاصليون

لا يستطيع الملوك الهلينيون ، لاجتذاب الاغريق الذين لا غنى لهم عنهم ولإبقائهم عندهم ، ان يكتفوا بتأمين الفوائد المالية لهم . فالاغريقي لا يشعر حقاً انه في جوفه إلا كمواطن في مدينة ، اي ليس فقط كساكن مدينة تتوفر فيها بعض الابنية والتجهيزات المادية ، بل ايضاً كعضو ، بكل ما للكلمة من معنى قانوني ، في جماعة تدير شؤونها بنفسها : بهذا الشرط وحده يمكنه ان يتوق الى تحقيق المثل الاعلى للانسان الذي يكن في جوهر مثله الاعلى للحضارة . ويهنا هنا ، دون ان نعود الى امر العلاقات السياسية والادارية بين المدينة والسلطة المركزية الذي يطرحه هذا المثل الاعلى على بساط البحث ، ان نستخلص نتائجه حيال المجتمع البلدي .

تريد هذه المدن ان تكون ديموقراطية ، وهي ديموقراطية في الواقع . ولكن كما ان المبادئ ذات الاهمية العالمية في الظاهر لم تتناف ، في المدينة الديموقراطية الاولى التي هي أئتنا ، مع وجود الاجانب المقيمين والعبيد ، كذلك لم ير الاغريق ، في المدن التي أسست في الشرق ، ضيراً في ان يوجد الى جانبهم في مدنها نفسها ، سكان ينسبون الى طبقة اجتماعية يعتبرها القانون متدنية . ومعظم هؤلاء السكان عملياً من البلديين المنقطعين للمهن المدنية الحقيرة وللأعمال الزراعية في الاراضي الريفية التي تمتلكها المدينة . ولهذا التخلف القانوني ما يبرره في نظر الاغريق التخلف الحضاري ، وقد وجدت فيه غطرستهم ومصالحتهم ارضاء كافياً لكي ينتقلوا من فكرة الحضارة الى فكرة العنصر : فالبلديون ، بالتحديد ، أدنى من الاغريق وعليهم ان يخدموهم كما يخدم العبيد اسيادهم . تلك هي العقيدة الصافية التي طلع بها العهد الكلاسيكي والتي تركت رواسب عملية كثيرة في العهد الهليني على الرغم من بروز مثاليات تناقضها تناقضاً كلياً .

ولكن الاتصالات تتم على الرغم من كل شيء . فالرجال بين الاغريق أنفسهم كانوا الى حد بعيد أكثر عدداً من النساء : فاقترض في أغلب الاحيان السماح بالزواج المختلط . اصف الى ذلك ان الحياة اليومية جعلت الشرقيين الذين يعيشون في المدينة يحتكون ، احتكاكاً على الاقل ، بالحضارة اليونانية . وألف الاغريق في المدينة بررجوازية تسيطر الامور على هواها ويقنفي الآخرون أثرها في اللغة والزي والعادات . وتوصل البلديون أحياناً الى دخول بعض الجمعيات والى ادخال اولادهم في الاندية الرياضية التي توزع فيها التربية اليونانية الاصلية . وفي الظروف الملحة ، كالحرب او تدني نسبة الاغريق مثلاً ، استفاد بعضهم ممن تخلقوا بالاخلاق اليونانية من الترفيع رسمياً الى مستوى اعلى بما فيه مستوى المواطنين . اصف الى ذلك ان الملك ، دون ان يتقيد بهذا الشرط ، قد لمس فيهم معاونين جليلي الفائدة فعطف عليهم ورفقهم أحياناً الى اعلى المراتب .

كان قيام المدن اليونانية وتعددتها ، بالضرورة ، اذن ، عاملاً قوياً من عوامل نشر الحضارة

اليونانية . ولكن ذلك لم يكن كله لمصلحة الملوك . فالمدينة تولت شؤونها الخاصة ، مما بسط جهاز ادارة الدولة ؛ ولكن ذلك لم يعف من مراقبتها وحتى التفاوض معها ، مما أخطر تنفيذ الاوامر . ولم تنشأ ، مادياً ، اية مدينة حديثة الا بنفقات باهظة تتحملها في البداية الخزانة الملكية . وكانت اراضيها تقتطع من الممتلكات المستثمرة لحساب الملك ، في حال ان الرسم السنوي الذي تدفعه يبقى ابدأ دون دخل هذه الاراضي فيما لو بقيت تحت تصرف الملك ؛ ناهيك عن الاحسانات التي سري من الموافق فيما بعد ان يتكرم بها عليها . ثم ان البلدي « المستغرق » كان مدعوا ، عاجلاً أم آجلاً ، الى ان يصبح يونانياً ، مما يوفر عليه بعض الواجبات المالية ويخلصه من العبودية الاقتصادية التي كان نظامه السابق يخضعه لها .

كان من ثم على الملوك الهلنيين ان يختاروا احد امرين : اما ترسيخ نتائج فتح الاسكندر عن طريق تشجيع « الاستغراق » بتعمير مملكتهم على الطريقة اليونانية ، واما الابقاء جهد المستطاع ، لا سيما بتحديد انشاء المدن الجديدة ، على الحاجز الفاصل بين المجتمعين مع قوائد ذلك للخزانة الملكية . وبديهي انهم لم يختاروا كلهم حلاً واحداً ، وباستطاعتنا ان نطلقاً من النزعات الاقتصادية ان نستخلص نزعات السياسة الاجتماعية عند هذه السلالة او تلك . وهناك في الواقع نزعتان : نزعة اللاجئين ونزعة السلوقيين .

## ١ - الحل اللاتجبي في مصر

احتاج اللاجئين الى الاغريق ، شأن الملوك الآخرين ، فاجتذبهم الاغريق والبلديون في مصر : الى مصر بتأمين تسهيلات المعيشة لهم ، وبتوفير اجور مرتفعة المدن جداً أحياناً اذا كان هؤلاء الاغريق موزعين او عسكريين ، اقله لكبار الرؤساء بينهم . وقد اختلفت علاقات هؤلاء الاغريق بالبلديين خارج المدن عنها في المدن نفسها .

قامت في مصر بعض المدن اليونانية اقتصرت فيها السلطة الملكية ، التي وضعت لها نظامها الاساسي والتي كان باستطاعتها تحويله ، على مراقبة الادارة التي هي مشتركة مبدئياً . وكانت الاسكندرية بين هذه المدن « على مقربة » من مصر لا في مصر نفسها . وألفت هذه المدن ، من الناحية النظرية ، مناطق حرة داخل البلاد المصرية شعر الاغريق فيها كأنهم في بلادهم . وكان في عداد سكانها جماعات غير يونانية : أجناب وخصوصاً يهود جاؤوا باعداد كبيرة لا سيما وان فلسطين قد خضعت للاتجبيين حتى أواخر القرن الثالث ؛ وبلديون أيضاً ، كما هو طبيعي ، حفظ لهم مؤسس الاسكندرية نفسه مكانهم يجعل أسوارها تضم قرية راكوتيس المصرية . وحدث من ثم في هذه المدن التطور المحتوم . فتأثرت العناصر غير اليونانية بسرعة بالحضارة اليونانية مما أرغم منذ البداية على محاولة الحد لا من اقامة هذه العناصر في المدينة بل من تسريبها الى المجتمع اليوناني . وتتناول معلوماتنا الاسكندرية بنوع خاص حيث تجل الخطر جسيماً بفعل

نشاط الحركة التجارية التي توفر المزيد من ظروف العمل الحر . ولكن هذه المعلومات تكشف الستار عن ذهنية عامة . فقد حرّم الزواج المختلط بين الاغريق والبلديين وقسّم سكان المدينة الى فئات متميزة أخضع الانتقال من احداها الى فئة اخرى لتنظيم شديد ليس الحداد معه بالامر اليسير . ولم ينسح حق « البورجوازية » بمعناها المصري دون احتياطات حتى للاغريق العريقين . وما لبثت الاسكندرية ان أمست احدى كبريات مدن العالم القديم ، فأُمسّت بالتالي أكثرها هياجاً بسبب وجود القصر الملكي فيها وما يستتبعه هذا الوجود من صخب سياسي ، وبسبب تنافس الجماعات البشرية التي يبرز اتصالها اليومي الفوارق بين أوضاعها القانونية : وسيلنغ هذا الهياج ذروته في القرون الاولى بعد المسيح في الاضطرابات المعادية لليهود .

وتقع مسؤولية هذا الوضع في المدن على الاغريق أنفسهم أكثر منها على الحكومة بسبب تمسكهم بامتيازاتهم . ولكن الملوك من جهةهم يتحاشون زيادة عدد المدن اليونانية . فقد قام منها ، أولاً واخيراً ، ثلاث في مصر : نوكراتيس ، المستعمرة القديمة على الدلتا ، والاسكندرية التي أسسها الاسكندر ، وبطوليهايس ، المدينة اللاجية الوحيدة ، التي أنشأها بطليموس الاول في مصر العليا . ولا يعقل ان يكون الملوك اليونانيون قد اكتفوا بهذا العدد إلا عن قصد وتصميم ، للحدّ من « استغراق » البلديين والحوّل دون قيام مناطق حرة كثيرة في مملكتهم تحدّ من سلطتهم المطلقة . فان رعاياهم يفلتون من أيديهم بعد ان يقيموا في المدن . لذلك بدا الابقاء على الوضع الاجتماعي لسواد المصريين شرطاً للابقاء على وضعهم الاقتصادي : فاللاجيون كانوا بحاجة الى يد عاملة يحصلون عليها ويسخرونها على هواهم .

ولكن وجد ايضاً اغريق في مصر في غير هذه المدن الثلاث . ولم يحصد شيء من الريف حريتهم في الإقامة والانتقال . غير ان مشاريع الدولة الاحتكارية لم تفسح سوى مجال ضيق لاقدامهم ومبادهاهم التجارية . لذلك فان اكثر الذين عاشوا في الريف المصري لم يأتوا اليه من تلقاء انفسهم : فالملك الذي يقدر تفوقهم التقني قد اقامهم فيه لاعتبارات مختلفة . وقد استخدمت الادارة ، التي لا تعترف بغير اليونانية لغة رسمية ، عدداً كبيراً منهم حتى في مراتبها الدنيا . وقد اقطع بعض المحظيين منهم اراضي واسعة نشطوا في استثمارها بمساعدة قيمين يونانيين وفاقاً لمناهج افضل . واعتمد اللاجيون اخيراً على نطاق واسع نظاماً استعماريّاً عسكرياً لمصلحة الجنود اليونانيين في الدرجة الأولى .

ان هذا النظام يعفي الملك من دفع الاجور بين التعبئة والتعبئة . وله الفضل بالاضافة الى ذلك في ابقاء رجال الجندية الممتازين في مصر وفي حملهم على الزواج وانجاب الأولاد فيها . يبقى الجندي مرتبطاً بوحدة معينة من وحدات الجيش تحت امرة رئيس معين ولكنه في الوقت نفسه يتصرف « بقطعة » ارض تؤمن له زراعتها أوده وأود عائلته وحتى أود حصانه اذا كان فارساً . وتتفاوت مساحة القطعة بتفاوت مرتبته ومركز الوحدة الي ينتمي اليها .

وعلى الرغم من ارتفاع عدد هذه القطع في بعض المناطق لا سيما في الفيوم حيث افضت الاعمال الى توسيع رقعة الاراضي الزراعية ، فانها قد كانت مع ذلك منتثرة هنا وهناك يخضع توزيعها لعاملي الترفيع والشغور : ونادراً ما عاد التصرف بها لشخص واحد ؛ كما لم يكن من الضروري ، من جهة ثانية ، ان يتجاور فيها الجنود المتمون للوحدة نفسها في الجيش . وتبقى الارض مبدئياً ملكاً للملك ولا يتصرف بها الجندي إلا تصرفاً مؤقتاً : عند وفاته تستعيد الادارة القطعة ويمكنها ان تسلمها لمن تشاء . ولكن تطوراً محتوماً أدى بسرعة الى التكرار لهذا الوضع القانوني . فالملك يكون سعيداً جداً في ان يبقى في القطعة الابوية ابن الجندي المتوفى شرط ان يصبح هو نفسه جندياً . وهكذا غدا الجنود رويداً رويداً يوصون بأراضيهم لأراملهم أو يرهنونها أو يبيعونها للغير : فأصبحت الارض المقطعة للجنود ، عملياً ، ملكاً خاصاً في النهاية .

وهكذا أقام الاغريق في أملاكهم في الريف المصري . عاشوا فيها بين البلديين ، وقد زاد من الاتصال بينهم انه تعذر تشييد بيوت جديدة كافية لجميع هؤلاء السكان الجدد . واستعمل الملك لأسكانهم حقه في المصادرة : ففرض على ملاكي البيوت ان يتنازلوا عن نصفها للجنود ، تنازلاً مؤقتاً في البدء ما لبث ان اصبح نهائياً كتملك الارض المقطعة . واذا أدى هذا الوضع أحياناً الى تساكُن حقيقي ، فانه كان أبعد من ان يجعل هذا التساكن ذا فعالية من حيث التقارب العنصري . اجل لم يبغيض المصريون الاجانب بغضاً مبدئياً ، ولكنهم رأوا في هؤلاء الجنود دخلاء يجرمونهم من قسم من بيوتهم ، وزاد في حقدهم التصادم اليومي المتعدد الذي يسببه الجوار القريب : ولم يرضوا مرغنين بهذا التدبير إلا بعد زمن طويل .

اضف الى ذلك انهم نظروا الى الاغريق نظرتهم الى من يحسم ادارة مزعجة متطلبة يثقل ممثلوها المباشرون والمتمون مطالبيها بتجاوزاتهم . ومن حيث ان البلديين ، من جهة ثانية ، فاقوا الاجانب عدداً الى حد بعيد ، لم ينتشر الاستغراق انتشاره في المدن . لا بل غالباً ما تأثر الاغريق أنفسهم بالاخلاق المصرية ، لا سيما وان الزواج المختلط الذي حرّم في المدن ، قد سمح في الارياف في ما يظهر . ولكن نظراً لما شبه مدني خاصاً بمصر ظهر مع ذلك ببطء ، أقله في القرى الكبيرة ، ولا سيما قواعد الاقسام الادارية الهامة : بورجوازية حاولت الاحتفاظ بطابعها اليوناني بفضل جماعاتها وتربية أولادها في الاندية الرياضية وبلغت تقريباً ما حاولته ، ولكن بكثير من الزيف والافساد .

من حيث ان الفلاحين لم يستغرقوا ، فانهم لم يخلصوا يوماً لسلالة كانت أبعد من الملكية اللاجبة ان تصبح سلالة قومية بسبب اعتدادها في الحرص على البقاء يونانية . ومهما والجمتمع البلدي بلغ من امر انقيادهم السلبي ، فان هدوءهم كان منوطاً بالوضع المادي الذي يوفر لهم . وقد وعى الملوك ذلك ، وانسجماً منهم مع المثالية الملكية ، من جهة ثانية ، أوصوا عملاءهم بالعدل والسنزاهة وتقبلوا شكاوى رعاياهم وتباهوا بتقويم الاخطاء وتوزيع السعادة .

ولكن شتان بين النظرية والواقع لأنه قام بينها هوّة لم يتح لتقنية الادارة اذ ذاك ان تزيلها . فلم تحل الرقابات على انواعها دون تجاوزات الموظفين ولا دون اختلاسات ملتزمي الضرائب أو الاحتكارات المسؤولين شخصياً عن كل نقصان والمقضي عليهم من ثمّ بالافلاس اذا ما برهنوا عن نزاهة كلية . ومن حيث ان النظام الاقتصادي والمالي كان مصمماً بحيث لا يترك للبلديين إلا الحد الأدنى من كفاف العيش ، فقد آل مصيرهم الى بؤس لا يطاق بفعل التجاوزات أو القحط وكلاهما لا مناص منها بين آونة واخرى .

أخذت الآلة بالصريف باكراً جداً . فلجأ الفلاحون المصريون ، بصورة فردية ومتفرقة أولاً واكثر تواتراً ثانياً ، الى ابسط وسائل الاعتراض : الاضراب . وليس المقصود بالاضراب رفض العمل والبقاء في المنزل ، اذ ان للملك حق المصادرة والسخرة ، بل الاختفاء او الهرب الى مكات تجعلهم امتيازاته بأم من ملاحقة الشرطة ، اي الى أحد المعابد على العموم ، فحاولت الادارة مكافأة ذلك بالحد من الحق الممنوح للمعابد في الحماية وبإضافة قسّم على عقود العمل بمتابعة العمل حتى النهاية « وبلا امتناع عن الذهاب الى معبد إله او مذبح ملكي او مكان حماية او مكات محصن » . ولكن ذلك لم يمنع انتشار المقاومة السلبية .

وقد حدثت في اواخر القرن الثالث واولئل القرن الثاني ، ثورات علنية في مصر العليا وفي الدلتا . وكان مصدرها ، كما يقول بولنب ، غطرسة المصريين الذين ارتكبت الدولة خطأ في تسليحهم وتدريبهم كالجنود المقدونيين لمواجهة ضرورات الحرب ضد السلوقيين والذين نسبوا لأنفسهم الفضل في احراز النصر . ليس من ريب في ان هذه التدابير العسكرية كانت بمثابة اعلان الانتفاضات . ولكن سبب الانتفاضات البعيد العميق كان وطأة الرسوم على انواعها التي اثقلت كاهل البلديين .

التف الثائرون حول زعماء اطلق بعضهم على انفسهم لقب الفرعون ، فعاقبهم اللاجيون عقاباً صارماً . ولكن ما ان تم اخضاعهم حتى عمد عدد من الملوك الى سياسة التنازلات ، لا سيما حيال الطبقة الكهنوتية التي اعادوا اليها امتيازاتها وتكرموا عليها بهبات سخية . ووسعوا مساحة الاراضي المقطعة للجنود المزارعين الذين من اصل مصري ، حتى دون الحاقهم بوحدات عسكرية ارفع شأناً عن طريق تغيير قوميتهم الرسمية . وخصوا ببعض الامتيازات المصريين الذين قبلوا بالاستغراق ، وقد بلغتنا اخبار بعض حالات ذات مغزى في هذا المجال . فاتخذ مصري يدعى « نختسافيس » اسم « مارون » اليوناني ثم حصل على لقب « مقدوني » . وقد حصل مصري آخر يدعى ديونيزيوس — بيتوسارابيس على لقب « صديق الملك » . غير ان كل ذلك لم يكن سوى امور استثنائية . فالسواد الاعظم لم يؤخذ بهذه المغيرات التي لم تفره قط . ولعله لم ير في مثل هذه التنازلات سوى دافع آخر جديد للاستمرار في تعلقه بتقاليده .

واذا حدثت من جهة ثانية ان ضعف السلطة الملكية المتزايد ، الذي أدّى الى الفوضى الادارية

وعقم الانظمة الشكلية ، ، قد خفف من الظلم الذي شكاه منه الفلاح ، فانه قد سهل في الوقت نفسه اختلاسات الموظفين التي ما زال الفلاح ضحيتها ، دونما ملجأ بعد بروز هذا الضعف . واستمر الهرب الذي غدا ، عند الريفيين المصريين ، تقليداً لم تقو روما نفسها على استئصاله .

يستحيل إذن نكران الفشل النهائي في كافة الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية الذي منيت به الادارة اليونانية في مصر : وكان بوسع روما ان تقطف هذه الثمرة الناضجة للفتح ، قبل ان تقدم على ذلك بزمان طويل . والشيء الخطر في هذا الصدد هو ان اسباب الفشل كانت داخلية بنوع خاص : فالصعوبات الجديدة لم تأت من الهزائم التي اوقعها باللاجئين العدو الخارجي ، بل من داخل مصر ، لأن انضواء الرعايا لم يحصل . ورد بعض المؤرخين المتأثرين بالاقتصاد الحرّ هذا الضعف الداخلي الى مبدأ النظام المباشر والموجه نفسه الذي اعتمدته الملكية مثلاً أعلى ولكنه لم يلزم باستمرار الانسان ولا الأشياء . ان هذا الاستنتاج مغالى فيه اذا كان المقصود اعطائه صفة الشمول والديمومة . فالاقتصاد اللاجى لم يكن بعد ليستطيع الحصول والاعتماد على جميع الوسائل التقنية ، البشرية والمادية ، الضرورية لبلوغ الهدف . فالأجدر ان يردّ هذا الضعف الى التصميم على أقصى استثمار اثنائي الذي ساد تطبيق هذا النظام ، لأن اللاجئين لم يسعوا الا الى زيادة موارد المباشرة التي جنوها من احتلالهم ومن رعاياهم ، ولم يريدوا استخدام هذه الموارد للمصلحة الملك وسلطانه الذي هو اداة سياسته الخارجية بدلاً من استخدامها لرفع مستوى حياة المصريين اي لضمّهم الى الاغريق تحقيقاً لمصلحة هؤلاء واولئك المشتركة .

### ٢ - الحل السلوقي في آسيا

سياسة السلوقيين الاقتصادية كانت سياسة السلوقيين ارحب آفاقاً . ولعلمهم ادركوا مهمتهم منذ البدء ادراكاً يختلف عن ادراك السلوقيين . وهنالك حالة عائلية تقدم دليلاً ذا مغزى على هذا التباين . في السنة ٣٢٤ ارغم الاسكندر ، في « سوزة » ، ثمانين من كبار ضباطه على الزواج من نساء ايرانيات ، كما فعل هو نفسه . فكل الذين وصلتنا اخبارهم ابطلوا زواجهم بعد موت الفاتح ، متنكرين بذلك لسياسة الامتزاج التي ارادها الاسكندر ، ومرتدين الى عصبية عنصرية اكثر انسجاماً مع التقاليد اليونانية . ولم يشذ عنهم سوى واحد فقط هو سلوقس نفسه الذي كان مدعواً لأن يؤسس السلالة التي كان القسم الأكبر من آسيا الغربية من نصيبها . فهو لم يطلّق « افاميا » البختيارية او انه لم يطلقها الا في عهد متأخر ؛ واطلق اسمها على عدة مدن انشأها يكاد يوازي عددها عدد تلك التي اطلق عليها اسم والدته « لاوديكي » ، كما سلّم مملكته الى ابنه انطيوخوس الذي انجبه منها . فلم يأنف السلوقيون فيما بعد ، اقله في بعض الظروف ، من تزويج بناتهم الى بلاطات ثانوية في آسيا الصغرى او التزوج من بنات هذه البلاطات التي لا ريب في انها استغرقت باطراد ولكنها من اصل محلي ، لا سيما اسرة الـ « متريدات » الايرانية ، اسياد كبادوكيا البونتيّة . وليس من ريب في انها مصاهرات

دبلوماسية ، ولكنها تناقض بوضوح حرص البطالسة في العهد نفسه على نقابة الدم التي كان من مبالغتهم في المحافظة عليها انهم رأوا خير حل لها في زواج الملك من شقيقته .

بيد ان الواجب يقضي بأن لا نبالغ في اهمية هذا التفرد من الوجهة العملية . وان هنالك في الحقيقة اسباباً اخرى لسياسة السلوقيين : فهي لا تخضع لمبادئ مقررّة في الحرية حددتها الوراثة خضوعها لضرورات ملحة . فالسلوقيون ايضاً يستهدفون الثروة للتمتع بالقوة . ولكن مساحة مملكتهم وعدد رعاياها ، وكلاهما يفوق مساحة وعدد رعايا مصر ، اتاحا لهم تأمين موارد كافية دون اثقال مطالبهم . اضاف الى ذلك ، وهذا هو الامر الجوهري ، انهم لم يحكموا ، شأن اللاجئين ، شعباً واحداً ، واحداً بحضارته التقليدية ، ومرغماً على الوحدة بوحدة ظروف المعيشة نفسها وبالنظام الذي تفرضه عليه الطبيعة . فليس ما يشبه دولتهم في اختلاف عنصرياتها : الاغريق والاسيانيين والساميين والايروانيين ، وكلهم شعوب يختلفون جنساً ولغة وديانة وتنظيماً اجتماعياً ومستوى تقنياً ونوع معيشة . القوة العسكرية واتفاق الظروف هما اللذان جمعاً هؤلاء الرعايا المختلفين تحت سلطة سيد واحد . غير انه لا يعقل ان يتوق هذا السيد الى مراقبة حياتهم اليومية باقامة ادارة تتوفر لديها وسائل العمل والموظفون للسيطرة على هذا الواقع المتعدد الاجزاء ، فاضطر اضطراراً لاعتماد اساليب اخرى .

لا تترك اعمال السلوقيين نجلاً للشك حول الاسلوب الذي اعتمدوه بالترفضيل على غيره : نشر الحضارة اليونانية . فهم لم يروا فيها حضارة متفوقة تقنياً في الحقلين الاقتصادي والعسكري فحسب ، بل العاد الاكبر المشترك الوحيد بين رعاياهم . اجل بقي امامهم ان يحولهم اليها . ولكنهم لم يخشوا نتائج هذا التحويل بل شجعوه وفاقاً لحطة مرسومة بالاقدام على انشاء المدن وبالتأثير على النخبة الاجتماعية بين الشعوب البلدية .

بلغت جهودهم في سبيل « تمدين » مملكتهم على الطريقة اليونانية السلوقيون والاكثار من المدن شأواً بعيداً يقع في النفوس موقعاً جليلاً : وهم قد برهنوا في هذا المجال ايضاً ، وللأسباب نفسها ، عن تقيدهم بمثل الاسكندر ، ولكن بصورة اكثر ظهوراً واستمراراً منها في الزواج المختلط . ومن اشهر ما انشأوا مدينة « انطاكية - على - العاصي » في سوريا ، ومدينة « سلوقية - على - دجلة » في بلاد بابل . ولكنه من السهل علينا ان نذكر مدناً اخرى كثيرة ، ويعزو التقليد الى سلوقس الاول وحده تأسيس ٥٩ مدينة : ١٦ انطاكية ( على اسم ابيه ) و ٩ سلوقية و ٥ لاوديكي الخ ... اجل قد خف هذا النشاط بعد ذلك ؛ ولكن انطيوخوس الرابع ، حوالي السنة ١٧٠ ، قد جدد بعض الشيء .

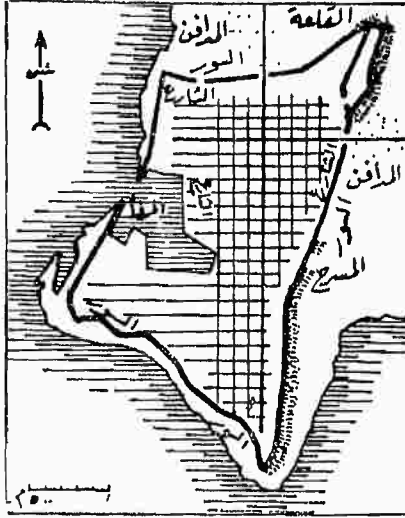
من الثابت ان الملكية قد سيطرت ، اقله في قسم كبير من القرن الثالث ، على الساحل الايحي في آسيا الصغرى الذي سبق له ان كان يونانياً او مستغرقاً ، وانها استطاعت بالتالي ، باكثر سهولة من المملكة اللاجية ، ان تجدد الاغريق في اراضيها نفسها : فعند ما رغب انطيوخوس

الرابع في توسيع مدينة انطاكية في بلاد فارس ، ارسلت له مدينة « مغنيزيا — على — مندريس » جمهوراً من المهاجرين المزارعين ، وهي نفسها التي ارسلت مهاجرين آخرين لتأسيس انطاكية في بيزيديا . ومن الثابت ايضاً ان عدداً من هذه المدن لم ينشأ من العدم ، اذ كثيراً ما يقصد بالانشاء ابدال اسم او وضع ، او رفع مدينة بلدية راهنة الى مرتبة المدن اليونانية . ولكن مهما بلغ من امر شكلية هذا الانشاء فانه قد انطوى دائماً ، اقله ، على اقامة سكان جدد ، اغريق او مستغرقين ، يكتسبون صفة المواطنين ويفقدون قوميتهم السابقة ، وما كانوا ، بالتالي ، ليرضوا بهذا التغيير لو لم يحدوا فيه افادة مادية ، اي ملكاً عقارياً في ما يعيننا .

لذلك يجب الا تستسهل الصعوبات التي تنطوي عليها سياسة تطبق بمثل هذا الاتساع . فحق اذا لم تكن المدينة جديدة بالكلية — وهذا ما نواجهه احياناً — فانها تخضع لبعض التجديد على الاقل : اذ ليس من مدينة يونانية لا تضم في وسطها أسواراً وحصناً وساحة عامة وشوارع ومعابد وأبنية عامة اخرى ؛ وليس من مواطنين اصليين دون بيوت وارض . وانما يقع عبء كل ذلك على الملك الذي يتخلى عن قسم من اراضيه ويتحمل نفقات التأسيس الأول . ولا نعجب من ان يكون التصميم على مثل هذه البساطة — مربعات هندسية تتفق على كل حال مع مبادئ التجميل الهليني منذ القرن الخامس — وان تكون قياسات الساحات العامة والشوارع موحدة تقريباً : ويجب ان نعتقد انه قد قامت ، في خدمة الادارة ، مكاتب دروس ومصالح هندسة عمارة نرجح ان مهامها كانت مرهقة لأنها حاولت ، بنجاح شبه دائم ، التوفيق بين الخطوط الرئيسية للتصاميم الموحدة وبين الظروف الخاصة بكل موقع . فكان المجهود المبذول عظيماً ؛ وعظيمة ايضاً كانت الكلفة التي جرت اليها ضخامته ومدته في الارواح والأموال .

وبالاستطاعة تقدير تجرد هذا المجهود تقديراً افضل ، اذا لم ننس ان المدينة ، من حيث هي مدينة ، تتمتع بمجد أدنى من الحريات الادارية والسياسية احياناً . فالملك ينشئ المدينة في اراضٍ تخضع لسلطته المطلقة : فهو يتخلى اذن ، لهذه الغاية ، عن قسط من سيادته . وغني عن القول انه لا يتوخى مما يقدم عليه مجرد الحسارة . فالمدينة الجديدة التي يقيم فيها حامية عسكرية تؤلف نقطة دفاعية يتوقف امامها غزو الاعداء . ثم ان المدينة تدفع له الجزية ؛ فهي تنشط الحركة الاقتصادية في المنطقة المحيطة بها ، فتزداد بالتالي الموارد الاميرية عاجلاً أم آجلاً . ولكن ذلك لا يوازي ما ينطوي عليه قيامها من انتقاص للسلطة الملكية التي تضطر لأن تحسب حساباً لجهاز يتمتع بنظام خاص ، بعد ان تكون من قبل سلطة مباشرة . فتزول الإدارة المباشرة ويصبح على الملك ان يلجأ الى الدبلوماسية حيال رعاياه انفسهم . وحيث كان يكفي ان يصدر أمراً لقرض ضريبة جديدة او طلب قرض او جمع متطوعين ، اصبح عليه ان يبرهن عن كرمه او ان يركن الى الحيلة للاحتفاظ بتأثيره ونفوذه وان يوجد التوازن في الاستقلال الممنوح للأجهزة البلدية برقابة « وكيل » وان يحاول ضمان ولاء وخوف المواطنين كي يفوز بأيديهم في

حالة الحرب او ان يتلافى ثورتهم فقط . لذلك فان نظام المملكة نفسه قد تبلبل وانقلب بفعل الاكثار من المدن . ولو ان « التحضير » على الطريقة اليونانية نفذ تنفيذاً كاملاً لأدّى الى جمعية من الدول الصغيرة المستقلة المتحاذية لا يكون الملك فوقها سوى عنصر توحيدى مهمته الابقاء على الوحدة وادارة الشؤون العامة اي الدبلوماسية والحرب . ولعل السلوقيين ناقوا الى هذا الهدف توفراً لاوعياً على الرغم من انه لا يغري الملوك اصلاً .



الشكل ٢٧ - خريطة لادوكيا البحرية السلوقية (وتعرف اليوم باسم اللاذقية)

غني عن القول ان المدن اليونانية والبورجوارية اليونانية في آسيا متباينة وفاقاً للمناطق .

كانت المهمة على بعض السهولة في الشطر الغربي من المملكة، لا سيما في السواحل المتوسطية حيث سبق للحضارة اليونانية ان تأصلت وحيث لم يأنف الاغريق ، على انهم كثر فيها ، من ان يأتوا من اليونان نفسها للاقامة

فيها . فالواقع هنا لا يخيب الآمال . لذلك فان جميع المنطقة الغربية من آسيا الصغرى وساحلها الجنوبي وكليكييا ، شرقي بحر ايجه ، قد غدت ملكاً للندن اليونانية؛ ويجوز القول نفسه عن سوريا الشمالية حيث اطلقت على الجبال والأنهار والمناطق الطبيعية اسماء جغرافية مقدونية . في هذه المنطقة من سوريا ، وبين مدن اخرى كثيرة، شيدت انطاكية، أشهر العواصم الملكية، وقامت على مقربة منها ضاحيتها « دفنى » حيث انشئ معبد الإله السلاي ابولون . وقد ازدادت اهمية هذه المدينة ، مادياً وسياسياً ، بعد ان ضاقت اراضي دولة السلوقيين الذي اصبحوا في النهاية « ملوك سوريا » فحسب : فنقيت حتى آخر العهد القديم احدى اكبر عواصم الشرق المتوسطي ، منافسة الاسكندرية ومشتهرة بثروتها وبذخها، ونشاطها وحتى سجنها ، وملاذاتها وحتى فجورها . وتابعت المدن الفينيقية القديمة ، ابعد الى الجنوب ، تلقى الحضارة اليونانية الذي اقدمت عليه مخيرة منذ قبل الاسكندر . ويجوز التأكيد ان النجاح في كافة هذه المناطق قد بلغ الكمال الممكن بلوغه ، ولكن يجب ألا ننسى ان العمل المنجز ، الذي كان منقوصاً عندما استلمت روما الارث السلوقي ، قد اتمته روما بحزم ، واليها يعود بالتالي بعض الفضل في تحقيقه .

يجب ألا نغفل ايضاً ان ساحل آسيا الصغرى الجنوبية وساحل فينيقيا وفلسطين قد بقيا في

السابق ، طيله قرن تقريباً في اوائل العهد الهليني ، في ايدي البطالسة وباشرا خلاله تطبيق هذه السياسة . ويدل تناقض علمهم هذا لسلوكهم في مصر انه استحال على ابي ملك الوقوف في وجه نشر الحضارة اليونانية حيث كشف التطور السابق ، التلقائي ، عن ان امكانات هذا النشر لها ما يبررها جديداً . ولكن السلوقيين قد بذلوا الجهود نفسها في مناطق اخرى ، مما يثبت انهم خضعوا لدافع غير ذاك الذي خضع له البطالسة .

ومع ذلك فان الظروف كانت اقل مؤاتة في وسط المملكة وشرقيها . فلم يتوفر الرجال لمهمة على هذا الشأن في مملكة على هذا الاتساع . وقد نفر الاغريق من الابتعاد عن البحر ، كما ان طبيعة الحضارات المحلية وميزاتها الخاصة التي لم يسبق لهم ان واحبوها من قبل قد زادت من شعورهم بابتعادهم عن بلادهم . بيد ان مدناً جديدة كثيرة قد انشئت في بلاد ما بين النهرين وبلاد بابل وبلاد سوزا وحتى في قلب ايران . اما المدينة التي عرفت اعظم نمو فهي « سلوقية - على - دجلة » المؤسسة لمنافسة بابل التي أبعد شطر من سكانها لتكثير السكان في المدينة الجديدة . واعتبرت بابل ، بسبب صبغتها الشرقية العميقة ، ابعد من ان يمكن نشر الحضارة اليونانية فيها ، مما لم يمنع اطيوخوس الرابع ، من جهة ثانية ، من ان يحولها هي ايضاً الى مدينة يونانية بعد ذلك بقرن ونصف . ولكن سلوقية - على دجلة ، في هذه الاثناء ، امست مركزاً تجارياً كبيراً ومستودعاً للتجارة مع الشرق الاقصى واحدى اكثر المدن سكاناً في العالم القديم . وقد ذهب « بلين القديم » ، في القرن الاول من العهد الميلادي ، الى القول ان سكانها يبلغون ٦٠٠.٠٠٠ . وهذا ما يوازي ، على الأرجح ، سكان انطاكية وسكان الاسكندرية ، ولكنه دون سكان روما .

كانت النتيجة المباشرة والمهموسة لهذه الجهود انتشار الاغريق في كافة انحاء المملكة . بيد ان نسبة توزيعهم بقيت متفاوتة فكانت مرتفعة هنا ومتدنية هناك ، على ان منطقة واحدة خاضعة للسلوقيين لم تخل منهم . واذا ما حدث ان وجدوا منعزلين ودون تنظيم ، فان ذلك لم يقتصر على المملكة السلوقية ، بل حدث في كافة الممالك الهلينية . كانت ابواب الشرق مفتوحة على مصر اعياها امامهم ، وكان باستطاعتهم ان يتنقلوا فيه ويتعاطوا التجارة ويملكوا الاراضي شأن الرعايا الآخرين ، شرط التقيد بالأنظمة ودفع الضرائب . اما ما يميز المملكة السلوقية عن مصر اللاجية ، فهو انهم استطاعوا من جهة ثانية ان يتلاقوا فيها في كل مكان ، منذ البداية ، مؤلفين جماعات منظمة ، بصفة مواطنين لمدن تنعم « بشريعة » هي دستور يحدد حقوقهم وواجباتهم ، وسكان مدن تتوفر فيها المعابد والمنشآت الرياضية الضرورية للبقاء على حضارة يونانية يستطيعون ان ينقلوها بكل حرية الى اولادهم . وان ما لم يحصل عليه اغريق عواصم المقاطعات المصرية الا ببطء ، حصل عليه اغريق المدن السلوقية فوراً ودونما جهد .

كانوا اذن في الواقع ، منذ البداية ، بوجوازين محظيين وفر لهم تملك قطعة ارض يساراً كريماً ، لا باستثمارها بأيديهم ، بل بمساعدة بعض العبيد او يد عاملة لا يدفعون لها اجوراً

مرتفعة . فكانوا بالتالي بوجوازيين يكادون يتساوون ، من حيث المستوى الحيائي ومن حيث ميولهم للحياة الجماعية والحياة الخاصة على السواء ، مع اولئك الذين انتسبت اليهم في الوقت نفسه الطبقة الحاكمة في مدن اليونان القديمة : فقد همهم كثيراً ان يتشبهوا بهؤلاء وان تتفوق مدنها على مدن اليونان القديمة بفخخة ابنتها واعيادها وبشهرة مدارسها وفنانيها . وقد توصلوا الى مبتغاهم في اكثر من حالة ، بمساعدة الملوك او دونها ، اقله على مقربة من المتوسط . وهكذا فان ازدياد البورجوازية اليونانية وتفرقها في آسيا يمثلان احد تحقيقات العهد العظمى وحدثا اجتماعيا كانت نتائجه كبيرة الالهية على الحركة الفكرية ، كما سنرى . بيد انه من الجلي ان السلوقيين ، بفضل سياستهم التحضيرية والتضحيات التي تحملوها في تنفيذ هذه السياسة ، ان لم يخلقوا هذا الحدث الاجتماعي الذي لاحت دلالة قبلهم ، قد اسهموا على الاقل اسهاماً بعيداً في الاتساع الذي اتسم به في مملكتهم .

عمل المدن اليونانية  
كان احد اهدافهم ، من وراء عملهم هذا ، شأنا الاسكندرية من قبل ، نشر الحضارة اليونانية . وقد بدا لهم اجتذاب الشرقيين الى حضارتهم الخاصة وسيلة لضمان ولائهم . وهي وسيلة مريبة على كل حال لأن السلوقيين لا يستطيعون الزعم بأنهم الاسرة الوحيدة التي ينتسب اليها فاسيلفس يوناني ، ولأن زعماء آخرين ، اقله في بلاد البختيار ، لم يُقبلهم السلوقيون على الرغم من انهم نظروا اليهم كمغتصبين ، قد استمروا في بذل جهود مماثلة . وقد صادف السلوقيون في النهاية متاعب سياسية حتى في المدن الملكية ، كالعاصمة انطاكية مثلاً . فهل يستنتج من ذلك ان مصلحة الحضارة اليونانية تغلبت ، عند بعض ممثلي السلالة ، على مصلحة السلالة نفسها ؟ ولكن المرجح انهم اعتبروا ان المصلحتين تتلاقيان ، وفي هذا الاعتبار كل الحق لو بقيت السلالة قوية . وكان العدو الحقيقي ، العدو المشترك ، في الواقع ، البدوي او الجبلي السجس المستلب الذي رفض الخضوع لادارة منظمة والاكتفاء بعمل منتظم والتكيف وفاقاً لمقتضيات تقنية زراعية عليا ، معترضاً بذلك ما تنوق اليه كافة الحكومات ، اي النظام وزيادة الانتاج والمبادلات . ففي هذا الصراع ضد العاصي ، كانت المدينة افضل سلاح ، لا كمرکز رقابة عسكرية فحسب ، بل كمرکز اشعاعي تنتشر منه العادات الواجب نشرها ، اي كقدوة واداة تحويل وارترداد .

جعل عدد المدن التي انشئت أو حوّلت وفاقاً للطريقة اليونانية ، من المملكة السلوقية ، حقلاً اختبارياً واسع الأطراف صادف فيه كسب البلديين أدبياً ظروفاً أكثر مؤاتة منها في مصر اللاجية . أجل لم يحصل كل البلديين المقيمين في أرض مدينة من المدن على المواطنة الكاملة . فان المنطقة الريفية التابعة للمدينة قد أمنت استثمارها باستمرار لحساب الملاكين ، وهم مواطنون في أغلب الأحيان ، يد عاملة من الفلاحين الذين لم يطرأ على مصيرهم القساووني والعملي أي تغيير . وكانت في المدن نفسها فئات من السكان الى جانب المواطنين ذوي الحقوق الكاملة ، أي جماعات

ذات وضع أدنى كالأجانب المقيمين مثلاً . غير أننا لم نر في أية مدينة آسيوية أنظمة أشد تدقيقاً وعداءً لقطع الحدود القانونية منها في الاسكندرية . أجل كان الاستغراق بالفعل أمراً محتوماً بسبب الاتصال اليومي وبسبب الاطار المادي نفسه للمدينة ولكل ما يستازمه زخرفها البنائي ويدخله من عادات شأن المثال الانساني وبسبب الانسجام البيئي الذي كان بالنتيجة لمصلحة الطبقة المحظية الممثلة بالاغريق : كان التطور في كل هذا مماثلاً لذلك الذي حدث في المدن المصرية الثلاث . ولكن الاستغراق القانوني ، خلافاً لما جرى في هذه المدن ، قد تم ، في ما يظهر ، دونما صعوبة ، بعد جيل أو جيلين .

تكوّنت اذن في المدن طبقة من البلديين المستغرقين الذين رفعوا رويداً رويداً الى مرتبة المواطنين أي أصبحوا رسمياً من الاغريق . وقد استازم ذلك من جهتهم حل امم يوناني ، على اننا نرى ، في هذا المجال ، كيفيات كثيرة كان من شأنها تخفيف أثر الانتقال . فلدينا أمثلة عن أشخاص عرفوا بإسمين واحد يوناني وآخر سامي . ولدينا كذلك أمثلة كثيرة عن أسماء يونانية مركبة يدخل فيها اسم أحد الآلهة ، وهي طريقة تسمية قلماً لجأ اليها الاغريق وكثيراً ما اعتمدتها الشرقيون فيما سبق : وليست هذه الأسماء في الغالب سوى أسماء سامية محوَّرة بعهد تمثيل إله شرقي بإله يوناني . واستازم الاستغراق أيضاً اعتماد الزى اليوناني والأخلاق اليونانية واللغة اليونانية : ونمى ذلك على كثير أو قليل من التمكن وخصوص النية أو من الشمول لأمر النساء لم يتأثرن كثيراً بالنزعة اليونانية لهن لا يخرجن كثيراً ويحافظن على التقاليد القديمة .

بيد ان الاستغراق ، عملياً ، كان شاملاً في أكثر من حالة لاسيما بين الطبقات الميسورة التي كان لأبنائها متسع من الوقت للتردد على المدارس والأندية الرياضية . فتكوّنت بورجوازية من أصل محلي لم يكن لها وجود من قبل في القسم الأكبر من الشرق حيث كادت الحياة المدنية تقتصر على فينيقية وبلاد بابل ، وكان تكوُّنها أسهل وأوسع منه في مصر . وقد توصلت الى الانصهار في البورجوازية اليونانية الأصل التي كانت مثلاً لغيرها واستطاعت بنعل تنظيمها ان تحافظ على حضارتها . وهذا ما يفسّر ميزة التطور الاجتماعي في المملكة السلوقية : فان هذه المملكة قد اتسمت بالحضارة اليونانية بنسبة تحضّرها أي بنسبة انتسابها الى البورجوازية بنوع خاص .

اختلفت النتائج العملية اذن وفاقاً للمناطق أي وفاقاً لكثافة الاغريق والمدن . وحسب النتائج جدية بالاعتبار في غربي المملكة . فقد بلغ من تأثر مناسطى واسعة في آسيا الصغرى بالحضارة اليونانية ان شعوبها التي اعتبرت « برابرة » في السابق لم تتميز عملياً عن الاغريق بسىء : كالكاريين والليديين بأجمعهم ، والفريجيين والكيليكين بأكثرهم . أجل ان هذا التطور الذي بدأ من قبل لم يبلغ الكمال الا في عهد السيطرة الرومانية . ولكن العهد السلوقي أدخل المريد من السرعة على حركته . ويصح القول نفسه عن الساحلين السوري والفينيقي وعن جزيرة قبرص . أما في شمالي سوريا فقد توطدت الحضارة اليونانية في المدن فقط ، اذ أن ظهور اللغات

المحلية فيما بعد، بفعل اندفاع الديانة المسيحية، يدل على أن الأرياف لم تتأثر كثيراً بهذه الحضارة؛ ولكن الريفيين قد حُرِّموا بسبب ذلك من نخبة اجتماعية كان باستطاعتها، لو وجدت، أن تنظم مقاومة حضارتهم التي كتب لها بالتالي جود قائم.

أما في المناطق الأخرى فكان الإغريق والمدن أقل عدداً وعلى شيء من التشتت والانعزال. ففي بلاد ما بين النهرين الوسطى والسفلى لم يمثلوا سوى جزر صغيرة في محيط المساحات الشاسعة المتروكة لجاهل البلديين. أضف إلى ذلك أن روما لم تستطع مواصلة عمل السلوقيين فيها لأن قسماً كبيراً من إرثهم، حين استلمته، كان قد انتقل إلى الفارثيين الإرساسيين الذين استقروا في بابل منذ السنة ١٢٩ قبل المسيح والذين اضطرت أكثر من مرة لأن تدافع بصعوبة كلية عن حدود الفرات ضد هجماتهم. فالحضارة اليونانية إذن لم تشع عملياً سوى في مدن نادرة لم يتوفر الوقت والطاقة البشرية للاكتثار منها في ما دعي بحق « الشرق الأقصى السلوقي ».

وتجدر الإشارة مع ذلك، أقله في بعض المدن، إلى مقاومة الإغريق المدهشة والنسافذة لاستشراق كان من الطبيعي أن لا يقف عددهم الضئيل في وجه نجاحه السريع. وإن البورجوارية اليونانية، تساندها البورجوازية المستغرقة على الأرجح، قد دافعت طويلاً عن حضارتها وأبقت عليها على الرغم من تفوق عددي ساحق تمتع به السكان الريفيون الذين حافظوا على قسم كبير من أنظمتهم الاجتماعية التقليدية والذين أعادت لهم انتصارات الفارثيين أنظمة غير يونانية. أجل ساندت روما بعض الوقت الحضارة اليونانية في مدينة صغيرة كـ « دورا أوروبوس » على الفرات الأوسط التي كانت إحدى حصون حدودها. ولكن بعض الكتابات المكتشفة في بابل وسوزة القديمة التي أصبحت « ملوقية - على - الأفلايوس » تكشف عن استمرار اللغة والتنظيم والأخلاق اليونانية زمناً طويلاً بعد أن حلت السيطرة الفارثية محل السيطرة السلوقية. أضف إلى ذلك أن هؤلاء الملوك الجدد قد أطلقوا على أنفسهم اسم « أصدقاء الحضارة اليونانية »؛ وفي السنة ٥٣ قبل المسيح أرسل البريد الذي اشتمل، فيما اشتمل، على رأس كراسوس الروماني، إلى « ملك الملوك » في أرمينيا حيث كان ممثلون يونانيون يمثلون باللغة اليونانية، أمامه وأمام بطانته، لمناسبة عيد سلافي، رواية كاهنات باخوس لأوريبيد: فيفرض هذا السلوك المستهجن، يسلمك أولئك الذين كانت انتصاراتهم بمثابة عودة هجومية لحضارة إيرانية هزمها الإسكندر، بقاء عناصر يونانية في المدن تتمتع بنفوذ كاف للتأثير على الملوك وربما بقدر من القوة الفعلية يبد ومن المفيد معه مراعاة جانبهم. وماذا نقول عن بلاد البختيار النائية التي حال الاحتلال الفارثي دون كل اتصال مباشر بينها وبين باقي العالم اليوناني والتي بقيت مع ذلك، حتى بعد العهد الميلادي، مركز إشعاع لحضارة يونانية نهضت بحيوية كافية لأن تبسط نفوذها حتى على المناطق الشمالية الغربية من العالم الهندي؟ وهكذا فإن المدن اليونانية، حتى حيث حالت ضالة كشافتها دون استمالة البلديين الكثيرين إليها، قد دامت مع ذلك في أكثر الظروف مناقضة للنطق. فليس من

دليل أفضل على حيوية مشاتل رخصة وزعها الملوك طيلة قرنين كاملين بسخاء وجراً نادرة على هذه الاراضي البعيدة : فماذا عسى النتائج ان تكون لو ان هذه المشاتل حصرت في مكان واحد واقتصرت على غربي الفرات مثلاً .

البلديون خارج المدن  
اذا كان تأسيس المدن اليونانية عمل السلوقيين الرئيسي ، فانهم مع ذلك لم يكتفوا به لأنهم قد حاولوا ، في ما يظهر ، التأثير ، خارج المدن ، أقله على بعض طبقات المجتمع البلدي .

انطوى هذا المجتمع على مظاهر مختلفة جداً بسبب تنوع الشعوب التي تألف منها . بيد ان نظامه ، على العموم ، كان يخلو من كل شيء ديموقراطي : فقد أخضع ، في كل مكان تقريباً ، جماهير غفيرة محرومة من اليسار المادي ، وحتى من الحريات القانونية غالباً ، الى سيطرة نخبة محظية . أما فضل هذه النخبة على من سواها فقد يكون النسب ، اذ قد قامت امارات وارستوقراطيات وراثية . وقد يكون المراتب الدينية ، اذ قد قامت ثيوقراطيات أفستت الوراثة منها المبدأ على كل حال . ولكن فضلاً آخر أكثر ظهوراً خارجياً ، بسيطاً وحتى بدائياً ، هو الثروة ، قد رافق في كل مكان الحالة الاولى او الحالة الثانية . فالملكية اليونانية وجدت اذن أمامها في آسيا مجتمعاً بلدياً أكثر تفاوتاً منه في مصر حيث كان مستوى حياة كافة السكان وبقي متدنياً جداً ، باستثناء الكهنوت الذي وجه اللاجئين لامتيازاته ضربات قاسية بغية اخضاعه للقانون العام . وفر هذا الوضع للسلوقيين امكانات مناورة واختيار : ولكنهم منذ البداية لم يعيروا اهتمامهم ، عن قصد ، سوى الطبقات الاجتماعية العليا .

كان باستطاعتهم محاولة مزج رعاياهم واعتماد نوع من الاستعمار الداخلي مثلاً للتوفيق بين السكان والموارد المحلية ، ولكنهم لم يفعلوا . أما الحالات الوحيدة التي نعرفها عن « مستعمرين » ببلدين فمردها الى أسباب أخرى ، عسكرية قبل كل شيء . وهكذا فان انطيوخوس الثالث ، اذا ما اعتمدنا على ما أورده مؤرخ يهودي ، قد أصدر أمراً ، في السنة ٢١٠ ، في أعقاب الاضطرابات التي حدثت في ليديا وفريجيا ، بأن ينقل اليها ٢٠٠٠ عائلة يهودية من بلاد بابل ليكون أفرادها رعايا أكثر اخلاصاً ومحمولون السلاح عند الحاجة للدفاع عن وحدة المملكة . وكذلك أنشأ السلوقيون « مراكز » في غربي آسيا الصغرى ، حاذين بذلك حذو الملوك الفرس الذين سبق لهم وأقاموا هناك بعض الايرانيين . ولكن كلمة « مراكز » كلمة غامضة قد تعني وقائع مختلفة جداً : قد تكون مستعمرات عسكرية كما قد تكون قرى تقام فيها بعض العائلات وتخضع بالتالي لاحصاء سنوي يتناول الشبان البالغين سن الخدمة العسكرية . ومهما يكن من الامر فان المستفيدين من هذه المراكز قد ألفوا جماعات بشرية متراصة في حال أن اللاجئين قد وزعوا جنودهم المزارعين وفاقاً لشغور الاقطاعات الفردية . وهكذا فالتنازع بين جماعات من الفرس والكردوك الآتين من أعالي دجلة ، والغلاطيين والميسيين ، دون ان يتيسر لنا التمييز بين

ما حققه الاخيمينيون والسلوقيون والاطاليون في ذلك . ونعرف بنوع خاص « مراكز » للمقدونيين لأن الطريقة قد اعتمدت هؤلاء أيضاً ، مما أفضى بعد ذلك أحياناً ، الى ولادة مدن تباهت بأنها استطاعت ، حتى في عهد الامبراطورية الرومانية ، ان ترسم على نقودها خوذة رفاق الاسكندر . ولكن هذا الاستعمار الريفي كان استجابة لمشاغل عسكرية : فهو قد استهدف اما ان يوطن في أرض المملكة الجنود الذين تخشى هجرتهم واما ان تسهل تعبئة الجيش وإما ان يحفظ الأمن في المناطق المضطربة أو الحدود . ولم يفكر السلوقيون في عملهم هذا بتحسين حال المحرومين من رعاياهم ولا بتخفيف ما يقوم بينهم من فوارق عنصرية .

لا ريب في ان توحيد اللغة قد استمر في ظل سيطرتهم . أجل ان الآرامية قد استمرت في الانتشار ، شأنها في عهد الفرس ، في مناطق واسعة من المملكة لم تقتصر فيها الحضارة اليونانية : فقد حلت أخيراً محل اللغة العبرانية في فلسطين . ولكن الادارة الملكية بقيت اذ ذاك بعيدة عن هذا التطور : فهي لم تعرف ولم تستعمل سوى اليونانية التي لم تتوطد الا في المدن الكثيرة السكان .

ان الوحدة التي كان السلوقيون يرغبون في تحقيقها هي الوحدة في الحضارة اليونانية ، وهي الوحيدة التي كان من شأنها تطوير السكان والبلاد تطويراً حقيقياً . ويمكن ان نقدر دليلاً على ذلك انهم قد سعوا مباشرة ، أقله هنا وهناك ، الى طبع البلديين بالحضارة اليونانية دون ان يستعينوا بالمدن . ولكن نشاطهم لم يتناول في هذه الحال سوى أعضاء الطبقات الحاكمة . فان نصاً مسبارياً يعود الى السنة ٢٤٣ قبل المسيح يضيف الايضاح التالي الى اسم « أنو — اوباليت » ، « ذي المركز الثاني » ، في مدينة أوروك من أعمال بلاد بابل السفلى : « الذي أعطاه انطيوخوس ، ملك البلدان ، اسماً آخر هو نيكارخوس » . وبعد ذلك باثنتي وأربعين سنة ، اطلق على شخص يحمل هذا الاسم ، قد يكون من أحفاده ، ويحمل اسم سيفالون اليوناني أيضاً ، لقب « زعيم أوروك » . وهكذا أيضاً فان انطيوخوس الثالث يعهد بقيادات عسكرية رفيعة الى بعض البلديين كان أحدهم ميتريدات ابن شقيقته . وحين أصبحت فلسطين في أوائل القرن الثاني مملكة سلوقية انصبت الانعامات الملكية على أعضاء الارستوقراطية اليهودية الذين عرفوا ان يبرهنوا انهم يقدرون تفوق الحضارة التي يمارسها الملك . فقد كان هنالك اذن ضغط على النخبة الاجتماعية التي هي أسهل منالاً وأشد تأثراً باغراء ما تستطيع حكومة ملكية ان تغدقه على رعاياها الخالصين ؛ ويغلب ان هذا الضغط قد اختلف باختلاف المناطق .

اعوز السلوقيين في الواقع ، للتأثير على الجماهير الشعبية ، جرأة لم يقدموا عليها . فهم لم يحوروا نظام أولئك الذين اطلق عليهم الاغريق اسم « الشعوب » ، لاسيما شعوب الريفيين ، المنحطين ، الذين يقابلهم الجنود . فقد استمرت العبودية والفدائية والتبعية التي تنظمها الاعراف دون أي تغيير . واحتفظت مصانع المعابد بعمالها كما احتفظت الأملاك الريفية بفلاحها المرتبطين

وراثياً بالأرض . واحتفظ كذلك الحكام القدماء بمراكزهم على الرغم من توصل بعض الاغريق الدخلاء الطموحين الى احتلال مكان لهم بين المحظيين . ولم يضع الملوك في أي مكان نصب أعينهم تحرير العبيد الذي كان مع ذلك شرطاً أولاً لاستمالتهم الى الحضارة اليونانية .

من الجلي انه كان أسهل على الملوك ان يبقوا على الأنظمة الاجتماعية القائمة ويحصرها بمجهودهم في احتلال النخبة احتلالاً أدبياً . فان فكرة انقلاب شامل ، أو مجرد اصلاحات تدريجية ، لم تراود قط أفراد اسرتين شريفتين احدهن مقدونية والأخرى ايرانية . ولو راودتهم لكأن الواجب قضى عليهم باهمالها لأن الأنظمة الادارية كانت أوهى ، بسبب بدائيتها ، من أن تقوم مقام الأنظمة الاجتماعية التي يجب القضاء عليها ، ولأن الملكية ، المهددة أبداً بخطر أعدائها الخارجيين ، كانت عاجزة عن الاقدام على عمل داخلي هام .

فهل نجحت هذه السياسة الاجتماعية ، الحرية بأن تنعت بالتحرز لو كان باستطاعتنا النتائج التفاوضي عن تأسيس المدن اليونانية ، في توفير الهدوء الذي صبا اليه الملوك السلوقيون على الأقل ؟ علينا هنا ان نعطي بعض الايضاحات .

لم يحدث ، على ما نعلم ، ثورات حتى ولا اضطرابات بسبب البؤس ، على نقيض مصر والمملكة البطالية بنوع خاص حيث عقت موت آخر ملوكها ، في السنة ١٣٣ ، اضطرابات ذات طابع اجتماعي ، جزئياً على الأقل ، اذ أن عبيداً ثائرين قد لعبوا فيها دوراً كبيراً جداً . واذا لم يحدث ذلك عند السلوقيين فلأسباب بسيطة . فقد سهل عليهم أكثر من الملوك الآخرين ، كما رأينا ، ان لا يتثقلوا كاهل رعاياهم بالضرائب . ثم ان ابقاءهم على النظام الاجتماعي التقليدي قد تلافى خطر الثورات : اذ جاء تواطؤ الأسياد الأجانب مع الطبقات المسيطرة يوفر السلامة لهؤلاء واولئك .

ولا يعني هذا ان الملكية السلوقية لم تعرف الصعوبات الداخلية الناشئة عن البليدين . ولكن هذه الصعوبات تبدو لنا ، بنوع خاص ، وكأنها ردت فعل ضد محاولات النيل من ديانة بعض الشعوب . وليس ما يوازي ، في هذا المجال ، من حيث الشهرة — وهي على كل حال شهرة تبالغ في أهمية الاحداث الحقيقية اذا ما قسنا هذه الاحداث بمقياس المملكة الكبرى — ثورة اليهود التي تعظمها كتب المكابيين كملحمة وطنية . ومن الخطأ ان نتوقف عندها هنا لأننا لا نجد في هذه الثورة مكاناً محترماً لأسباب اجتماعية حقيقية . فهي لا تثبت بأسبابها وتطورها سوى الحقيقة التالية : ان استمالة شطر كبير من الارستوقراطية الحاكمة لم تجد حياًل شعبي يتميز بمثل هذه الفردية الفظة وتحتلظ عنده الفكرة الدينية والفكرة القومية وتؤلف حضارته التقليدية جزءاً لا يتجزأ من النظام الذي أراده الإله . لذلك فان مثل اليهود كان استثنائياً بفعل وثوق هذا الاتصال ، كما كانت استثنائية أيضاً الاخطاء الخرقاء التي ارتكبها ضدهم بعض الملوك السلوقيين في القرن الثاني . ولكن كيف يمكن ، آنذاك وفي المشرق ، الفصل بصورة مطلقة

بين الديانة والحضارة ؟ فتورة المكابيين تثبت اذن أنه استحال على الملوك اليونانيين اعطاء سيطرتهم اسماً واسعاً ، لا بل اسماً متيناً فقط ، باكتفائهم بأخذ النخبة الاجتماعية ، أخذاً يشكّ باخلاصه ، بالحضارة اليونانية . وقد اتضح ذلك في سوريا الشمالية نفسها حيث أتاح عدد المدن اليونانية استمالة هذه النخبة بكليتها : فالمقاومة قد انفجرت ، عاجلاً أم آجلاً ، من الجماهير الشعبية المهمة الحام .

فلا يجب بالتالي ان يخدعنا نجاح المقاومة في فلسطين . وليس الفضل فيه لعزم الثائرين وحده ، وهو عزم يثير الاعجاب على كل حال . فقد تلقى الثائرون عوياً غير مباشر من الخلاقات العائلية التي مزقت ألسلة في انحطاطها ومن تدخل الاحني أيضاً ، فقد ساعدتهم روما في الدرجة الاولى ، وهي التي عطفت على كل ما من شأنه ان يزيد ضعف الملكية . وساعدهم الفارتيون خصوصاً الدين انطلق هجومهم من حدود ايران الجنوبية وأفضى بهم الى احتلال بلاد بابل نهائياً . وخلافاً لما حصل في المملكة اللاجية ، فان المملكة السلوقية قد انهارت لأسباب خارجية أكثر منها داخلية .

غير ان الشيء الاكيد هو ان الفارتيين قد استفادوا من الوضع الاجتماعي القائم في الشرق الاقصى السلوقي . فاداً لم يثر البلديون قط على الضغط الاداري ، كما حدث في مصر ، فانهم ، على الاقل ، قد استقبلوا يجمود عدوّ أسيادهم اليونانيين الذين لم يهتموا بعض الاهتمام إلا للطبقات الحاكمة . ولكن هذه الطبقات ، باستثناء بعض الحالات الفردية المقتصرة عملياً على العناصر المقيمة في المدن ، لم تتبنّ سوى حضارة يونانية للمجاملة ، أي ظاهرية فقط . ومن حيث هي بقيت سليمة واحتفظت بسلطتها ، فقد سبّبت دونما صعوبة ، بانتقالها الى الاعداء ، انتقال المجتمع البلدي كله اليهم ؛ ففي نجد ايران بنوع خاص أعلن الفارتيون عن أنفسهم جنوداً للعنصرية الايرانية وخلفاء للاخمينيين .

يتضح بعد كل حساب ان سياسة السلوقيين الاجتماعية قد أفضت بهم الى خيبات أمل خطيرة كما جرى للبطالسة في مصر . فهم شأن البطالسة لم يهتموا قط لرفع مستوى حياة عامة الشعب . وعلى غرارهم أيضاً - وكان الامران مرتبطين على كل حال - لم يفكروا بان يوقظوا ، عند هذه العامة ، الفردية التي تحرر الشخص البشري ، وهي مفهوم أساسي في الحضارة اليونانية . أجل ، بينما أخضع البطالسة رعاياهم للرقابة الشديدة ولاشراف ادارتهم المطلق ، اقتصر السلوقيون على إبقائهم خاضعين للارستوقراطيات الكهنوتية أو العلمانية ، ولكن الخضوع منها كان من اختلاف أشكاله واختلاف المستفيدين منه ، قد أفضى في النهاية الى نتائج مماثلة . وقد سبق لنا ورأينا ان الازدهار الاقتصادي في العالم الهليني قد تضرر بفعل ذلك ، لا سيما ازدهار اليونان القديمة الذي قوّضته منافسة الشرق وحرمة من سوق استهلاك كبير لصناعاتها ، أعني بها هذه البلدان الجديدة . ولكن الملوك اليونانيين ، بالاضافة الى ذلك ، في مصر كما في آسيا ، باستثناء المنطقة المتوسطة في هذه القارة ، لم يحاولوا بفعل محافظتهم وأنانيتهم وعدم ادراكهم ، ان يستميلوا اليهم أدبياً الطبقات الوضيعة بين السكان البلديين ، فدفعوا ثمن هذا الامهال غالباً لأنهم لم يستطيعوا يوماً إزالة عدااء الخاضعين لهم الذين قامت قوتهم على اخلاصهم ونشاطهم .

## المعتقدات والأذواق والأفكار

إذا ما بقي اتساع وفاعلية الاختبار الهليني ، في الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، دون الامكانيات التي بشر بها عمل الاسكندر المحدود ، فالأمر على خلاف ذلك حيال المظاهر الأدبية في الحضارة . وانه لمن الصعب علينا ان نحيط علماً بكافة التجديدات الثورية المدعوة لمستقبل باهر التي جاء بها هذا العهد المضطرب في حقول الديانة والفن والفكر . فهو قد كيّف ، لقرون طويلة ، روح وفكر البشر وفاقاً لمثل جديدة ، بينما سعت الحضارة الكلاسيكية جاهدة الى اخضاعها لأولوية عقل مجرد ، متوقفة في ذلك الى ما هو جوهري . وقد شق بصورة نهائية طرقاً لم تكّد تُعرف من قبل .

من الطبيعي ان هذه الوثبة قد ارتبطت بالنظام المادي الجديد الذي الحضارة اليونانية والملكية فرضته على العالم اليوناني الظروف والتطور التاريخي .

بقي المثل الأعلى ، في تحديده الجوهري ، مماثلاً لمثل العهد السابق : فالهدف هو أبداً تشجيع تفتح الفرد وتحقيق أفضل الامكانيات المدين بها لطبيعته البشرية خير تحقيق وأكمله . ولكن هذا المثل الانساني الذي يشرف تصميمه ومواصلة تحقيقه ما ينطوي عليه التاريخ اليوناني من ركافة واخفاق ، قد تجمل اذ ذاك ونما . كانت حضارة البولس ، بتوجيهها إياه وفاقاً لحاجاتها الخاصة وبحصره في إطار ضيق ، قد وضعت له حدوداً هي حدود الشرائع المبنية على العقل وعلى مصلحة المجموع الحقيقية ؛ فكان من المحتم ، في العالم الهليني الذي وسّعه فتح الشرق توسيعاً مفرطاً ، أن تمدّد هذه الحدود وأن تترأخى الاقتسارات ؛ فالرقابة والادارة ، اللتان تؤمنها سلطة أكثر بعداً ، أقل ثقلاً على الفرد . وليست الانطلاقة بعد اليوم للامكانيات التي تتفق مع العقل ، أي الامكانيات الجسدية والفكرية فحسب ، بل أيضاً للامكانيات التأثرية والعامدة القياس .

بهذا أيضاً طبعت الملكية بطابعها ، الى حد بعيد ، حضارة الأزمنة الجديدة . وان المشالية التي بنيت عليها قد أسهمت في تطوير النزعة الانسانية القديمة بتوسيعها . فقد أحاطت الملك بهالة ،

لا بل بالكليل من نور ، يخضع فيه العقل للصوفية ، والبرهان للثقة بقوى فائقة الطبيعة . وقد بدا الملك ، بفضل هذه المثالية ، كمثل يقتدى به وكنموذج للانسان المتجمل بالحسن والمواهب بما فيها نعمة الإله الذي يمنحه حرية ووسائل عمل تتيح لشخصيته أن تتفح في كمالها .

أجل ليس باستطاعة الجميع بلوغ الدرجة القصوى من درجات الملكية بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى . ولكن خبرة نصف القرن الذي عقب وفاة الاسكندر تبين ان بلوغها ليس وقفاً على أبناء الملوك ، والتوق الى مثل أعلى لا يستلزم الأمل الوطيد في تحقيقه . ولا ريب أيضاً في أن وجود ملكيات على قليل أو كثير من التنظيم يهدد بالحد من حرية الفرد . ولكن هذا الخطر لا يطال سوى الحرية السياسية . وإذا ما نظرنا الى النزعات الشاملة في البواس الصغيرة ، التي تبرز في شرائعها ، والتي غالباً ما يكفي ضغط الرأي العام لتقريرها ، اذا لم تقررها المحاكم ، يصبح من الصعب ان لا نعتقد بواقع تحرير في نطاقات أخرى ذات ارتباطات لا تحصى ، أولها النطاق الديني . فالتساهل يغدو أمراً واجباً على ملوك مدينين للفتح ، بالتجديد وفي أكثر الأحيان ، بممارسة الملك على رعايا غرباء يمارسون شتى العبادات . أضف الى ذلك ان الاعتراف بتفوق يبرره كل شيء ليس مرادفاً للاستخراء : فلماذا لا يحذر بالانسان الحر ان يعجب ويحب ويبذل نفسه يا ترى ؟ ومن ثم فان الواقع الملكي يقود الى مفهوم نزعة انسانية أعظم اتساعاً وتنوعاً من النزعة القديمة ومثل أعلى يهز أوتاراً أكثر عدداً فيوقظ اصداً أطول مدى ، لأنه لا يخنق ، باسم عقل متفوق ، بعض النزعات العميقة في الطبيعة البشرية .

ثم ان الملوك قد ناصروا الآداب مناصرة محسوسة جداً بغية احاطة بلاطهم وملكهم بمجد يشعرون أنه أعظم ديمومة ونبلاً من المجد العسكري أو السياسي . وقد حرصوا ، حيال الحضارة التي تباها في الدفاع عنها ضد البرابرة ، لا على تأمين انتشارها فحسب ، بل على التوسع فيها أيضاً . وقد اهتموا ، بفعل ثقافتهم الشخصية وذوقهم المرفه أحياناً ، بالبحث هذه الحضارة ونجاحاتها ، وكرموا الذين حققوها وساعدوهم مادياً ، مرتاحين ارتياحاً تاماً في اجتذابهم اليهم ومعاشرتهم . فواصلوا بذلك تقليد الاستبداد اليوناني وتقليد الملكية المقدونية القديمة التي سبق لها واستقبلت اوريبيد في شيخوخته وغمرته بمظاهر الحفاوة والتكريم ؛ كما ساروا على مثل أقرب عهداً هو مثل الاسكندر الذي أحضر معه أو استحضر الى آسيا كتاباً وفلاسفة وفنانيين وعلماء . وليس من اغريقي حقيقي أبعد النزعة الانسانية عن مشاغله : فأسهم هؤلاء الاغريق عن قصد في اعطاء هذه النزعة مزيداً من الفتنة ووسائل العمل وقوة الجاذب . فمن هذه الزاوية أيضاً تبدو الحضارة الهلينية كحضارة ملكية .

لم تتوفر هذه الرعاية دون مقابل ؛ ولكن أنظمة أخرى كثيرة قد تحملت مقابلاً أشد ارهاقاً . ففي هذا النظام نال الهجاءون — وهم قليلاو العدد على ما نعلم — عقوبة قحتهم ؛ وكان هنالك فنانون وشعراء بلاط ائقنوا فن التملق . ولكننا لا نرى تنسيقاً علمياً يجب التساؤل ،

في حال وجوده ، عما اذا كان مفروضاً أم تلقائياً ؛ كما لا نرى كلاً عقائدياً يدخل فيه كل مظهر من حركات النفس والفكر في تلاحم مجموع واحد . فالفصاحة هي في التنوع الحر للاضطرابات والمحاولات الشخصية ، ولم تعرف النزعة الانسانية انطلاقتها العجيبة الا لأن نشاط الملوك لم يتعرض للشرط الأول للنزعة الانسانية .

وهناك ارتباط آخر بالظروف الزمنية يترأى في التوزيع الجغرافي لمراكز لامركزية ورحدة اشعاع الحضارة الجديدة .

كان للحضارة الكلاسيكية مركز رئيسي هو أثينا . واحتفظت هذه المدينة ببعض سناها الغابر : وقد حرصت كل السلالات ، في فترة أو أخرى من تاريخها ، على اظهار « عطفها » نحوها ونحو ما تمثله . لم تعد تخلق الا نادراً ؛ ولم تعد الانطلاقة الخلاقة تصدر عنها . فمعظم نفوذها يأتيها من ماضيها ومن استثمار هذا الماضي على يد رجال مهرة نشيطين . فأخذت في احتلال المركز الذي ستحافظ عليه حتى آخر العصور القديمة ، أي انها غدت مدينة يأتي اليها أبناء العائلات الميسورة لاكمال دروسهم في البيان والفلسفة والهواة الأثرياء لاختيار النسخ عن الروائع الفنية المشهورة في مصانع الفنانين أو المصنوعات التي يكرسها مصدرها . وقد نعتها أحد المسافرين في القرن الثالث نعتاً ساخراً بقوله عنها أنها « مدرسة لرجال المرمز » : أي ان الحياة الجريئة قد هجرتها .

أما في العالم الجديد فقد لمعت إحدى المدن لمعناً خاصاً نعتي بها الاسكندرية . وقد بلغ من لمعانها هذا ان التعبير التاريخي السائر ، « الحضارة الاسكندرية » ، أصبح مرادفاً لـ « الحضارة الهلينية » . فغظمة المدينة المادية وسحر دورها وازدهارها الاقتصادي وثروة ملوكها العجيبة النادرة وتفخّل بلاطها المرفه ودارا كتبها وآثارها ، كل ذلك أعطاها نفوذاً واشعاعاً لم يضاهيها نفوذ واشعاع آنذاك . ولكن مهما يكن من أهمية أثرها فانه أقل توجيهاً شاملاً من أثر أثينا في العهد السابق .

وكانت هنالك عواصم وبلاطات أخرى . وبذلت سلالات أخرى جهوداً مماثلة لم تبق نجاحاتها ، في هذه الحقول أيضاً ، نجاحات يستهان بها . فاسم برغاموس بنوع خاص قد لفت الأنظار منذ أعمال التنقيب الألمانية في أواخر القرن التاسع عشر . وكذلك فان انطاكية في سوريا ، وحتى بيلّا في مقدونيا التي كان ديموستينس الأخير في وصف سكانها وملوكها بالبرابرة ، قد تحتلان المركز نفسه ، اذا ما أسفرت أعمال التنقيب فيها عن مكتشفات على أهمية مكتشفات برغاموس ومكنت من وضع بيان كامل بتحقيقاتها .

ويجب خصوصاً ألا نفكر بمراكز اقامة الملوك دون غيرها . فهناك ، الى جانبها ، المدن الكثيرة الآهلة والمنتعشة بتلك البورجوارية التي يؤلف انتشارها أحد الأحداث الاجتماعية الرئيسية في العهد الهليني وتجديداً لم يبق دون نتائج ثقافية . وكان لهذه المدن ، على العموم ،

صفات مميزة ، وقد توصلت ، بفضل جهود أقل تشتتاً ، الى الاحتفاظ باستقلالها في بعض الحقول الاختصاصية . أما أعظمها شهرة وازدهاراً ولمعناً فمدينة رودس التي بدأت منافستها لأثينا ، منذ القرن الرابع ، في حقل مدارس البيان ، وشملت في النهاية حتى حقول النشاط الفني . ولكن كل مدينة ، في الواقع ، في العالمين اليونانيين القديم والجديد على السواء ، تعتز كبرياء وتنشئ المزيد من المعابد والأبنية والمدارس . فابتعدت الحصار اليونانية عن مركزها في منافسة ليس حب التظاهر فيها ، في حال وجوده ، الباعث الوحيد ، ولا الباعث الرئيسي . وكان الحصار اليونانية تستهدف ، من وراء ذلك ، توزيع ثرواتها توزيعاً أفضل على الأراضي الشاسعة التي انشرت فيها خلاياها الحضرية .

ما يثير الإعجاب ان هذا التنافس لم يقوِّض وحدة الحضارة الهلينية . فهي من أقصى النطاق الجغرافي الذي انشرت فيه الى أقصاه ، تنطوي على مميزات عامة بمثابة ترتدي مظاهر خاصة ليس وجودها نفسه قاعدة مطردة . فكما أن الاعريقي يستطيع السفر وتعاطي التجارة في كل مكان ، كذلك فانه يشعر وكأنه في بلاده عندما يلتقي اغريقاً آخرين . وقد انتهى التطور ، الذي استهدف في القرون السابقة إدارة الفوارق الإقليمية في وحدة ثقافية ، الى نجاح يكاد يكون كاملاً . إذ ذاك ، وإذ ذاك فقط ، توحدت القومية اليونانية على أسس أدبية واسعة جداً . أجل لم يكن لهذه القومية وجود سياسي ، شأنها في الماضي على كل حال . ولكنه أصبح من واحمها أن تتكون ثقافياً بسبب التمازج بين الاغريق في الأراضي التي هاجروا اليها وبسبب التصاميم الذي أوجده بينهم اختلاطهم اليومي مع ممثلي الحضارات الأخرى ، فإذا كانت الحصار اليونانية عادة أكبر مشتركاً لرجال يأتون من مناطق نائية جداً ، فإلى بالإضافة الى ذلك المقياس الوحيد الذي يميزهم عن أولئك الذين ينظرون اليهم كمرؤوسين . فهم يتقاربون حتى تبرر المصادمة بينهم جيداً ، إذ أن هذه الثقافة المشتركة ، في نظرهم ، تدور امتيازاتهم .

ببداهة من الخطأ الاعتقاد بأن هذه الثقافة المشتركة ، التي يفسر ظهورها تضامنها واعتزازهم ، لا تقتل سوى مثالة الحضارة الكلاسيكية التي ورثتها ، بعد إدارة الميراث الإقليمية . فهي لم تستلم كل شيء من هذا الارت ؛ وقد تحملت ، راضية ، تصحيات لم تقتصر على الفوارق فقط . ومقابل ذلك ، فإنها قد اغتنت بالامتدادات أو الاكتشافات بفصل جسارات أتاحها لها توسع إطارها المديني وإردياد مواردها المادية . أضف الى ذلك ان الحضارة ، أية حضارة ، لا تحيا بلا ضرر في التعايش مع غيرها : فالحضارات التي تنتسب اليها النساء والحسد والشعب تسرب ، أقله بواسطة الولد ، الى الحضارة التي ينتسب اليها السيد . ثم ان تصدع وتشنت النخب القديمة المحصورة وضرورة ارضاء رغبات بورجوازية تكاثرت تكاثراً عظيماً تبرز كعوامل تجديد أيضاً . أجل قد يكون المستوى الفكري الوسط تضرر هنا أو هناك هذه الظروف العامة . ولكن قيماً عاطفية مهمة حتى ذاك التاريخ قد وجدت لها مكاناً أوسع في برعة انسابية أكثر انطباقاً على تركيب الانسان .

## ١ - الديانة

المعابد المحلية لم تجرّ السيطرة اليونانية نتائج خطيرة على العبادات التي كان يمارسها البلديون الشرقيون ، إذ أن هذه العبادات قد حافظت ، على العموم ، على ميزتها الخاصة وحيويتها .

ففي مصر بقي كل شيء دون تغيير ظاهر . الملك يراقب الكهنوت عن كثب تلافياً لمقاومته الممكنة التي يخشى أثرها على السكان . ويكلف موظفيه مراقبة ادارة ممتلكات المعابد ، لا ليحد من ثروتها فحسب ، بل ليجعلها مرتبطة به وليدخل « الأرض المقدسة » نفسها ، أي أملاك الآلهة العقارية ، في النظام الاقتصادي الموجه الذي أخضع له كل وادي النيل . ومنذ أواخر القرن الثالث على كل حال ، حين بدأ البلديون يثيرون الصعوبات الخطيرة ، ارتخت هذه الرقابة ، فحصلت الطبقة الكهنوتية ، التي أمسى عطفها أكثر ضرورة ، على حصانات وامتيازات واعطيات جديدة شتى . ومارس البطالسة ، من حيث هم فراعنة ، حقوقهم كآلهة وكوسطاء بين مصر وآلهتها . ولكنهم لم يهملوا واجباً واحداً من واجباتهم . فرّمت المعابد القديمة وشيدت المعابد الجديدة ونقرت في الجدران النقوش البارزة والكتابات الهيروغليفية التقليدية ، وتؤلف كتابات معبد هوروس في ادنو التي تعود الى هذا التاريخ أحد مصادرها الرئيسية حول ما كانت عليه الطقوس المصرية منذ أقدم العهود . ومن ثم فقد تأمن الاستمرار الديني ، أو بالأحرى أعيد الى حاله ، لأن إعادة ضم مصر الى الامبراطورية الفارسية ، قبيل فتح الاسكندر ، قد رافقتها أعمال عنف واكراه حتى حيال الآلهة . فقد خلف الاسكندر سيّداً بغيضاً ، ثم جاء الأباطرة الرومان وذهبوا هذه السياسة . فشعر الفلاحون شعوراً ينطبق على الواقع ان ديانتهم القومية ، المحددة ، تواصل حياتها الدائمة .

أما معلوماتنا عن آسيا ، حيث جاءت النجاحات التي أحرزتها الحضارة اليونانية في بعض المناطق بفوارق دقيقة ، فنادرة جداً اذا ما قيست بمعلوماتنا عن مصر . وعلى كل حال فإن السلطة الملكية لم تبلغ ، في أية منطقة من مناطقها ، تلك القوة التقليدية على كافة مظاهر حياة البلاد ، كما لم تبلغ الادارة الهلينية فيها كمال الادارة اللاجية . فهنا أيضاً برهن الاسكندر عن احترامه للمعتقدات والطقوس ، لا بل انه تظاهر في بلاد بابل بمظهر المصلح الذي يعوّض عن كفر ملوك الفرس الآخرين . والصعوبات المالية وحدها ، في ظروف نادرة نسبياً على كل حال ، هي التي دفعت بخلفائه الى اعمال العنف . فقد وضع الملك يده ، هنا وهناك ، أو حاول أن يصع يده ، على كنوز المعابد . وأقدم انطيوخوس الثالث بكل قحة على انتزاع الذهب والفضة من معبد اكباتان في السنة ٢١٠ ، ولكنه قتل على أيدي بعض الجبلين بعد ان نهب أحد المعابد في بلاد سوزة . وبعد ذلك بعشرين سنة تقريباً اضطر ابنه انطيوخوس الرابع الى الانسحاب حين عزم على القيام بعملية مماثلة . وانفجرت الحصومات الأولى بين السلوقيين واليهود حول موضوع

كنوز معبد أورشليم . ولكن هذه السياسة لم تطبق وفقاً لتصميم أو قاعدة ، لأن المستندات الوفيرة العائدة للعهد الهليني التي اكتشفت في مدينة أوروك الصغيرة من أعمال بلاد بابل السفلى تجعل الافتراض الثاني أكثر احتمالاً . فالملوك الذين لم يحملهم شيء على شمل هذه المدينة الصغيرة بعطف خاص قد أصلحوا وأنشأوا بعض المعابد فيها . وقد بقيت هذه المعابد مراكز اقتصادية يبدو أن نشاطها قد تمتع بامتيازات مالية . وعاش الكهنة باستمرار عيشتهم الماضية : فقد استنسخوا كتب الطقوس ووضعوا مجموعات الملاحظات الفلكية بصورة أعظم وفرة وانتظاماً منها في عهد السيطرة الفارسية . وبما لا ريب فيه ، إذا تأخرت الديانة المحلية في بلاد بابل ، ان مسؤولية هذا التأخر ، الذي لا تزال أسبابه الحقيقية سرّاً خفية ، لا تقع على عاتق الملوك اليونانيين . وفي غير مكان أيضاً لم تنل موجبات الخزينة ، حتى إذا عمل بها ، من الحرية الدينية . ولم يحصل أي اضطهاد ، وقد وُرسّت الديانة المازدية بحرية مثلاً في نجد إيران ، على الرغم من أخطار ارتباطاتها بالأسياء المعرولين وبالروح القومية الإيرانية التي من شأن التهديد الفارقي ان يجعلها مريبة : وفي بلاد فارس ابقى بعض الاخمينيين كروّساء محليين واطلق عليهم لقب ، « حراس النار » أي أنهم لعبوا بالتالي دوراً دينياً .

لم يسبب استغراق البلديين نفسه ، حيثما حصل ، أية مشكلة دقيقة ، لأن هذا التطور لم يستلزم أي ارتداد بما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى عصري وديني . أما الاغريق فغالباً ما أعطوا المثل وتبنوا بعض الآلهة الشرقيين أو حاولوا أن يستكشفوا فيهم مظاهر بعض آلهتهم الخصوصيين ، كزفس بنوع خاص الذي تمثلوه في كل « نعل » سوري أو فينيقي . ومن حيث ان لائحة آلهتهم كانت قابلة الاطالة فقد بلغ منها ان السريين المستغرقين وجدوا فيها آلهتهم دونما جهد . ولم يحدث في غالب الأحيان أي تغيير جوهري في الطقوس أو في الواجبات المفروضة على المؤمنين . ومن ثم فقد حدث التطور في كل مكان تقريباً دونما صعوبة .

ولم يشذ بصورة خطيرة عن هذا التعايش ذي الطابع السلمي الحصار اليونانية والديانة اليهودية وحتى الودي في أغلب الأحيان ، سوى فلسطين ، حيث جعل طابع الشريعة الدينية الخاص والسلطة التي كانت لهذه الشريعة على كافة أوقات وعادات الحياة اليهودية ، التعايش أمراً دقيقاً للغاية .

سارت الامور على خير ما يرام طيلة قرن ونصف في عهد سيطرة البطالسة أولاً والسلوقيين ثانياً . فأدار اليهود شؤونهم بحرية ؛ ولم يكتف الملك بأن لم ينل من عبادة المعبد ، بل تحمل نفقات ذبيحة يومية تقدم باسمه ، واستفاد الكهنة من بعض الاعفاءات المالية . ولكن الديانة اليهودية القديمة ، بفعل اتصالها بالحصارة اليونانية التي كانت آخذة في التقدم حول فلسطين ، قد تأثرت بصورة حتمية ، أقله في أوساط الارستوقراطية اليهودية ، التي استهوتها هذه الحصارة ورغبت في ارضاء الملوك اليونانيين . وانتشرت الحصار اليونانية انتشاراً أوسع في مجتمعات

اليهود المهاجرين المقيمين في مصر أو في المدن الآسيوية . ولكن التطور قد ظهر في فلسطين نفسها أينما ، ففسر بعضهم الشريعة على هواهم ، حتى قيل انهم اهلوا الحسان ، ولبسوا ثيابهم وكسوا رؤوسهم ، من جهة ثانية ، على الطريقة اليونانية ، وشجعوا التربية اليونانية التي تعلم في الأندية الرياضية : أعني بذلك ممارسة ألعاب القوى في حالة فاضحة من العري . وبكلمة مختصرة فان تياراً استغريقياً ، هو تيار « المستغرفين » ، قد نما شيئاً فشيئاً في أورشليم ، فكانت ردة الفعل ولادة شيع مختلفة متفاوتة في استقامة رأيها اردادت كراهيتها لكل تسوية يوماً بعد يوم .

انتهت الحوادث المختلفة الى النزاع الدامي . فصمم أحد الملوك السلوقيين على ان يضع يده على كنز الهيكل ، فكان حادث الوزير هيليودوروس الذي قلبه وطرده فرسان سماويون . ثم أقدم الملك انطيوخوس الرابع على عمل انتقامي يهدف الى نشر الحضارة اليونانية ، فعين رئيساً للكهنة يستجيب لجميع رغباته ، وظن بأنه أفلح في مجهوده فأطلق على أورشليم اسم « انطاكية » وشيد فيها حصناً أقام فيه حامية عسكرية وانتكح حرمة الهيكل بذبائح دموية وبإدخال تمثال زفس الأولمبي اليه وكرس معابد محلية بأسماء آلهة يونانيين وأراد فرض أكل لحم الخنزير . فانفجرت اذ ذاك ، في السنة ١٦٦ ، من أعماق الشعب ، ثورة المكابيين التي استهدفت الملك والمستغرفين معاً والتي انتهت ، بفضل ضعف المملكة السلوقية ، الى قيام دولة يهودية مستقلة .

لا ترد هذه الأزمة الى تصلب الاغريق بقدر ما ترد الى تناقض الحضارتين وما أوجده من سوء تفاهم متبادل بين المسؤولين عنهما . وقد كان لحرق انطيوخوس الرابع دور كبير فيها ، أو بالأحرى لحطه في تقدير نضج التطور الذي تحقق والانقياد الممكن لأوامره . ولكن الشر الأكبر مردّه بنوع خاص الى اغراء الحضارة اليونانية لبعض اليهود والى ان الشعبين لم يصعلا الحد نفسه بين الحضارة والديانة . فاستهوى الاغريق ، بالتالي ، أن يفسروا التمسك بالدين كبربرية متصلة ، كما استهوى الملوك ان يفسروا المقاومة الدينية كمعارضة سياسية .

أضف الى ذلك ان التعايش ، على الرغم من شتى أعمال العنف ، لم يبق دون ثمرة حتى عند اليهود . فقد انتهت دولتهم المستقلة ، في أواخر القرن الثاني قبل المسيح ، الى ملكية حمل أول ملك فيها اسماً يونانياً هو ارسطوبولوس . ويكفي هذا الحدث للدلالة على ان مناهضة الحضارة اليونانية التي بدأت بثورة المكابيين قد اخفقت ، أقله في هذا الموضوع . ثم ان الأدب اليهودي الذي عرف حينذاك تجديداً أكيداً قد تأثر ، مع محافظته على طابعه الديني ، بالفلسفة اليونانية كما نرى ذلك في كتابي « الجامعة » و « الحكمة » . ويتضح ان واضع هذا الكتاب الأخير ملم بالافلاطونية من مفهوم الألوهة التي لا تتصل اتصالاً مباشراً بالعالم . وهكذا فقد تمهدت الطريق لمؤلفات « فيلون » في العهد التالي .

بيد ان مثل هذه الاتصالات ، التي تأثر بها اليهود العاشرون بين « الأمم » خصوصاً ، لا سيما

في الاسكندرية حيث نقلت التوراة آنئذ الى اللغة اليونانية على يد السبعين ، كما يؤكد التقليد ، الذين وكل اليهم بطليموس الثاني هذه المهمة — لم تحل دون استمرار سوء التفاهم ، أقله بين الجماهير . فقد سبب سوء التفاهم هذا ، حتى آخر العهد القديم ، مآسي كثيرة أخرى . واستمر تمسك اليهود بديانتهم بفضل الشيع المعادية لكل خروج على الشريعة التي تفسر تفسيراً حرفياً ملازماً . ثم أكمل السخط والثورات على الملوك اليونانيين او المسترقين وعلى روما ما كان ناقصاً : فتغلبت الشريعة في النهاية على الرغم من ضغط الحضارة والجيش الاجنبية .

هكذا استمر وجود أشد الديانات الشرقية غمراً ، في حركة انتفاضية لم يبد الاسياد اليونانيون أي تصلب مقصود أو أية دعاوة دائمة لخلقها أو لتفاتها . واذا ما استثنينا العبادة السلاية ، التي لم يكن ليأنف منها غير اليهود ، لم يفرض الملوك موجبات دينية في الشرق فبقيت الديانات المحلية على ما كانت عليه .

أما معتقدات الاغريق أنفسهم وطقوسهم الدينية فقد طرأت سنى الديانة اليونانية الخارجي عليها تغييرات عميقة . فلم تعرف الديانة اليونانية التقليدية ، ديانة آلهة الاولمب وآلهة المدن ، مثل ذاك السنى الخارجي . وقد أفضى انشاء كل مدينة جديدة في الشرق الى تشييد معبد على الأقل لأن حماية الجماعة الجديدة وتلاحها يستلزمان عبادة إله مدينة على الأقل . وكثرت الهبات للعباسد المتمتع ببعض الشهرة : فازدادت النذورات والتأثيل والمذابح في ديلوس ودلفي وأولبيا . وأخذ الاثرياء والملوك على أنفسهم ، ولا سيما الملوك رغبة منهم في الدعاوة ، تخصيص رؤوس أموال ضخمة للقروض أو للأعمال العقارية فأوجدوا بذلك أوقافاً تقوية يستخدم ريعها للتقادم أو للأعياد الدينية . وفي كل مكان زادت الاعياد عدداً وعظمة ترافها الذبائح والصاوات والتطوافات والالعب التي حاولوا نقلها ، من حيث أنظمة المباريات والمكافآت ، عن الالعب الاولبية أو الدلفية ، بغية تأمين الشهرة نفسها لها . وقد اسند تبرير هذه المظاهرات التقوية الى انعامات الآلهة ومعجزاتهم ، لا سيما الخلاص الذي تم على يدهم في ظرف خطير او ظهورهم للبشر . وسعوا آنذاك الى الحصول على معاضدة هاتف غيب ، لا سيما هاتف غيب دلفي الذي يبدو نشاطه المتزايد في هذا المجال وكأنه يواصل عمل المنظم الاكبر للحياة الدينية اليونانية . ثم أرسلوا السفراء الى المدن والاتحادات والملوك بغية الحصول على امتيازات للاعياد والمعبد ، وللمدينة نفسها اذا امكن ذلك . وخير مثل معروف هو مثل « مغنيزيا — على — المندريس » حيث تتبع كتابات عديدة تتبع المساعي المحققة في أعقاب ظهورات أبولون وإلهة المدينة الرئيسية ، ارميس لفكوفرييني ( « ذات الواجب البيضاء » ) . فبعد السفراء الاول بأربعة عشر سنة أرسل سفراء جدد حصلوا على نتائج باهرة : إذ جمع أربعة ملوك وخمسة اتحادات وأكثر من ستين مدينة التصريحات والتعهدات العاطفة على عيد الإلهة الدلفي وعلى المدينة نفسها . وما هذا سوى مثل بين أمثلة كثيرة .

جرى كل ما جرى وكان الديانة اليونانية، التي استعادت شبابها بفضل الانتصارات السياسية التي حققها ممارسوها، تثير في أتباعها تقوى أشد حرارة من أي وقت مضى وتحقق بإجماع الرأي على الحمد والشكر، احتلال عالم جديد احتلالاً أدبياً.

بيد أن ازدهار الديانة الكلاسيكية هذا لا يمثل سوى مظهر فقط من مظاهر الحياة المدنية أي مظهر من ظاهرة عامة ومميزة في العهد الهليني. وليس هذا المظهر أشدّ وقفاً في النفوس من كثير غيره، ولكنه أكثر صنعة إلى حدّ بعيد. فالتقوى نحو آلهة المدن كانت تؤلف جزءاً من مصطلحات الحياة المدنية، ولم يستهدف التنافس في الظهور بين المدن، في هذا المجال، سوى غايات زمنية جداً. فهي إنما ابتغت امتداد شهرتها واجتذاب الزائرين والحجاج وتشجيع التجارة المحلية وإلهاء السكان ومحاولة تجنب بعض الحملات عن طريق الاعتراف بـ «قدسية» المدينة و«حقها بالحماية»، أي، عملياً، الاعتراف بمحصانتها حيال شتى أعمال العنف. وعملياً لم يكن لهذا النشاط، المهرق للدخل المحلي، أي شيء مشترك مع العاطفة الدينية الحقيقية. وهل كان بالامكان أن تكون الأمور على غير هذا الوضع حين تقتصر حياة المدينة نفسها أيضاً، في غالب الأحيان، على ظواهر شكلية؟

أضف إلى ذلك أن أدلة عدم أهلية الديانة الكلاسيكية قد برزت بشكل جلي أكثر من ذي قبل. فقد أضرّ بها على الدوام أنها لم تستجب لاضطرابات قلب الإنسان وعقله. ولم تأت إلا بتعليم أخلاقي فرديّ بدائي، دونما اهتمام لما هو عادل وغير عادل، مكتفية بالنشاط الخارجي، لا بل متخذة، في غالب الأحيان، شكل ومعنى صفقة تجارية يعقدها المؤمن مع الإله. وقد تركت الفرد دون سند ودون وعد ودون أمل مطمئن أمام شبح الموت المقض. ولم ترتبط أو أنها لم ترتبط ارتباطاً جيداً بمفهوم عام للكون وجوهره وتنظيمه. وقد اضيف الآن، إلى هذه العيوب الدائمة، حقيقة ومشهد ضعف المدينة أي الإطار البشري الرئيسي الذي ترعرعت فيه وارتبطت به ارتباطاً قليلاً. وقد برهن اخفاق المدينة السياسي للجميع أن الآلهة الذين التمس منهم الحماية لا يستطيعون أو لا يريدون تأمين السلامة والسعادة لمواطنيها. فتعلم الإنسان، على حسابها، أن مفهوم المواطن لا يحدّده تحديداً كاملاً ويعمل معه بعض مظاهر كيانه، تلك المظاهر بالذات التي يجعلها شقاؤه أبرز ظهوراً.

وكانت روابط الآلهة الأولمبيين بآلهة المدن أوثق من أن تبقى بعيدة عن هذا الفتور. بيد أن بعضهم، وزفس بنوع خاص، قد بدا وكأنه لم يتأثر به، ولكن السبب في ذلك هو أن اسمهم قد استخدم لاستغراق آلهة شرقيين. ويبدو في الحقيقة أن ديونيسوس قد تمتع بتعلق أشدّ قوة. فالنجاحات التي أحرزتها عبادته، وهي مدهشة إذا ما فكرنا بالمرکز الثانوي الذي احتله في السابق، لم تناسب مشاغل زمنية فقط. أجل اعتبره اللاجئون والاطاليون جداً لهم، ولم تكن السياسة بعيدة عن التقوى التي تناهوا بها حياله. ولا ريب أيضاً في أن صفته

كإله المسرح قد عينته بصورة طبيعية كي يصبح شفيعاً لجمعية الفنانين الذين تفسر كثرة التمثيليات آنذاك نجاحهم وأهميتهم . ولكن هنالك اسباباً أخرى لنجاحات عبادته . ومن حيث أن هذا الإله تراقيّ المنشأ ، فإنه كان أقرب الى الإلهة الشرفيين من جميع الآلهة اليونانيين الآخرين الذين دخل بينهم في عهد متأخر . فمِنذ الاسكندر ، وعلى خطاه ، اتضحت اسطورة أسفاره ونجاحاته في آسيا وتوسعت بعد أن كانت اسطورة موجزة : فكيفته تكييفاً أفضل يتفق وظروف العالم الهليني . اُضف الى ذلك احيراً أن « طفولاته » قد أوجدت حوله ، بالتفضيل على أي إله آخر ، جوّاً من العدوبة الرقيقة النضيرة قادراً على استغواء مشاعر ذلك العهد . فلو كان على الديانة اليونانية ، أن تستمد من ذاتها ، دون أي اكتساب جديد ، وسائل تجديدها ، لأمسى ديونيسوس ، على الأرجح ، أعظم الآلهة أهمية . وهو الوحيد ، على كل حال ، الذي ابرز عند اتباعه ، آنذاك ، في ما يظهر ، شيئاً آخر غير الحركات الاصطلاحية الحالية من المعنى الديني الحقيقي .

حدثت مع ذلك تجديدات متفاوتة الاهمية لارضاء ميول البشر  
العاطفية واحتلت كلها مكاناً في الحياة الدينية وعبرت أحياناً عن  
التجديدات الدينية :  
العبادة الملكية والسلالية  
إيمان عميق حقيقي .

فهناك في الدرجة الأولى العبادة الملكية والسلالية . وقد عاجلنا فيما سبق أصولها اليونانية والاشكال التي تلبستها وتنظيمها حيث انتهت الى عبادة رسمية . وقد رأينا ، لجهة العواطف التي تتعلق بها ، توافقها العميق مع نظرية الفاسيلفس أي الانسان المتفوق على البشرية المتوسطة تفوقاً يصبح من الشرعي معه أن يمثل بالإلوهة التي يمتلك قوتها . فهي قد عسّرت في الوقت نفسه عن الاعجاب وعرفان الجميل واستزال الانعامات الجديدة .

ولكن هل كل هذا بكاف للكلام عن عاطفة دينية ؟ انه لمن المغالاة نفيه نفيّاً باتاً شاملاً . فاذا كان التطور اللاحق قد عمّق وعقّد ادراكنا لمثل هذه العاطفة فمن الجدير بنا ان نعود الى الفكرة المكونة عنها سابقاً . لنصغ الى النشيد الذي ألفه أحد الشعراء والذي أنشد في أثينا اكراماً لأحد الانتيجونيين : « الآلهة الآخرون بعيدون ، وهم اما لا آذان لهم واما لا وجود لهم واما لا يعيرون حاجتنا أي اهتمام . أما أنت فنحن نراك هنا ، لا من خشب أو من حجر بل حاضراً حضوراً فعلياً . لذلك فنحن نبتهل اليك أنت أيها العزيز بين الأعزاء ؛ اعطنا السلام قبل كل شيء ، لأنك أنت سيد السلام » . تعبّر هذه الجملة عن روحية نفعية لا يقبل بها ذوقنا . ولكن هذه الروحانية أقرب الى الايمان اليوناني الذي انتظر أبداً من آلهته انعامات مباشرة ملموسة : وقد انقضى وقت طويل قبل أن تبدو مثل هذه الملاحظات ناقصة وغير كافية ، فجاءت خبرة الشرق الدينية تفعل فعلها في هذا المعنى بالذات . بيد أن فجاجة الاعتراف ، من وجهة النظر اليونانية ، وفي اوائل العهد الهليني ، لم تنتقص من تأثيره على الجماهير .

فليس اذن باستطاعتنا ان ننكر ان العبادة السلالية ، في حضارة وفي نظر أناس عزوا الى

القوة ، كقوة ، مصدراً وطبيعة الهيّتين ، ربما جاءت تعبيراً عن تدين لا يقل واقعية عن التدين الذي عبّر عنه من قبل في عبادات آلهة المدن . فهذه العبادات الأخيرة أيضاً كانت رسمية ومفروضة ومتحجرة في طقوس اصطلاحية . فلم تضاف العبادة السلالية الى هذه النقائص سوى التسهيلات التي وفرتها لتملق خسيس ولخضوع أكثر سلبية لأواهر سلطة أعظم قوة : وهذا التباين تباين في الدرجة لا في الجوهر . فيجب من ثم ان تقصر هذه العبادة كاستعاضة عن العبادات القديمة التي غدت آنذاك غير كافية لإيقاد إيمان الجماهير . وان هي لم تدخل على الحياة الدينية عواطف جديدة فقد وفرت لها على الأقل أشكالاً جديدة .

لم تخل الفلسفة الهلينية ، أقله في بعض مدارسها ، من الاصداء الدينية .  
 التجديدات الدينية .  
 عبادة إله الحظ .  
 فقد ساعد نجاح تعليم افيميروس الذي زعم ان اقدم الآلهة اليونانيين ، بما فيهم زفس نفسه ، قد عاشوا حياة البشر ، لا بل حياة الملوك المحسنين ، فألهم رعاياهم الشاكرون ، على تقبل وازدهار العبادات السلالية . وذهبت تعاليم أخرى الى أبعد من ذلك . فانتهت الرواقية مثلاً الى مفهوم إله واحد ، خالق وسيد الكون ، ولا يمثل الآلهة المعروفون سوى مظاهره التي يسهل على الانسان الوصول اليها . فتوفقت بذلك الى الاحتفاظ بالاساطير مفسرة إياها كرموز . ولكن هذه النظريات السامية لم تكن لتبلغ وترضي سوى نخبة قليلة العدد .

أما الديانة الشعبية فيبدو انها لم تنقل عن الفلسفة سوى مفهوم واحد هو مفهوم « إله الحظ » . وقد نشأ هذا المفهوم عن المدرسة المشائية التي واصلت تعليم ارسطو ، وعرف نجاحاً كبيراً جداً عند اغريق يتفاوتون مستوى عقلياً . وقد مثل هذا المفهوم حظاً عاماً يرتبط به مصير الاسانية جمعاء ، وليس قط مرادفاً للصدفة الخرقاء أو لجمعية لا تعفو . وعزيت اليه بعض الاهواء ، ولكن عزيت اليه أيضاً بواعث أملاها عقل لا يدركه الفكر البشري لسوء الطالع . واذا لم يكن هنالك أية طريقة لتليينه ، فانه لم يكن من الممنوع الابتغال اليه فحسب ، بل التفكير في اسباب المصائب أيضاً وفي استخلاص النتائج الضرورية : وقد سيطرت فلسفة الحظ هذه على مؤلفات بوليب التاريخية في احدى مراحل تحضيرها . ولكن قد سلّم بالاضافة الى ذلك ، لاسيا في الأوساط الأمية او شبه الامية ، بوجود حظوظ كثيرة ، واحد لكل فرد وواحد لكل جماعة فتمكنت التأثيرات الشرقية ، أقله في هذا الحقل ، من ان تفعل فعلها عن طريق مفهوم « غاد *gad* » السامي ، الحامي الخاص لكل مدينة . وقد درجت عادة مدعوة لديوممة نادرة ، عن طريق تشخيص إله الحظ في اطاكية الذي ذاعت شهرته بفضل تمثال لافتيخيداس ، تقضي بتشخيص المدينة بصورة امرأة تتوج رأسها الابراج . ومن المسلم به ان التقوى كانت أكثر حرارة نحو الحظوظ التي تبدو اعظم قوة ، وبنوع خاص حظوظ الملوك التي كانت موضوع عبادة وتقسيم الأيمان باسمها . ويمكن القول ، على العموم ، ان عبادات قليلة عرفت الانتشار الذي عرفته هذه

العبادة : فلم تكن في الحقيقة من ديانة افضل انسجاماً مع اختبار عالم مجهول شاهد الكثير من الارتعاعات العجائية التي عقيتها كوارث فجائية ايضاً .

المشيدات الدينية :  
تمسّ دون صعوبة ، مع العبادة الملكية ، بقدر بعدها عن مجرد التملق ،  
وفي عبادة إله الحظ ، اجماع الرغبة في تأمين السعادة بفضل قوى متفوقة .  
وقد سكّد الاضطراب النفوس وبحث الناس عن الخلاص بقلق شديد .  
القلق والخلاص

وقد عبروا عن هذه النزعة بقوة مادية في لقب « المخلص » الذي اطلق آنذاك على الكثير من الآلهة القدامي والجدد ، والكثير من الملوك ايضاً : فكان شعورهم بأنهم في مأمن من اخطار الحياة والموت السرط الأول للسعادة .

وقد ابتهلوا بحرارة الى اسكليبيوس ، الإله الشافي ، للتخلص من الآلام الجسدية . فهو قد قبل منذ زمن بعيد في مصاف الآلهة اليونانيين وكان له معابده ، وأشهرها في كوس احدى جزر بحر ايجه ، وفي ايندورس من اعمال الارغوليد . فتوافدت اليها جماهير غفيرة لم يسبق لها مثيل من ذي قبل . وكانت شهرة مؤسسته الطبية الدينية التي تخرج منها الأطباء الكثيرون احد مقومات اردهار كوس حيث حرصت الدولة على حمايتها واستمرارها عن طريق المساعدات المالية . اما في ايندورس فقد اقتضى توسيع الابنية حيث كان المرضى يقضون ليلهم ويجمعون ، في الاحلام التي تراود سباتهم ، الدلالات التي يفسرها الكهنة لتوجيههم في معالجة آلامهم : وتشهد اليوم نذورات كثيرة ، ترافقها الكتابات التفسيرية ، بحيل المرضى المدينين لجود الإله بشفاء عجائبي .

ومن الآلهة النصارى والرحماء والمخلصين ، على غرار غيرهم لا بل اكثر من غيرهم ، اولئك الذين استضاعوا طمأننة الانسان حيال اخطار الحياة الثانية . وتوصلوا الى ذلك بإيقاف المؤمن على اسرارهم . وقد سبق للحضارة اليونانية الكلاسيكية ان عرفت هذا الشكل من الحياة الدينية التي انتشرت في حينه انتشاراً غريباً في معابد يونانية وشرقية قديمة وجديدة . فعلى بعض المسافة من أثينا حافظت الفسيس الرسمية على زينها واستالت الكثير غيرهم ؛ ولكن الفسيس جديدة قد انشئت على مقربة من الاسكندرية لم تقم ، والحق يقال ، الا بنشاط ثانوي . غير ان السوق التي راجت هي سوق اسرار اخرى بسبب ما انطوت عليه احتفالاتها من مسرحية وتأثير ، حتى انها قد اهتمت بالشعوذة والدعارة . وكان لديونيسوس ، الذي سبق تكريمه في الفسيس ، اسراره الخاصة التي اصبح لها فروع كثيرة . واذا وجد الاغريق هذه الاسرار في تراث اجدادهم الديني ، فانهم لم يأنفوا من الاشتراك بغيرها مما يمت بصلة الى العبادات الشرقية كعبادات « اتيس » و « وسبيل » في آسيا الصغرى وعبادات اوزيريس وايزيس في مصر .

نحن لا نعلم حتى العلم تفصيل هذه الاحتفالات التي توجب على المشترك المبتدى ان يعتصم بالصمت حيالها . ليس من ريب في ان الطقوس والصيغ قد اختلفت باختلاف الآلهة . غير ان

المؤمن قد وجد في كل مكان تهديداً لاضطرابه وقلقه : فانه كان يحضر قيامة إله ميت ، فيقف بذلك على اسرار الموت والتجدد . قد تكون اسرار الفسيفس قد وقفت عند هذا الحد . ولكن الاسرار الاخرى قد قادت المشترك الى ابعد من هذا . فبعد تطهيرات مختلفة كان يتمثل بالإله ويشترك في طبيعته الإلهية . وكان أيضاً يتعود حالات نفسية جديدة كالانحطاف ومحبة الإله المتألم اللذين من شأنهما إدخال الذهول الى قلب اكثر الناس خشونة . كما كان يواجه مفاهيم جديدة لم تتعرض لها العبادات اليونانية قط عملياً ، كمفهوم الخطيئة ، ومفهوم الطهارة ، لا الطهارة الجسدية التي يحصل عليها بالاستحمام والصوم فحسب ، بل الطهارة الأدبية أيضاً . فوفر له كل ذلك ، بالإضافة الى الوعود التي لا تقدر بثمن ، تنمية حياته الداخلية ، التي كانت متروكة لنفسها فغدت منذ ذلك مستنيرة وثابتة . وهذه كلها فتوحات لم تكن النفس البشرية لتقبل بالتخلي عنها بعد الآن .

أضيف كثير من هذه الاسرار الى عبادات آلهة شرقيين : ولكن  
 الاغريق ، على الرغم من ذلك ، لم يحيدوا عنها . فقد برهنوا  
 العبادات الشرقية وسيرايبس :  
 أبداً ، على الصعيد الديني ، عن قابلية للاقتباس ، معترفين  
 بنواقص معتقداتهم الخاصة ومستعدين للاستعاضة عنها باقتباسات عن الشرق . بيد انهم ، عندما  
 تبناوا رسمياً عبادات غريبة ، بذلوا الجهد لتكييفها ولتطهيرها ، اذا صح التعبير ، باخضاعها  
 للعقل : هذا كان مصير عبادة ديونيسوس في قلب اليونان الكلاسيكية ، اثينا . اما العبادات التي  
 بقيت هي هي ، محتفظة بميزاتها وطقوسها الأصلية ، فقد استطاعت التسرب الى بعض المدن ،  
 لا سيما الى المرافىء ، ولكن احياناً وبصورة خاصة فقط : هكذا استفادت عبادة إيزيس ، في  
 البيرة ، من بعض التساهل ، ولكنها لم تحظ بالاعتراف الرسمي . وتبدل الوضع منذئذ بدلاً  
 كلياً . فأقيمت الاتصالات بالآلهة الشرقيين بصورة تحتية مباشرة وعلى اوسع نطاق ، شأت  
 الدولة تسهيلها أم ابت . ولم تحاول الدولة ، في اي مكان ، من جهة ثانية ، التعرض لها  
 فسنحت للاغريق فرصة تنميات روحية كثيرة قد تبدو خيانات محضة في نظر الحضارة  
 اليونانية الكلاسيكية .

وقد حدثت تقاربات مذهشة . فتعرض يهوه نفسه للضم ، على الرغم من تميزه وارتيباطه  
 الوثيق بشعب معين . فإن كلمة « الاعلى » كانت منذ قبل ذلك صفة لزفس . فاعتمدت لاسم  
 اكثر غموضاً هو « ثيوس » ( الاله ) ، فاوجد بذلك اله جديد ، شبه غفل ، يسهل التوفيق  
 بينه وبين بعض التعاليم الفلسفية ، لم يتردد الكثيرون ان يروا فيه إله اليهود . وآثر غيرهم تمثيل  
 إله اليهود بديونيسوس ، باسمه التراقي ساباذيوس ، الذي كان من السهل ، بصده ، تبليس بعض  
 الكلمات كسبت وصباؤوت . وحلت استدلالات أخرى على الكلام عن زفس الدمشقي وزفس  
 الدوليكاني اللذين ليسا سوى الإله حدد في دمشق ودوليكي . ودفعت إذ ذاك نزعة غريزية النفس

اليونانية على البحث عن إله كلتي القدرة يستجيب الصلوات ، وعلى خلقه عند الحاجة . وهكذا فقد شقت الطرق ، ولو بصورة غامضة جداً ، التي كان باستطاعتها ان تؤدي الى التوحيد .

حاول البطالسة توجيه هذا المجهود وفي الوقت نفسه توحيد الاغريق والبلديين المصريين في عبادة مشتركة . فأوجد بطليموس الأول ، توصلاً لهذه الغاية ، إلهاً جديداً هو سيرابيس ، ونظم عبادته بعد ان استشار اغريقيا والكاهن المصري مانيتون ، وهو الذي عهد اليه وضع موجز لتاريخ مصر الفرعونية باللغة اليونانية . وقد شيد المعبد الأول للاله الجديد في منف المدينة المصرية الصرفة ؛ ولم يشيد له معبد آخر إلا في عهد بطليموس الثالث في الحي البلدي من الاسكندرية المعروف باسم راكوتيس . ولم يكن اسم الإله نفسه سوى إله الأموات في منف ، « اوزيريس - أبيس » الذي شوّهه الاغريق فدعوه اوزورابيس وسارابيس وسيرابيس . وقد احتفل بعبادته في هذه المدينة ، وفقاً لطقوسها الخاصة ، الكهنوتان اليوناني والمصري ، وكان الكهنة المصريون أكثر عدداً الى حد بعيد . غير ان النفوذ اليوناني لم يلبث ان وطد سيطرته ، لا سيما بفضل تماثيل النقاش « براكسيس » الذي ابتكر طراز الرسم الاصطلاحي للاله ، كما يغلب على الظن . فهو قد سكب فيه خاصيات منقولة عن آلهة يونانيين عديدين كزفس ، بسبب قوته ، والإله الشافي اسكليبيوس وإله الأموات هادس : فاذا به قد مثل انساناً مهيأ ، يفيض بحياة عطفاً ورحمة ، كثيف اللحية وأجعد الشعر ، يكسو رأسه المكيال رمز الخصب ، جالساً على عرش ، قابضاً على عصا طويلة بيده اليسرى وملقياً يده اليمنى على كلب . وادا كان الإلهان المصريان ايريس وانوبيس قد اشتركا مع الإله في معبد منف أيضاً ، واذا دفن فيه كل « ابيس » يموت ، فقد وحد فيه من جهة ثانية هيكل لدوبديسوس ، كما قام أمامه ببناء سداسي الشكل أحيط فيه تماثيل هوميروس بخمسة تماثيل لفلاسفة يونانيين وخمسة تماثيل لشعراء يونانيين أيضاً . فكان الإله والعبادة ، بالتالي ، يونانيين ومصريين في آن واحد ، يغلب فيها طابع الحضارة اليونانية . التي لم رضى يوماً بالتنكر لما كان ولا يزال سبب عظمتها . ولذلك فليس من الغريب اذا لم يكثر البلدون المصريون عملياً لسيرابيس ، في حال انه تمتع بمركز ممتاز في الأوساط اليونانية ، بفضل ما انطوى عليه من خصائص غريبة عن الحضارة اليونانية الكلاسيكية ، كما يرجح . وقد كرست له ، في كل مكان تقريباً ، معابد احتفل فيها بالأسرار أيضاً : في آسا الصغرى ، وديلوس ، وتراقيا ، واليونان نفسها . وهو الذي مهد الطريق أمام انتشار عبادة وأسرار ايزيس في الامبراطورية الرومانية جمعاء .

على الرغم من ان الاحتياطات المتخذة للحفاظ على بصيب العماصر اليونانية ، استمر إذن استقلال ونفوذ الشرق دينياً بلا منازع . وقد اجتذبت عباداته ، دون أي تساهل ، العديد من المؤمنين اليونانيين الذين وصلتنا منهم ، باللغة اليونانية ، شهادات تقوى لا تحصى نحو آلهة « برابرة » لا غش فيهم . فامتدت عبادات هؤلاء الآلهة ، بواسطتهم ، نحو الغرب ، الجزر ولا سيما ديلوس

أولاً ، واليونان ثانياً . وقد أسهمت بعض الاسهام في هذا الغزو بلاد بابل نفسها التي فقدت ديانتها القديمة كل قوة توسعية واقتصرت في نشاطها على محاربة الفناء ، وذلك بواسطة التنجيم والسحر اللذين مارسها من أطلق عليهم اسم « الكلدانيين » او « المجوس » أيضاً — لأن هذه العلوم الباطلة قد أشيعت ، على العموم ، باسم زرادشت — وتجدر الإشارة هنا الى ان جميع الديانات الشرقية ، التي ستتقاطر الى روما فيما بعد وتنتشر منها في المقاطعات الغربية من الامبراطورية ، قد بدأت تتوسع حتى قبل الفتح الروماني : فلم يكن دور السيطرة الرومانية ، على هذا الصعيد كما على غيره ، سوى توسيع نطاق التطور السابق .

فلا يبدو إذن من الغلو بشيء التكلم ، بصدد الاغريق ، عن ثورة دينية كان فتح الاسكندر منطلقاً لها . فان هذا الفتح ، بتخليصهم من اقتسارات الديانة المدنية ، قد حرر فيهم احساساً وصوفية خفيين ولكن مكبوتين . وقد أتاح لهم ، باقامتهم في عالم اتسعت آفاقه تمكنوا فيه من اغتراف الدروس ، اختبارات أثارت حماسهم الحاد . فاكشفوا في آن واحد ثروات الشرق المادية والروحية التي سحرتهم لفترة طويلة . وادام يفرض عليهم استخدام الثروات المادية أي قرين ، فقد توجب عليهم ، حيال الثروات الروحية التي كانوا أمامها شبه مبتدئين ، ان يرضوا بالتلمذ لرعاياهم . فقد أحسوا نهائياً ، في هذه المدرسة ، بما يجعل نفوسهم غير راضية وتململوا تقوى جديدة قوامها القلق والهمية .

## ٢ — الفن

باستثناء بعض التقنيات ، لم يكن الشرق ، في الحقل الفني ، ليميز الفن اليوناني والفنون البديية معلماً حيال الاغريق الذين ثبت تفوقهم فيه منذ زمن بعيد . لا بل ان أثر الفن اليوناني ، منذ قبل الاسكندر ، قد تسرب الى أماكن كثيرة من ساحل آسيا المتوسطي وحتى الى البلاط الفارسي . فكان الفن الهليني بالتالي فناً يوناني الجوهر بصناعيته وبتحقيقاته . ولم تحافظ الفنون المحلية على حيويتها إلا في بعض المناطق المحدودة جداً . واذا ما نظرنا الى الشرق في مجموعه ، رأينا ان هذه الفنون لم تجد عملياً فرصة سانحة للظهور ، إذ ان النخبة الاجتماعية ، التي كان باستطاعتها احياءها عن طريق طلباتها ، قد اهتمت او أعرضت عنها بعد ان فقدت روحها القومية .

ولم يخرج عن قاعدة هذا الانحطاط العام سوى شواذ نادرة . وبالإضافة الى اوروك في بلاد بابل ، حيث يغسر استمرار حياة كهنوتية يعطف عليها السلوقيون تشييد وترميم المعابد التقليدية ، تكون مصر السدوذ الرئيسي . وفي وادي النيل تسارى تصميم الملوك اليونانيين على الإبقاء على التقاليد الاجتماعية في الحقل الفني وفي الحقول الأخرى . فشيدت المعابد المصرية وزينت جدرانها بالمشاهد الكلاسيكية : ولكن هنالك فوارق طفيفة ، كالسعي وراء التناسق في القياسات ، تحمل على الاعتقاد بجوار بل باشتراك اغريق يخضعون لعلم آخر في سنن الجماليات . أما البناء

الوحيد الذي يبرز فيه الاثر اليوناني بروزاً محسوساً ، بتمثيل أشخاص يرتدون الألبسة اليونانية ، وبعض الجزئيات ، كتكريم ديك أو وجود طفل على ذراع أمه ، فهو مدفن « بيتوزيريس » ، المصري الذي ينتمي الى اسرة كهنة ؛ وقد يكون هذا المدفن سابقاً لفتح الاسكندر أيضاً .

تجديد الفن اليوناني  
سيطر الفن اليوناني سيطره لم ينازعه فيها منازع ، ولكنه خضع لتجديد عميق الجذور . بيد ان ذلك لا يعني أنه نقل عن الفنون الشرقية فوق ما نقلت عنه . ويفسر تحولاته ، التي دلّ عليها تطوره السابق ، الظروف المختلفة التي كانت على نشاطه ان يبرز فيها .

نشأ التجديد عن المدد الذي وفرّه ، لبعض النزعات الظاهرة منذ أواخر العهد الكلاسيكي ، الميل لاحتساس جديد . فادخلت على الفن المعاني الروحية والقدرة على التأثير الديني . فاصطبغت الوجوه ، وحتى المآظر الطبيعية أحياناً ، بصبغة صوفية . ولم يكن كل شيء ، من جهة ثانية ، من النوع نفسه في الميل العاطفي الذي أعرب عنه زين أقل اهتماماً من ذي قبل بالتناسق المنطقي . وكان من شأن التأثير ان ينقلب اضطراباً وعنفاً ، حتى بشكل خارجي . فاستفاد الفن من ذلك عند الاقتضاء ، غير مقتصر على إعادة الأزمات والآلام النفسية ، باحثاً في قوّة التأثير والضوء عن وسيلة للتعبير عن هوى النفس .

تحسنت الظروف المادية للحياة الفنية تحسناً عظيماً . فمنذ العهد الكلاسيكي شرعت المدن اليونانية في التزين والتجميل . واستمرت هذه النزعة ، لا بل توطدت ، وخضعت لها المدن الجديدة العديدة في الشرق على غرار مدن اليونان القديمة ، واعتزت كلها بهذا التنافس . وأفضى نمو البورجوازية الى ازدياد عدد الزين الميسورين الراغبين في البذخ الكمال واللذة في الحياة الخاصة والعامة . فنتج عن ذلك ازدياد عظيم في الطلب وارتفاع في عدد الفنانين المهنيين الذين غدت حياتهم اليومية اكثر سهولة ، واكثر ازدهاراً في غالب الأحيان . غير ان جودة المصنوعات قد تدنت دوماً ريب بفعل ظهور وانتشار ما يمكن تسميته بالنأذج القياسية الموافقة لأذواق طبقة اجتماعية أمست اكثر عدداً من ان تبقى نخبة ثقافية واصبحت هي نفسها « قياسية » ، اذا جاز التعبير ، إذ اننا نراها منشابهة جداً في جميع مناطق العالم اليوناني .

أجل كان هنالك ، في الوقت نفسه ، زين آخرون مولعون بالثقافة العليا ومتمتعون غالباً بالوسائل اللارمة لبلوغها ، يطلبون من الفنانين ارضاء أذواق اخرى اعظم رقة ، أعني بهم الملوك وبلاطاتهم . وقد انطوت طلباتهم على البذخ والعظمة ايضاً اللذين من شأنها اعلاء شأن جلال السلطة . ولكن التربية التي أعنتي بها اعتناء خاصاً منذ ان استطاعت السلالة تأمين بعض الاستقرار ، والبطانة التي حرصت على استمالة اولئك الذين يستطيعون ، بفعل شهرتهم ، تجديد حكم الملك ، قد أدخلنا عليها مشاغل وتصنّعات تفوق الى حد بعيد تلك التي اكتفت بها البورجوازية

المدنية . وقد حلت نصرة الفنون هنا كافة مشاكل الفنانين المادية حلاً أكثر شمولاً منه في المدن ، غير انها قد وجهتهم شطر تحقيقات ، اما فخمة واما بالغة في الدقة ، لم تكن دون غيرها مناقضة لتحقيقات العهد السابق .

## ١ - هندسة العمارة

كان باستطاعة هندسة العمارة الهلينية أن تنقل عن الشرق القوس والعقد الابنية الكبرى والقبة مثلاً . غير انها ، على معرفتها بها ، لم تستخدمها إلا نادراً جداً ، متمسكة بالاساليب الكلاسيكية التي حصرت جهودها في اتقانها . واذا كان عدد الابنية المشيدة آنذاك عظيماً جداً فلم يأت سوى القليل منها ، في تصميمه وتحقيقه ، ببعض الجدة . وما تجديده هندسة العمارة اليونانية ، خصوصاً ، سوى في جمع العناصر القديمة لتحقيق مجموعات عظيمة .

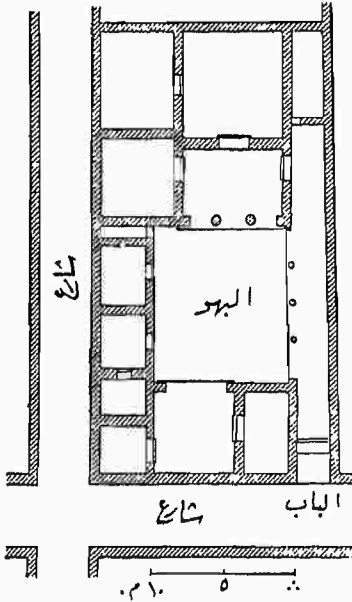
يبرز هذا الاستمرار في طراز المعبد الذي شيدت منه نماذج لا تحصى بسخاء أمثلته مصطلحات التقوى الرسمية . والجدير بالملاحظة ان الفنانين ، ان هم اعتمدوا في بناء المعبد مواد وتزييناً غالباً ما تم عن غنى نلمس فيه التباهي ، لم يعودوا به الى القياسات الضخمة التي أهلها الذوق السليم في العهد الكلاسيكي . أما تصاميم المعابد الكبيرة التي عكفوا على تنفيذها ، دون التوصل الى إتمامها قبل زمن طويل ، أي في القرن الثاني بعد المسيح للقسم الأكبر منها ، فقد وضعت أقله في القرن الرابع ، كتصاميم معبد زفس الاولمي الذي يعود الفضل في الشروع فيه ، في أثينا الى بيسستراتوس . وقد يفرض هذه التصاميم أحياناً استخدام بقايا أبنية سابقة تهدمت عرضاً .

وما لا ريب فيه ان الأبنية المستهجنة الطراز قد بقيت نادرة جداً . ولعل أغرب مثل عنها ، أبرزته اعمال التنقيب ، هو معبد « ديديموس » الذي تهدت « ميله » إعادة بنائه منذ الاسكندر وواصلتها طيلة قرون . بلغت قياسات أساسه ١١٦ × ٥٢ مقابل ٧٠ × ٣٠ للبارثون . وانتصبت أمام مدخله عند وجه البناء اعمدة اشبه بالحرج بسبب كثرتها ، موزعة على خمسة صفوف ؛ واحاط بالبناء صنفان آخران ايضاً . وفي داخل الجدران ، ادّت اثنتان وعشرون درجة تتجه الى الاسفل الى فناء طلق قام فيه معبد صغير لأبولون . لا يمكننا ، امام هذا الخروج عن المألوف ، إلا ان نفكر بالشرق وبقاعات الاعمدة في المعابد المصرية وبالفناءات الداخلية في معابد شرقية كثيرة . ولكن الى أي تاريخ تعود هذه التأثيرات يا ترى ، ما دام العمل قد تناول إعادة تشييد بناء التهمته النيران ؟ فقد ابقى مثلاً على التماثيل الجالسة القديمة جداً ، العائدة لأسرة البرتخين الكهنوتية ، المرتبة على طول الطريق المؤدية من المرفأ الى المعبد وفاقاً للطرق المصرية التي تحف بها تماثيل ابي الهول والكباش .

وعلى نقيص ذلك فقد برز هنالك طراز جديد ، يوناني بحت ، على الرغم من خصائصه المميزة ، ان لم يكن لمعبد فأقله لعمل هندسي غايته دينية : المذبح الضخم لزفس المخلص في برغاموس . ارتفع على مقربة من اعلى قمة في المدينة ، داخل شبه مربع واسع يحده رواق

مزدوج من جهاته الأربع . وقام المجموع على أساس ذات درجات وادى اليه من جهة الطريق المقدسة سلم عظيم يشارف عليه جناحان من الرواق . ولكن هذا لم يكن بناء بالمعنى الصحيح بل تنظيماً لمساحة خالية من البناء ؛ وفي الحقيقة كان المهندس المعمار ، هنا ، مهندس تجميل .

يبين هذا المثل ان هندسة العمارة الهلينية لم تنفر نفوراً مبدئياً من التحقيقات الفخمة التي من شأنها ان تدهش العقول بقياساتها غير العادية . لا بل كان من المحتم ان تخضع لهذه النزعة التي تتفق كل الاتفاق والوقائع السياسية والجغرافية والمالية السائدة التي اتسع نطاقها الى ما لا حد له . اجل لقد صمم « جبار » رودس المحوِّف كتمثال لـهليوس ، الإله الشمس ، إله المدينة ، وصنع من عدة فدرات ضخمة . ولكن يجب ان نخص بالذكر البرج الثلاثي الطبقات البالغ علوه ١٢٠



الشكل ٢٨ - بيت هلي في بريسا (ايونيا)

متراً الذي شيده المهندس المعمار سوستراتوس الكندي عند مدخل مرفأ الاسكندرية وكان معداً لأن يرشد ، بواسطة النار المشتعلة في قته التي تعكس المراثي لمعناها الى مسافات بعيدة ، المراكب المتوجهة نحو المرفأ . ( انظر الشكل ٢٦ - ص ٤٥٧ ) .

وهناك نزعة تجديدية اخرى في هندسة العمارة الهلينية تفسر هازيادة الامكانات المالية أيضاً . نحن نمجس كل شيء تقريباً عن القصور الملكية التي لم يكشف التنقيب فيها عن شيء حتى الآن . ويجب في ما يظهر ألاّ تتصور أبنية عظيمة ، بل أبنية متنوعة ، زاهية ، مجهزة لرخاء العيش اكثر منه للأبهة الرسمية ، موزعة في رياض غناء فتن الملوك الشرقيين أبدأ بنضارة اخضرارها . والوصف المفصل الوحيد الذي لدينا يعود للسراق المحدث لبطليموس الثاني لمناسبة عيد سلاي كبير ، ولقصر عاظم معدّ لنزه بطليموس

الرابع وبطافته على النيل : وكلاهما مظهر عظيم وتعبير مؤثر عن الملكية اللاجية ، ولكن هذا المظهر وهذا التعبير زائلان او عرضيان لا يبدآن فراغ القصر الكبير الذي احجمت عن تشييده ، لأنه ما كان يستجيب لرغبات ملوكها لو شيّد .

على بقيض ذلك ، أظهرت اعمال التنقيب ، لاسيما في المدن الأسيرية كميله وبرينا ، والبحرية كديلوس ، بيوتاً خاصة لا تحصى . وطبيعي ان المساكن الضيقة الفقيرة التي ازدحمت فيها عائلات الطبقة الشعبية قد ألّقت سوادها الأعظم . غير أنه قد برز الى جانبها طراز سكني جديد درج الكلام معه عن « البيت الهليني » تمييزاً له عن بيت العهد

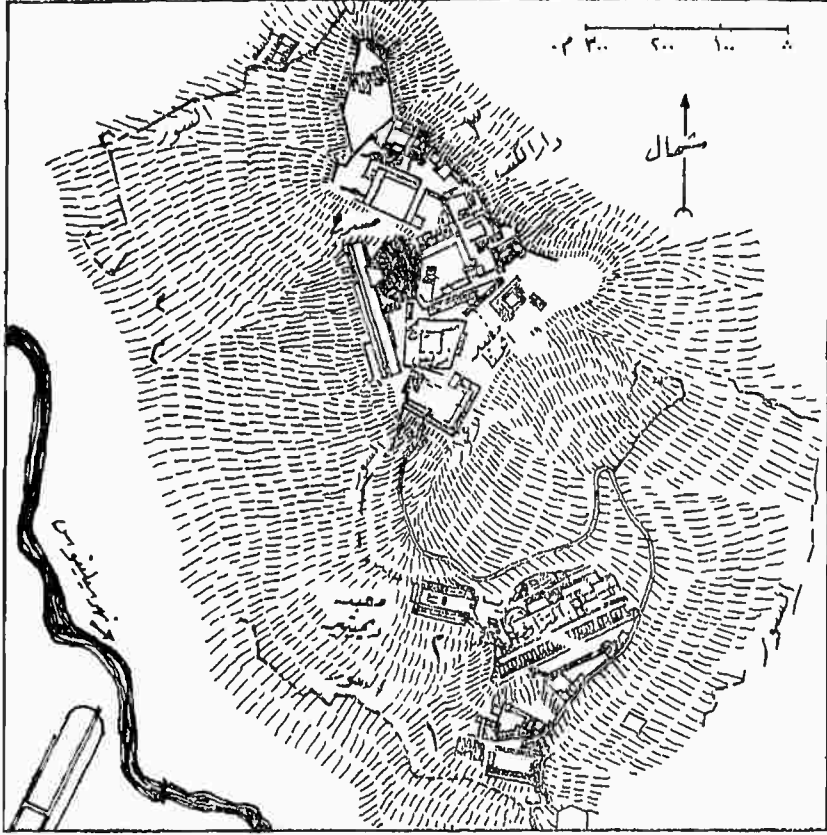
الكلاسيكي . وليس من شك في ان البورجوازية ، الراغبة في سعة العيش والرفاهية ، او الفخفخة احياناً ، والمزودة بالوسائل اللازمة لادخال البهجة على حياتها اليومية ، هي التي روجت اعتماده . يشغل البيت الهليني مساحة اكبر : فمساحات البناء كانت اوسع من ذي قبل في المدن الحديثة وفي المدن القديمة ايضاً التي ضمت اليها احياء جديدة . ولم تفتح فيه نوافذ تطل على الخارج ، بل باب واحد فقط يؤدي الى ممر جانبي مظلم : فالبيت الذي هو ملجأ الحياة الخاصة يجب ان يكون في مأمن من المذال . ولكن الغرف — وهذا هو التجديد الكبير — كانت مفتوحة على فناء وسطي مجهز في الغالب برواق ذي أعمدة يقي من المطر والشمس ، او اقله ، ببعض الاعمدة التي تنتصب أمام مدخل القاعة الرئيسية .

كان هذا البيت كبيراً وحسن التهوية . وكان مزيناً ايضاً . فقد رصفت ارضه بفسيفساء ملونة اعتمدت فيها الرسوم الهندسية او مواضيع تزيينية اخرى . وكثيراً ما ألبس القسم السفلي من الجدران بالصفائح الرخامية . وقد أبدل الرخام النادر احياناً ، في دلتا النيل مثلاً ، بالجنس الملون . ولم يكن من النادر ان تزين الجدران برسوم تمثل الحداثق او المناظر الريفية . هكذا نشأ في الشرق المتوسطي ذلك المسكن الخاص الذي سيتوسع ويتزوق مع الزمن ، وتضاف اليه احياناً حديقة كبيرة ، والذي سيفضي الى بيت بومبي الذي تحملنا المقارنات الكثيرة على الاعتقاد بأنه كان يونانياً اكثر منه رومانيا .

المدنية اذا ما نظرنا الى كل مدينة على حدة ، لم يظهر لنا أي تغيير هام في عناصرها التقليدية ، الاغورا والمتزاوف والمسرح الخ ، التي كوَّنت على الدوام الاطار المادي لحياة الاغريق الجماعية . ولكن تجديداً قد حدث مع ذلك : فان هذه العناصر التي كانت مستقلة حتى ذاك العهد قد جمعت كي تؤلف كلاً واحداً وخططت وأعدت وفقاً لرسم عام وحوَّلت الى اجزاء من كل منظم تحقيقاً لأهداف جمالية ومادية . اما قسط الهندسة الهلينية في هذا التجديد فهو مفهوم المدينة : فيبدو انها اكتشفت وجود المدينة ووحدها ككائن مادي لا يختلف في تميزه وتفوقه على مجرد تلاصق الأبنية العامة والمساكن ، عن تميز البولس وتفوقها على مجرد تجاوز الافراد . فنشأ من ثم التجميل الذي برز منذ البداية كفن وعلم وتقنية ادارية .

اذا ما اسننينا بعض المدن التي انشئت في عهد متأخر نسبياً — كمرقأ البيره واولنشوس — اتضح لنا ان المدنية في العهد الكلاسيكي قد بنيت بلا تبصّر ولا قصد ولم يواجه فيها المستقبل كما لم يهتم فيها لغير المشاكل الخاصة الحالية . أما المدن الهلينية ، باستثناء بعضها — كديلوس مثلاً — ، فقد صممت وفقاً لمخطط كان تنفيذه من الأمور السهلة لأنها على الغالب مدن جديدة . وقد أخذ بعين الاعتبار ، في مخططها الهندسي وشوارعها المتوازية المكونة بتقاطعها زوايا مستقيمة ، توسعها اللاحق ، فأفسحت مساحات طليقة للساحات العامة وللأبنية الضرورية لتفتح الحياة الجماعية ، ووزعت الأبنية العامة توزيعاً منطقياً وفقاً للغاية الموضوعة لها . فأوجب ذلك نوعاً من الوحدة

في القياس والقاعدة. غير ان طبيعة الأرض قد أخذت بعين الاعتبار، أقله، لتحديد تخطيط السور وموقع كل من القلعة والمسرح الذي كان من شأن اسناده الى منحدر احدى التلال ان يخفف نفقات بنائه . ومهما يكن من الأمر ، فقد كانت هنالك مشاغل جماعية ، جديدة في كثيرها وشمولها ، أوجب ذوق ذاك العهد النزول عندها .



الشكل ٢٩ - برغاموس الحلبينية

ثلاث مدن اضيفت الواحدة منها الى الاخرى : المدينة السفلى (١) ، المدينة الوسطى (٢) ، المدينة العليا (٣) . وقد استلزم توسع المدينة وانحدارها نحو السهل تعاقب تشييد أسوار أعظم اتساعاً.

مشاغل رفاهية في الدرجة الأولى . فقد حدد عرض اكبر للشوارع ، عشرة امتار تقريباً للشوارع الرئيسية ، وستة الى ثمانية امتار للشوارع الثانوية . ووضعت انظمة للأبنية ، حفظت لنا الكتابات ما تعلق منها ببرغاموس ، قضت بالنظافة والتقيّد بمحد أدنى من المسافات بين البيوت : وقد عين قضاة وموظفون خصوصيون ، نقلت روما تنظيمهم فيما بعد عن الاسكندرية ، مهمتهم السهر على تطبيق هذه الانظمة وتأمين السلامة ليلا ومكافحة الحرائق . واحيطت الساحات العامة المتميزة بالاتساع بأروقة تتفق مع متطلبات المناخ الشرقي ويحلو للكسالى التنزه فيها . وانشئت المجرات والاقنية لتأمين حاجة المدن من المياه . واذا ما عرفت المدينة الازدهار

وساهم الملوك والمواطنون الاثرياء بسخائهم ، برز البذخ بصورة ابنية جديدة ومعابد ومتزاوفات ومذابح وخصوصاً تماثيل برونزية او رخامية غدا عددها في النهاية عظيماً جداً . ومن الجلي ان البورجوازية المدنية المزودة ببيوت انيقة التزيين قد اعارت جمال المدينة الاهتمام نفسه : فكانت للتنافس شأنه على هذا الصعيد ايضاً .

اضف الى ذلك ان التجميل الهليني قد خضع لهمّ جديد هو وقع المنظر العام الذي يحصل عليه بتنظيم المدينة تنظيمًا جمالياً والتوفيق بين مناظر الأشياء البعيدة توفيقاً متناسقاً وتوزيع الخطوط والمسطحات والمجموعات التي تنتج عن هندسة العمارة توزيعاً متوازناً معتدلاً . ويبدو في هذا الصدد ان مدينتين ، هما مكران ملكيان ، قد انشئتا بنجاح كامل . فيها قد حددتا على كل حال لأجيال واجيال من الفنانين ، النقاشين والنحاتين والرسمين ، موضوعين من مواضيع مناظر الخلفية . وهاتان المدينتان هما الاسكندرية وبرغاموس . أما الأولى ، وقد بنيت في ارض سهلية ، فقد أعطت الخطوط والمشاهد التقليدية لمنظر المرافئ الذي ألفه جميع المتوسطين والذي بلغ الكمال هنا بفضل تقدم الاساليب التقنية التي اعتمدت اذ ذاك في كل مكان تقريباً ولكنها لم تعتمد في أي مكان على مثل هذا النطاق الواسع : الجزر الصغيرة والارصفة والبرج المضيء وشتى انواع المراكب ونشاط حركة التحميل والتفريغ ، وتشرف على كل ذلك قم الاشجار الخضراء في الحدائق الملكية وسقوف الابنية العامة . واما برغاموس ، وقد بنيت على منحدر تلة تشرف على سهل يلتقي فيه نهران ونضدت وفقاً لمسطحات تفصل بينها سطوح افقية تتراءى خلالها جدران واعمد وسقوف المتزاوفات والملاعب وتوجت اخيراً بسلام المسرح الحجرية وبأعمدة المعابد ، فقد اعطت المنظر المدني يحرص معناه ، من حيث انها شيدت كستار خلفي في مسرح ، منظوية احياناً على كل معنى العظمة المموسة ومذكرة تذكيراً مؤثراً بالمجهود البشري الذي فرض نفسه على الطبيعة وبلغ الذروة في التعبير عن جميله نحو الآلهة : فان ما بدأت أثينا في اعطاء مثل عنه في منحدر القلعة قد ظهر هنا على نطاق اوسع بفضل اضافة باقي المدينة الى هذه التقدمة التقوية الجبارة . فقد ولد حقاً فن جديد هو في الوقت نفسه نتاج وغذاء احساس جديد .

## ٢ - الفنون التصويرية

ان الظروف العامة التي كان لها أثرها في الفنون التصويرية تختلف اختلافاً  
الظروف العامة  
بيننا عنها في العهد الكلاسيكي .

ويظهر التغيير بنوع خاص في الظروف المادية . فقيام الملكيات الكبرى وسياستها في نصرة الفنون الجميلة وتضخم الثروة والتنافس بين الجماعات وميل الافراد الى الفخفة ، كل ذلك أحدث ازدياداً عظيماً في طلبات المصنوعات الفنية . واليك بعض الأرقام المدهشة المذكورة عرضاً في الكلام عن بعض أعمال النهب . فيؤكد بوليب ان « ألفي تمثال على الاقل » انتصبت

في ثرموس ، المركز الديني والسياسي للاتحاد الايتولي . واستطاع القائد الروماني الذي دخل امبراسيا عنوة ، وهي مدينة في غربي اليونان كانت مغمورة في القرون الكلاسيكية وبقيت ثانوية بعد ذلك على الرغم من انها أصبحت مقراً للملك بيروس في فترة من الزمن ، ان يعرض ويسير لدى انتصاره ٧٨٥ تمثالاً من البرونز و ٢٣٠ تمثالاً آخر من المرمر، تاركاً التماثيل الخزفية في أمكنتها مع انها من انتاج زفكسيس . وضم موكب النصر الذي رافق فاتح مقدونيا ، بولس اميليوس ، ٢٥٠ عربية ملأى باللوحات والتماثيل والمنسوجات الثمينة والأواني الذهبية والفضية والشببية والعاجية . وبدأت المعابد الكبيرة الجامعة ، دلفي واولبيا وديلوس التي اثبتت الكتابات والاكتشافات عظمتها ، وبعض المدن كاثينا ، اكث من أي وقت مضى ، وكأنها متاحف او معارض دائمة . وناقت كافة المدن الاخرى الى بلوغ هذا الهدف وتوصلت كثيرات الى تحقيقه ، لا سيما تلك التي كانت مقراً للملوك فاستفادت استفادة كبرى من سخائهم وتنافسهم في التباهي والظهور .

كان لهذا الكلف العام اثره الطيب في حياة الفنانين المادية وفي مرتبتهم في الطبقات الاجتماعية وفاقاً لتطور شبيه بذلك الذي حدث لمصلحة رجال الفكر كما سنرى . فلم يرتفع عددهم فحسب ، بل زادت ظروف العمل لكل منهم ايضاً . فاستخدموا مواهبهم ، اكثر من ذي قبل ، في معالجة بعض الحاسميات النادرة التينة التي رفعت من شأن مصنوعاتهم في نظر زبائنهم . فظهرت إذ ذاك تجارة المصنوعات الفنية بما تنطوي عليه من نتائج حتمية : تقليد الروائع الشهيرة وارباج الوسطاء وتوسع الاوساط المهتمة للمشاعل الجمالية واتساع اسواق التصريف وتضائل الأوهام الاجتماعية القديمة . وبموازاة زيادة موارد الفنانين ، شملت الشهرة المحدودة اسماء اكث عدداً وبقيت الشهرة الكبيرة مقتصرة على نخبة قليلة العدد . في العهد السابق شدّ فيدياس ، المقرب الى بريكليس ، عن القاعدة العامة ؛ اما اليوم ، فعلى غرار ليسبوس الذي لحق بالاسكندر الى آسيا ، كان لفنانين كثيرين علاقة بعظماء هذا العالم . وزادت دعوات هؤلاء من تنقلات الفنانين التي عممت معرفة المصنوعات والتقنيات الفنية فأسمت إسهاماً عظيماً في الحفاظ على وحدة الفن الهليني .

وهكذا خضع هذا الفن ، بفوارق واشكال خاصة بهذا المركز وذاك، الى نزعات مشتركة موافقة لميول مجتمع قوى التطور المادي والادبي التحامه الاول . اجل سبق لكثير من هذه النزعات ان ظهرت ولكنها انتصرت الآن . فعبّرت واقعية الصورة عن الفردية العامة التي لم ترض ان تنظر الى الانسان نظرتها الى مثال مجرد . وتوافق البحث عن التأثير ، والتعبير عن العواطف الحادة ، والميل الى الجمال حتى الشهواني منه ، والتلهي الزائل ، مع المذهب الذي ناهض مذهب العقلين في ذلك العهد . وبرز اثر الثورة الدينية ايضاً ، فعكس الفن إيماناً يتميز بمزيد من الفردية والعاطفة وتوجه الى النفس والاحساس ، اقله بواسطة موحيات التفسير الصوفي .

وردد هوى الطبيعة والمناسظر نفسه صدىً يختلف عن صدى نداء سكان المدن للآفاق العريضة والماء الجارية والاختضار ؛ فعبّر أيضاً عن تقواهم نحو القوى العظمى سيدة الحياة الأرضية والحياة الثانية .

ويجب من جهة ثانية الى جانب عوامل التجديد هذه ، ان نفرز مكاناً لتقليد الماضي . فان سحر روائع العهد الكلاسيكي لم يزل يفعل فعله في الهواة ، لا سيما الملوك الراغبين في اعلاء مقرهم الى منزلة المناظر التي هي أشبه بالمناحف في اليونان القديمة . فتكونت إذ ذاك قطعة قطعة المجموعات الارثو التي كلفت رؤوس أموال باهظة . غير ان تعذر اخراج الروائع الاصلية من المعابد والمدن قد أرغم على الاكتفاء بنسخها . فارتفع انتاج هذه النسخ ارتفاعاً مطرداً ، لا سيما عندما فتحت اسواق جديدة ، في ايطاليا أولاً وفي مناطق الغرب الروماني ثانياً . فاضطرت مدينة كأثينا مثلاً ، منذ عهد باكر ، الى ان تخصص لمثل هذه الطلبات قسماً وافزاً من نشاط مصانعها ، واذا ما استطنعنا اليوم محاولة تخيل تمثال « أثينا » الذي حققه فيدياس للبارثون ، فنحن مدينون بذلك ، بصورة خاصة ، الى النسخة التي اكتشفت عنه في برغاموس . ومن الطبيعي ان امانة هذه النسخ لم تكن مطلقة ، إذ ان تقنية التقليد مع ما تستلزمه من افراغ في القوالب وصقل لم تكتشف بسرعة وان الفنان قد تأثر بالذوق السائد في ايامه او لم يكبح ، كما يجب الكبح ، جماح إلهامه الشخصي . وهذا ما يحمل اليوم على التردد والجدل في تحديد تاريخ ، حتى تقريبي ، لعدد كبير جداً من القطع الأثرية . وهذا أيضاً ما أوجد ، أقله منذ القرن الثاني ، ردّة فعل بالعودة الى الفن القدم اخذت في البروز شيئاً فشيئاً حتى بلغ منها انها عبرت عن الاهمال حيال النزعات « العصرية » . وليس من شك في ان هذا التطور ، الذي لا يكون حالة وحيدة في تاريخ الفنون ، انما هو ثمن نمو العلم الواسع الذي احتل هو ايضاً ، كما سنرى ، مركزاً هاماً في الحركة الفكرية : فقد حدث كل شيء ، في النطاقات التي لمعت فيها الحضارة الكلاسيكية بمثل هذا السنى ، كأن الحضارة الهلينية شكّت في نفسها فخضعت لتقليد الماضي تقليداً معجباً .

ليس في عداد النقاشين الهلنيين الكثيرين سوى اسماء بارزة قليلة هي بالنسبة لنا اليوم النقاشة غير مجرد اسماء .

واشهرها على الاطلاق هو اسم « ليسبوس » . بدأ نشاطه قبل الاسكندر ، ولكنه غدا النقاش الرسمي لهذا الأخير في آسيا وعرف ان يطبع الصور الرسمية التي نقشها بالملعية سيكولوجية جنببها عبقريته الاصطلاح . وهي هذه الملعية التي تجيز لنا الاعتقاد بأن تمثال « هرميس ازارا » في اللوفر ، الذي تؤكد كتابته تحملها قاعدته انه تمثال للاسكندر ، نسخة عن احدى روائع ليسبوس . ومهما يكن من الأمر ، فان ليسبوس ، ببحته عن الحركة والايقاع ، وبتحليله الحاد للعريكة والعواطف ، قد شق نهائياً ، أمام خلفائه ، الطريق التي سلكها براكسيتيل وسكوباس من قبله .

إذا كان هذا الأخير قد علّم برياكسيس واضع التمثال العبادي الأول لسيرايس ، فإن خاريس ، واضع جبار رودس ، إحدى « عجائب الدنيا » ، وافتيخيداس ، واضع مجموعة إله الحظ في انطاكية ، قد تتلمذا على يد ليسبوس . ولكننا لا نعرف سوى هذه المجموعة بإحدى نسخها التي تتيح لنا تقدير قيمة تصميمها العام : وفرة وبساطة الرموز — تاج الأسوار المسننة ، حفنة السنابل ، السباح الفتي القوي الذي يمثل نهر العاصي منفجراً من تحت الصخر — ، ومعرفة الحركات كما يتضح من تعقيد وطبيعة الوضع الذي يرفع الرجل اليمنى على كتف السباح واليد اليمنى القابضة على السنابل حتى مستوى الرقبة ، بينما تتكوى اليد اليسرى على الصخر ، والفوارق الرقيقة التي تعبر عن الجلال والراحة في جلسة كلها مرونة ، وعن العطف والوقار في وجه يتسم بالعدوبة الحاملة .

بقيت فيما بعد أسماء كثيرة يتعذر علينا أن نربط بينها وبين روائع نعرفها . ومهما بلغ من شهرة هذه الروائع ، كفينوس ميلو وإله نصر ساموتراس الفاتح الذي اهدي تقدمه بعد انتصار بحري أحرز في القرن الثالث أو القرن الثاني ، فإن التماثيل قد كتب لها الاغفال والتباس التوقيت . وهناك عدد لا يحصى من تماثيل افروديت في متاحفنا ، لم تكن صناعتها سوى حجة لتعزية جسم المرأة ، حيرت علماء الآثار ، تشهد بما انطوى عليه الزين الذين اقتنوها من ميل شهواني يفوق حرارة إيمانهم ، وقد تذهب أذواق تماثيل ديونيسوس طفلاً وإفعلاً ، وجلال تماثيل زفس الملتحية ، وعضلات تماثيل هيراكليس القوية المرهقة أحياناً ، إلى أبعد من ذلك لو لم تفرض نماذجها المجيدة امثلة اصطلاحية .

في هذا الفيض من الانتاج ، تراءت بعض النزعات المحلية ، فهل كانت هذه النزعات من القوة بحيث نستطيع الكلام عن « مدارس » كما جازف بعضهم مراراً كثيرة ؟ التعبير مبالغ فيه دون ريب لأن التنقلات الكثيرة قد مزجت فنانيين يختلفون منشأً جغرافياً ، ولأن مدرسة واحدة لم تمارس احتكاراً ، حتى فيما يبدو لنا يمكننا أن نجعله مقراً لها . بيد أنه يتوجب علينا الاعتراف بأن هذه أو تلك من النزعات الكثيرة في النقاشة الهلينية قد برزت ، وفاقاً للأمكنة ، في تحقيقات منفردة أو مجموعة على درجة رفيعة من التميز .

وتتحقق هذه الحالة في برغاموس بمزيد من الوضوح ، ولعل ذلك بسبب تأكيد الترجيحي من نسبة الروائع الصادرة عنها . كان الملوك الاطاليون يهون روائع العهد السابق ويقتنونها ، وقد أسسوا مدينة — متحفاً لا تضاهيها مدينة في العالم الجديد آنذاك ، فأكثروا من الطلبات لتزيين عاصمتهم ولتوزيع العطايا الثمينة المفيدة لدعائهم على عدد من المدن اليونانية في أوروبا وآسيا . وقد استفادوا منها للاحتفال بنزاعاتهم مع الغلاطيين السكتيين الذين غزوا شمالي اليونان وأقاموا في قلب الانجاد الأناضولية فأرهبوا الجوار بسجسهم النهاب . ولم يكن ذلك دون بعض التساهل ، إذ ان السلالة ، بعد أن وجدت فيه فرصة لتوطيد سلطتها وتوسيعها ، لم تتردد في

استخدام الغلاطين ضد اغريق آخرين ، ففسرت هذه النزاعات كصراع الحضارة ضد البربرية . فأحييت بعض النقوش هذه النزاعات احياء مباشراً وأشارت اليها نقوش اخرى اشارة رمزية بواسطة مشاهد ميثولوجية او تاريخية . وهكذا فان بعض المجموعات ، في اسفل الجدار الجنوبي من قلعة اثينا ، قد مثلت ، لا هزيمة الغاليين على يد ابطال الاول ، بل هزيمة الجبابرة ايضاً على يد الاولمبيين وهزيمة الأمازون والفرس على يد الاثنين . وكذلك فان صراع الجبابرة هو الذي أوحى ايضاً موضوع نقوش الافريز الكبير في مذبح برغاموس .

وهكذا فقد استقر مثال افصى نجاحه الى انتاح المزيد من نسخه ، هو طراز الجندي العالي ، المحارب ، الجريح ، المشرف على الموت ، المنتحر بعد قتل زوجته كي لا تقع في العبودية ، المخيف بعريه وشعره الأشعث وهمته القعساء ، المؤثر بجيلائه في الشقاء ، القادر بعد كل حساب على ارعاب وطمأنة المدنيين الهانئين بسعة عيش مترفة . ومع ذلك فان الانتاج الأعظم هو الافريز الذي ازدانت به ، على ١٣٠ م طولاً و ٢,٣٠ م عرضاً تقريباً أساس مذبح زفس الضخم في برغاموس . فان هوى النفس الذي يبلغ فيه حدّ العنف المفرط في المحاربين يتمثل في هيجان الأوضاع وتشنج الأوجه والعضلات المتكشفة في مجهود حاقد . وتبرز براعة الفنانين الخلاقة في تنوع الأمثلة البشرية او المسيخة ، وفي قريحة لا تنضب تنوع المشاهد الكثيرة - فحتى الجبار الفتي نفسه يخفض رمحاً أمام جمال افروديت الرائع - ، وفي دقة رسم الأسلحة وحتى الملابس والأحذية . وبالتالي فان النقاشة الهلينية ، على نقيض النقاشة الكلاسيكية وتحفظها الكالج ، تفضى ، بما تنطوي عليه من تفخيم وواقعية فقطة ، الى مأساة قاسية جسدية واخلاقية معاً .

ويبدو مع ذلك ان البحث عن تحريك العواطف قد بلغ أوجه في رودس ، بعد ذلك بوقت قصير . وان اشهر التحقيقات فيها ، اعني به مجموعة لاووكون وابنيه الملتحنين تحت تأثير التفاف الشعبان عليهم ونهشها ، الذي أثار اعجاب ميكال الخلو وليسينع والذي يهتمه تطور الدوق المعاصر بالعنف المسرحي يبدو اسمى تعبير للألم الجسدي في خير بحث تشريحي . فقد استهوى النقاشة الهلينية ان تنقل عن الميثولوجيا مشاهد الاحتضار هذه ، تعذيب « ديركي » - موضوع المجموعة المشهورة باسم « ثور فارنيز » - او موت النيوبيين . وقد حاولت ان تمثل ، تصويرياً ، آلاماً اعتمدت المأساة تمثيلها منذ زمن بعيد ولم تند لها وسيلة من الوسائل غير لائقة بها للتأثير في المشاهد رعباً وتقوى .

اما الاسكندرانية فقد كانت بلا مرأى مركز فن نرعاته أشد تنوعاً . وغالباً ما ينتقص المؤرخون من اهميتها باقتصار انتاجها الممتاز على الفنون المعروفة بالفنون الصغرى . وفي الحقيقة لم يُظهر النقاشون وعماهم ، في أي كان ، على المواد الثمينة - ذهب وعاج وجوهر وحزج - مثل هذا الخيال الخلاق والمهارة التقنية لارضاء بذخ واناقة زين اسمى رقة . غير ان الظرف الرقيق ، المسترخي احياناً ، في كثير من هذا الانتاج ، قد أخفى نوايا ارفع مستوى ؛ فهو قد عبث بتدوين

على كثير او قليل من الغموض والواقعية والصوفية ؛ وقد اوحى ، بكثير من الرصانة ، بثقوى ورحمة خفيتين . والسيئة ، اذا كان هناك من سيئة ، تقوم في ان الابداع في الشكل وغرابة الابتكار تحملان على الاعتقاد بلعبة لا بتأمل مراقب .

ان النقاشة الهلينية أحبت الواقعية فدفعت بها عن قصد الى فن تصويري في الموضوع والاملوحة ، محاولة الارضاء تارة والاضحاك او التعطيف تارة اخرى . وكان الولد لها موضوعاً مفضلاً تؤثر فيه تطهيم الوجنتين والإليتين ، رمز الطهارة الصافية و وعد القوة : فكانت نتيجة هذا التفضيل تباثيل ديونيسوس وصغار آلهة الحب والولد الذي يصارع الاوزة برصانة مضحكة . وقد دعا تقليد الفن المصري القديم الى السخرية الداعبة التي لم تتراجع احياناً امام التصوير الهزلي : اقزام سمجون ، راقصون وراقصات مضحكون ، من شأنهم تفككة هواة اشمازوا من الجمال الفني . فلوحظت الأمثلة الشعبية ملاحظة دقيقة ، المصارعون من الدرجة الدنيا ، والفلاحون ، والشيوخ ، والعبيد ، فاكشفت فيها ظروف انتقادية على شيء مما يثير الاشفاق . وقد حرص النقش الناطيء ، الذي تأثر تأثراً قوياً بفن التصوير ، على وضع المشاهد الميثولوجية ومشاهد الحياة اليومية في منظر مرفأي او مدني او ريفي . ولم ينفصل التمثال الرمزي نفسه انفصلاً كلياً عن الطبيعة ، وانما لنجد الى جانب اولاد يلهون بحرية ، نباتات مستنقعات الدلتا على مقربة من شيخ جليل يمثل النيل: وهذه مجموعة شهيرة اسهمت الى حد بعيد في نشر فكرة تشخيص الانهار، إن لم تخلقها خلقاً على غرار ما فعلته المدن بمجموعة إله الحظ في انطاكية .

التصوير والتخريف والصياغة  
ان ما نعلمه عن تحقيقات فن التصوير الكبرى في العهد الهليني لا يتعدى عملياً ، كما سبق وقلنا عن فن العهد الكلاسيكي ، ما بلغنا عنه بالخبر المنقول . فقد عاش ابييل في عهد الاسكندر ولم يستحق احد من خلفائه ، فيلوكسينوس او ايسيون او ثيون ، مها بلغت شهرتهم ، ان يحاري ذلك الذي حقق التحفة الرائعة التي لم تضاهها تحفة من بعده والتي تمثل افروديت خارجة من الماء وهي تعصر شعرها . وكي نكوت اليوم فكرة عن نتاج هذا الفن يجب ان تنطلق مخيلتنا من بعض قطع الفسيفساء او الرسوم الجدارية الكبانية ، لا سيما في بومبيي ، التي ليس من شك في انها تقليد لما حقق منها في العالم اليوناني .

واننا نرى فيها دون عناء بعض النزعات الظاهرة في النقاشة ، وليس هذا بالأمر المستغرب اذا ما اخذنا بعين الاعتبار اشتراك الفنين لا بل تنافسها في تزيين الأبنية . وهذا ما يبرر موازاة تطورها ، على الرغم من ان المصورين قد سبقوا النقاشين ، كما يبدو ، في اصطناع بعض التأثيرات . وبرز معنى الحركة العنيفة في فسيفساء متحف نابولي التي تمثل هجوم الاسكندر الصاعق على داريوس في معركة ايسوس . وقد قدّمت الميثولوجيا بوفرة المواضيع الحركة للعواطف التي عولجت بالتفضيل على غيرها . ولكن الفنانين لم يهملوا وضع الاشخاص في منظر راعوي او غامض ، في

حال ان الواقعية الدقيقة او التخيل المفتن والمبتكر قد رافقا معالجة الرسوم الرمزية . وكانت للروحانيات وكابوس الموت والفلسفة والأدب أثر في تصميم بعض الزخارف التي يرفع المعبد وتمثال الإله والرمز النباتي او الحيواني من تفهها الراعوي ، وفي تمثيل ربات وحي الأدباء والفلاسفة والعلماء والخاصيات المسرحية والعلمية . وكان من شأن الانصاب المدفنية المصورة التي اكتشف عدد كبير منها في تساليا وفيثيقيا ومصر ان تخرج من الابتذال الاصطلاحي احساناً بفضل طابع الصورة الفردي ، حتى اذا استخدمها زين من الطبقة الوسطى . وكان فن التصوير الهليني على العموم فناً عظيماً من شأنه ان يساعدنا على فهم الفنون الاخرى فهماً افضل فيما لو أحسننا معرفته .

اما فن التصوير على الخزف فقد تقهقر تقهقرأ واضحاً في اعقاب توزع المصانع والحاذب الذي أحدثته مصنوعات ترفية اخرى . فقد فقدت ائينا امتيازها وأنشئت مصانع كثيرة في كافة أنحاء العالم اليوناني ، وحتى في خارجة ، واستخدمت يداً عاملة أقل نجابة ومهارة . أضف الى ذلك ان الزين ، وهم أوفر ثروة ، غدوا يفضلون الأواني المعدنية التي تؤلف أبدأ قسماً هاماً من المغامم التي بهر استعراضها الجماهير الرومانية في مواكب النصر الكبرى غداة حروب الشرق . وقد نقشت على البرونز والفضة مشاهد ناتئة ، ويصح في المواضيع المعالجة ، وفي طريفة معالجتها ، معظم ما قلناه عن التصوير والنقاشة . وهما ايضاً تكشف اثاره الذكريات الفكرية والدينية والمدنية وحتى المأتمية عن ميول راسخة في هواة يتميرون بدوق رقيق . اما الزين المتوسطون فيكتفون بالخزفيات الناتئة التي قلدت الأواني المعدنية وازدانت بالمشاهد نفسها وعرفت إذ ذاك رواجاً مطرداً . فلم يعد الحرف مادة لفن مستقل بل غدا تدريجياً بديلاً رخيص الثمن للمعدن .

حدث الشيء نفسه للتماثيل الصغيرة ايضاً . ففي بيوسيا وغيرها ، وفي آسيا الصغرى بنوع خاص ، ما زالوا يصنعونها بالتراب . ولكن دقة صنعها تدنت فأكثرها ، الى جانب البورجوازيات الأنيمات والفتيسات النصرات ، من تماثيل مستهجنة تستهدف اثاره الضحك . فليس من ريب في ان مستوى الزين الاجتماعي قد تدنى ايضاً ؛ وزاد تقدم اليسار من طلب مصنوعات تكون مادتها أرفع ثمناً .

لذلك أصبح الحد الفاصل بين هذه الصناعة والصياغة غير واضح تماماً . واحتاج سبك المعادن من برونز وفضة او ذهب والعاج والزجاج والجوهر ، ونقشها وتنزيلها ، الى قريحة ومهارة وتقنية فنانين في خدمة أعلى الطبقات الاجتماعية . وتفوقت الاسكندرية على برغاموس ومدن فينيقييا في هذا الانتاج الشرقي . فان عظمة البلاط اللاجى ومبالغته في الترف ، اللتين قامتا على ثروة لم يضاهها ثروة في أي مكان ، قد خلقتا نطاً يفسر نجاحه التصديرات البعيدة - اكدشت أو اوان زجاجية اسكندرية حتى في افغانستان - والأثر المستمر الذي فعل فعله بعد ذلك في ذوي الثروات من سكان روما . احل ان في هذا النمط محاكاة وتصنعاً واستهجاناً . ولكن فيه ايضاً ، في بعض الأحيان ، شعوراً رقيقاً يرافقه ثقافة وتدين ليسا بسطحيين . ويظهر هذا الشعور نفسه

على وجه بالغ الصفاء تعزوه بعض روائع النقود الذهبية الى بعض ملكات البطالسة .  
فقد توصلت هذه الحضارة ، أقله في أرفع نجاحاتها كالأ ، الى تشريف استخدام المواد التي  
وفر لها فتح الاسكندر امتلاكها .

### ٣ - الحياة الفكرية

كثيراً ما يُبخس حق الحياة الفكرية، في العالم اليوناني ، بتجاهل حيويتها وتجدها . اجل  
انها لم تعط نتائجاً أدبياً عظيماً ، ولكن قوة الفكرة وجرأة الرأي لم يعوزها . ولا نستطيع ،  
اذا ما أردنا اصدار حكم شامل ، ان نتكلم عن تدني القوة الخلاقة ، بل عن اتجاهها اتجاهاً آخر  
فقط . أضف الى ذلك ان هذا النطاق هو الذي اثبتت فيه الحضارة الهلنسية قدرة كلية على  
الاستساغة .

#### ١ - رجال الفكر والمجتمع الجديد

لم يكن تأخر البولس ليبقي دونما أثر . وليس من المستغرب مثلاً ان تزول  
الظروف العامة الفصاحة السياسية والقضائية بانتهاء القرن الرابع لأنه لم يبق في الظاهر ظرف  
واحد من الظروف التي دانت لها بنشأتها وسناها .

قدّمت الملكية ، منذ ذاك العهد ، إطاراً جديداً فرض تكييفاً خاصاً وأحدث كثيراً من  
الموجبات والتسهيلات . فنصرة الآداب حدثت من حرية المؤلف او وجّهتها . وبلغ من السلطة  
المطلقة أحياناً ان لاشتها ، واننا نعرف بعض حالات سببت فيها الانتقادات اللاذعة موت الشعراء  
بعد تعذيبهم . ولكن العلائق طيبة اجمالاً ، وعلى فوارق كثيرة ، على كل حال ، تتفاوت بين  
التملق والكرامة عند هذا ، وبين التنازل والاعجاب عند ذاك . وكثيراً ما لعب التنافس دوره  
بين الملوك في اجتذاب فيلسوف او كاتب شهير ، وقد حدث في نهاية وليمية من الولاثم ان منح  
انطيوخوس الثالث هدية ولقب « صديق » لشاعر ألقى ابياتاً من الشعر بعد ان رفض الرقص  
مدججاً بالسلاح على غرار المدعويين الآخرين . وقد تألف البلاط الملكي على العموم من افراد على  
ثقافة عالية لم يكن اعتدادهم بظرفهم الأدبي مجرد ادعاء فقط ؛ فهم قد يتصنعون ، ولا ريب في  
ذلك ، ولكنهم يدركون خير ادراك النوايا الخفية التي ينطوي عليها القلب والقلب على السواء .  
وحلّ اللطف والرفقة فيه محل الشدة الحازمة التي كانت توافق في الماضي جمهور المواطنين الحشنيين .  
واذا تأتت من ذلك بعض الضرر فيجب ان لا ننسى المساعدة المادية الكبرى التي منحت للأدباء  
والعلماء والأعطيات السخية التي سهلت معيشتهم والمؤسسات التي سهلت أبحاثهم .

نتج عن ذلك ، على غرار ما حدث في الحياة الفنية ، ازالة المركزية بشكل بيّن . ففقدت

أثينا نفوذها الفكري السابق . أجل انها ما زالت مدينة جامعية شهيرة بمعاهد الفلسفة والبيسان التي أخذت العائلات الثرية ترسل اليها ابناءها لإكمال تربيتهم . وقد تباهى الملك المقدوني انتيغونوس غوناتاس بإعلان ما هو مدين به لإقامته يافعا في أثينا وللمعلمين الذين تتلمذ عليهم . ولكن لأثينا منافساتها حتى على هذا الصعيد ؛ فان شهرة رودس مثلا كادت توازي شهرتها . وقد تأثرت أثينا ، بنوع خاص ، في البحث العلمي عموما وفي اكثر التحقيقات الفكرية والأدبية ، باستثناء الفلسفة والمهزلة ، بمنافسة العواصم الملكية الكبرى التي كانت أوفر ثروة وافضل تجهيزا وأقرب الى العالم الجديد . وكانت الاسكندرية وبرغاموس على الأخص بفضل مجموعات المخطوطات في مكتباتها وسخاء ملوكها ، أقوى استالة وأبهر لمعانا : فلم تعد أثينا « مدرسة اليونان » ، او مدرسة العالم اليوناني المتسع على الأقل .

هناك سبب آخر من اسباب التبدل ، اعني به امتداد وانتشار البورجوازية المتوسطة في المدن . فلم تبلغ هذه الطبقة الاجتماعية إلا نادرا مستوى ثقافيا عاليا . ولم يستهوها التصنع المفرط الدقة الذي قد يستهوي المقيمين في البلاطات . ولكنها كمجموع احترمت الامور الفكرية . تمثل الاغريقي « الوسط » في العهد الكلاسيكي بالفلاح الذي لم يكن اميا لعمره ، ولكنه كرس بالضرورة ، منذ عهد باكر في حياته ، شطرا كبيرا من مشاغله للنشاطات البدوية . اما منذ اليوم فقد تمثل ، اقله في الشرق ، بالمديني الميسور ، الملاك ، التاجر ، او الموظف ، الذي يتصرف بمزيد من اوقات الفراغ دون ان يبقى عاطلا . ويفسر هذا التطور تحسن المصير المادي وبالتالي ازدياد عدد من يتعاطون نشاطا فكريا . وقد أثبت هذا النشاط انه لم يكن قينا بتغذية متعاطيه فحسب ، بل بإيلائه ، بصورة شبه آلية ، حدا أدنى من المكانة الاجتماعية .

ان تعلّق الاغريق بحضارتهم المتفوقة ، سواء انتسبوا الى الطبقة العليا أم الاغريق والشرقيون الى البورجوازية ، قد حدا من الاقتباس عن الحياة الفكرية في الشرق .

م يظهر الاغريق عموما ، حيال هذه الحياة ، مزيدا من الفضول ، مع ان كل شيء قد توفر ، لا لتشجيعها فحسب ، بل لفرضها فرضا ايضا . فقد جمع مانيثون احد كهنة هليوبوليس ، بإيعاز من بطليموس الأول ، كل ما كان معروفا عن السلالات الفرعونية ، ولا يزال الترقيم الذي اعتمده متبعاً حتى اليوم من قبل المعاصرين . وقد قام بالعمل نفسه « يبروز » احد الكهنة البابليين تلبية لطلب الملك السلوقي انطيوخوس الاول . ولكن الاغريق لم يقرأوا مؤلفاتها ، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأساطير التي ما زال هؤلاء يتناقلونها . وحتى في القرن الاول قبل المسيح ، اي بعد معايشرة طويلة ، لم يتردد اسكندر بوليبيستور ، عندما وضع تاريخ اليهود ، في جعل موسى امرأة سوية . وقد بقي محدودا ايضا الاقتباس عن العلوم الشرقية المشهورة بتقدمها لا سيما علم الفلك . اعتمد اللاجئون والسوقيون الروناتين المصرية والبابلية ، ويتيح لنا اليوم استخدامهم الرسمي لهما ان نحدد تواريخهم بدقة تامة ، شريطة ان تكون هذه التواريخ قد بلغتنا كاملة .

ولكن الاغريق في جميع المناطق الاخرى قد اكتفوا بروناتهم التقليدية على الرغم من تأخرها . ولم ينتشر حساب خسوف القمر ، الشائع في المعابد البابلية ، إلا في وسط نخبة يونانية محدوده العدد : وحتى في ٢١ حزيران من السنة ١٦٨ ، ألقى اختفاء القمر الرعب في الجيش المقدوني .

فماذا نقول بعد ذلك عن جهل أحاطوا أنفسهم به ، عن قصد ، حيال امور الهند يا ترى ؟ كان الاسكندر ، مع ذلك ، قد تجاوز نهر الهندوس ؛ ولكنه مع رفاهه قد اكتفى بالغرائب السطحية دون ان يبذل جهداً جدياً لإدراك خوافي الامور . فقد شبهوا بالفلاسفة الوقحين اولئك الذين اطلقوا عليهم اسم « الحكماء العراة » ، متعجبين بنوع خاص من الموت الطوعي الذي اقدم عليه احدهم ، كالانوس ، باعتلاء النار المتقدة ، عندما رفض الاضغاء الى الأطباء اليونانيين في معالجة مرض اعتبره هو غير قابل للشفاء ، بعد ان التحق بالجيش ، وهو في طريق عودته ، حتى بلاد فارس : وكانت الدهشة كبيرة ، بعد موت الاسكندر في بابل ، من انه وعد الملك بأثر يراه ثانية في هذه المدينة . وسنحت بعد ذلك فرص اخرى . فقد اقترب بعض الملوك السلوقيين من الحدود الهندية . واستحضر احد سفراء سلوقس الاول ، ميغاستينوس ، كتاباً غنيا بالملاحظات الدقيقة والتصويرية حول الرحلة التي قام بها حتى عاصمة المملكة المورية ، « باتاليبوترا » ( بانثا ) على نهر الغانج ، حيث استطاع ان يرى بعض البراهمة . وطلب احد ملوك الهند ان يرسل اليه بعض النبيذ والتين واحد الفلاخفة . وفي أواسط القرن الثالث ، اوفد آخر ، يدعى « أسوكا » ، وهو بوذي مولع بالتبشير ، مرسلين الى انطيوخوس الثاني وبطليموس الثاني وحتى الى « انتيفونوس غوناتاس » في مقدونيا والى « ماغاس » في كيرينا . ولكن هذه الاتصالات لم ترتد سوى اهمية عرضية .

كان الاغريق ، المقيمون في شرقي ايران ، الذين يبدو ان عددهم قد أولاهم مركزاً على بعض القوة في بلاد البختيار ، افضل استعداداً لمعرفة الهند . وقد استفاد بعض زعمائهم من الخطاط الامراتورية المورية وتوصلوا الى ان يقتطعوا لهم ممالك في البنجاب . وكان « مينانديروس » اشهر هؤلاء الملوك الهلنيين الذين تولوا الحكم في بلاد غربية . وتدعوه النصوص الهندية ميليندا ، ويظهره احد هذه النصوص ، « قضايا ميليندا » ، مستعلماً الحكيم « ناكاسينا » عن الديانة البوذية . ولكن المملكة الفارتية الفتية ، منذ هذا التاريخ ، قد اندفعت الى الجنوب من بحر قزوين وقطعت الاتصالات بين اغريق الشرق الاقصى ومواطنيهم في جوار البحر المتوسط . ولم يعد باستطاعة التأثيرات الفكرية ان تنتقل الى هؤلاء : لذلك فان الحضارة الهلينية ، من حيث هي لم تعرف الهند ، لم تقتبس عنها شيئاً ذا اهمية حقيقية .

اما الشرق المتوسطي او بلاد ما بين النهرين فيجب الاعتراف بأن الحياة الفكرية فيها كانت على العموم اضعف من ان تستهوي الاغريق . وعلى نقيض ذلك فان الحضارة اليونانية هي التي استألت الكثير من الشرقيين . ويكون هذا الانحطاط وهذه الاستساعة مظهرين من حدث

اجتماعي واحد لان الاستغراق قد حصل بنوع خاص عند النخبة البلدية التي كثيراً ما أغرتها السلالات ، ولدى سكان المدن الذين كانوا على اتصال بالبورجوازية اليونانية . ويستحيل احصاء اولئك التشرقيين الاصليين الذين تكلموا وعلموا وكتبوا باللغة اليونانية بحيث لا يمكن تمييزهم عن الاغريق الحقيقيين . اجل كان عددهم قليلاً في مصر بسبب سياسة التمييز العنصري التي طلع بها وطبقها البطالسة الأولون على الأقل ، وفي بلاد بابل بسبب بعدها وبفعل الفتح الفارقي . ولكنه كان غفيراً في آسيا الصغرى وسوريا وفينيقيا وفلسطين على الرغم من العراقيل التي وضعتها الديانة في طريقهم . ويكفي هنا ان نذكر زينون الذي ولد في كيتيون من اعمال جزيرة قبرص والمحدث من وسط سامي ولم يتوصل يوماً الى احسان التكلم باللغة اليونانية ، ولكن ذلك لم يمنعه من ان يؤسس المدرسة الرواقية الكبرى التي لا يُرى فيها شيء مما هو شرقي . وهناك مثل آخر كلتي الوضوح هو اضطرار يهود الاسكندرية لنقل كتب التوراة العبرانية الى اللغة اليونانية ؛ فان هذا النقل لم يتم ، كما جاء في التقليد ، على يد السبعين ، بناء لأمنية بطليموس الثاني الملحق ، بل اقتضى زمناً طويلاً واستجاب لرغبة محتمة اعرب عنها اليهود المقيمون في مدينة يونانية بعد ان بدأوا ينسون استعمال لغتهم القومية . لا بل ان اكتشافاً حديث العهد ( ايلول ١٩٥٢ ) حصل في مغارة قريبة من الشاطئ الغربي للبحر الميت يثبت ان استعمال التوراة اليونانية قد جرى في فلسطين نفسها احياناً .

كان نشر الثقافة اليونانية ، إذن ، جدّياً في كافة انحاء الجزء الغربي من امبراطورية الاسكندر القديمة ، وتقع على الاغريق انفسهم ، كما رأينا ، مسؤولية حصر ذلك في بعض الفئات الاجتماعية . فهل تعمّص هذه الفتوحات الفكرية عن انضواء اغريق كثيرين الى الديانات الشرقية ؟ يستحيل في الحقيقة احصاء او وزن هذه الارتدادات التي لا تتنافى على كل حال بمجرد حدوثها في اتجاهين متعاكسين . وحين بسط السيطرة الرومانية ، وحتى طيلة عهود الامبراطورية الاولى ، كان ما بقي من الشرق الهليني ، في الواقع ، سائراً تدريجياً نحو حضارة يونانية في الحقل الفكري ، ونحو حضارة شرقية في الحقل الديني . فليس من سبيل والحالة هذه الى الشك في نجاح اليونان على هذا الصعيد ، وهو نجاح غير مقصود على كل حال . ويبرز هذا النجاح اكمل منه في الحقل الفني . فما زألت هنالك فنون محلية تقليدية بفضل مساندة الديانة ، في حال ان جميع الشرقيين الذين اضطروا الى التفكير والتعبير عن فكرهم قد انضوا الى الثقافة اليونانية ؛ ويزيد هذه المكاسب الأدبية ، التي حققت دونما اكراه او ضغط ، من رصيد الحضارة الهلينية . اجل انها لم تعد منطوية على نبيل ونقاوة الحضارة الكلاسيكية . ولكن الحضارة الكلاسيكية نفسها تمكث منذ قبل الاسكندر وخضعت لتطور مماثل حتى في اليونان القديمة حيث كانت بعيدة عن الإعداء الشرقي . ويجب بنوع خاص ان لا نحكم باستخفاف على حضارة حققت مثل هذه النجاحات لدى شعوب مغلوبه على نفسها : فهذه الحالة من الندرة بحيث لا يجوز ان نمر بقدرتها على الاستساغة مرور الكرام .

## ٢ - في خدمة النشاط الفكري

الوحدة الفكرية : امتدت الحياة الفكرية الهلينية في الشرق وتفاوتت على الحضارات المحلية ،  
غير مقتبسة عنها سوى القليل ، فليس من العجيب من ثم ان تحتفظ بوحدة  
ال « كيني » Lu « koinè » تستحق الاعتبار . وتوطدت هذه الوحدة عن طريق اللغة بنوع خاص .

لم يكن هنالك بعد لغة يونانية ، بل لهجات يونانية ، وحتى عدة لغات كتابية . ولم يكف  
ان يكون كثير من الكتبة المشهورين اثينيين او ان يعيشوا ويكتبوا في اثينا حتى تصبح اللغة  
الاتيكية اللغة الادبية الوحيدة : فقد كتب بنذاروس باللغة الدورية ، وهيرودوتس ، على الرغم  
من الروابط التي شدته الى اثينا ، باللغة الايونية . فاللغة الاتيكية لم تكن سوى اعظم لهجات  
« الثقافة » سحرآ في العالم اليوناني . ولذلك فهي قد اتجهت نحو الانتشار ، يساعدها في ذلك  
تقبلها لبعض خاصيات اللغة الايونية ، ولا سيما اهمية الدور الذي لعبته اثينا في الحياة السياسية  
والحضارة العامة . وهكذا فقد جعلت منها السلالة المقدونية ، قبل الاسكندر برمن بعيد ، لغة  
القصر والادارة : وقد تكلمها الاسكندر في حياته الرسمية واليومية مقصراً تكلم لغة مواطنيه  
القومية على بعض الظروف الاستثنائية .

قدمت اللغة الاتيكية ، بفضل ذلك ، جوهر ال « كيني » ، اللغة « المشتركة » ، التي  
تكوّنت تلقائياً وباكراً جداً بعد الفتح . واستجابت هذه اللغة لحاجات ملحة في عالم تجوّل فيه  
الاغريق بحرية ، دونما تمييز في مناشأهم الجغرافي ، وألفوا فيه جماعات جديدة يوحدتها الشعور  
بتضامنهم في وجه البلديين . ولم تكن هذه اللغة ، على كل حال ، اللغة الاتيكية الخالصة . فقد  
ظهر فيها اثر اللهجة الايونية ، اوسع اللهجات انتشاراً في الشرق منذ زمن بعيد . واتجه الصرف  
والنحو اتجاهاً دائماً الى التبسيط ، بالاستغناء عن بعض الصيغ المعقّدة النادرة الاستعمال . اجل  
ان الادارة اللغوية قد فقدت بذلك بعض مرونتها وبعض ميزاتها الدقيقة . ولكنها اسهمت اسهاماً  
فعالاً ، حتى أواخر العصور القديمة ، - اذ ان روما قد تركت هذا التحقيق الهليني لبيزنطية - ،  
في خلق واستمرار وحدة العالم اليوناني الادبية والفكرية .

كانت الكيني اذن لغة الدواوين والادارة ، ودرج استعمالها في المدن المجددة والجديدة ايضاً .  
وقد جعلت الاغريق المسافرين او المهاجرين ، شأنها في ذلك شأن وحدة الاخلاق وتشابه  
الزخرف المادي في البيوت والابنية العامة ، يخالون انهم في بلادهم ، حتى في مناطق الحدود  
النائية . وقد سهّلت في الحقيقة انتشار الحضارة اليونانية في اوساط الشرقيين ، ولكنها لم تغلب  
في الارياض خاصة ، على السنة لم يأخذ الاغريق على انفسهم استئصالها استئصالاً جذرياً . واذا  
حدث ان اندثرت اللغات القومية القديمة في الشرق الآسيوي - باستثناء اللغة المصرية - ، فقد  
تم ذلك ، في الطبقات الاجتماعية الدنيا ، لمصلحة اللغة الارامية . واستمرت نجاحات الارامية  
داخل المملكة السلوقية على الرغم من انها لم تبق لغة الادارة . ولم تبق اللغة العبرانية في فلسطين

الالكلفة لاهوتية، بينما أصبحت الارامية في النهاية لغة الشعب . ولكن لغة « السبعين » ولغة الاناجيل ، عملياً ، هما « الكيني » نفسها . وكذلك فان الرومان ، هواة الحضارة اليونانية ، تعلموا وتكلموا وكتبوا « الكيني » .

ثم أمست اللغة الادبية الوحيدة في النثر . أجل لم يحدث ذلك فوراً : فقد احتفظ العالم اليوناني الغربي ، خلال بعض القرون بعد الاسكندر ، باللغة الدورية التي لم يستعملها ثيوكريتوس مثلاً ، على لسان الملاحين الصقليين فحسب ، بل كانت لغة ارخميدس ايضاً . ولكن هذه اللهجات المحلية قد اندثرت تدريجياً او انها لم تستمر إلا بحيلة . وقد استعملت جميع الاوساط المثقفة ، عملياً ، اللغة نفسها ، واذا سهلت هذه الوحدة التنقلات الكثيرة التي قام بها اولئك الذين تفرغوا لنشاط فكري فانها قد ، ساعدت الى حد بعيد على انتشار الثقافة .

يؤلف هذا الانشار احدى ميزات العهد الرئيسية .

انتشار الثقافة

لقد جاء المثل من فوق ، من الملوك والمقرنين اليهم الذين اعتبروا الجهل أمراً مخجلاً لأن المواهب السياسية والعسكرية لا تكفي لتحقيق مثال الانسان . فان هذا المفهوم لم يغرب عن البال حتى في فترة افلات اطماع السيطرة بعد وفاة الاسكندر : فقد برز مؤسس المملكة اللاجسية ، بطليموس الأول ، كاتباً موهوباً وحرراً تاريخ الاسكندر بشكل مذكرات شخصية - إلا اذا كان الامر على نقيض ذلك -- فقدت لسوء الحظ ولكنها كانت ، للمؤرخين اللاحقين ، احدى أهم المصادر فيما يعود لحياة الفاتح وحملته العسكرية . ولم يتلاش التقليد حتى بالخطاط الملكيات : فقد كتب آخر الملوك الاطالين الذي توفي في السنة ١٣٣ بحثاً في علم زراعة البساتين . ولذلك فان الدور الملكية قد اشعت على كافة الطبقات ولا سيما على بورجوازية المدن اليونانية .

وارتدى الاهمية نفسها المثل الذي اعطته النساء في البلاطات الهلينية . اجل غالباً ما اهتمت بعض الملكات عن كُتب السياسة . ولكنهن قد اشركن بالاضافة الى ذلك ، بفضل حرية السلوك التي وفرتها لهن نسبتهن ومنزلتهن ، في حياة القصر الفكرية ، وهذا ما لم تستطعه نساء المجتمع الراقى في اليونان الكلاسيكية ، بعيداً عن مخالطة الرجال . ففي الاسكندرية ، على الاخص ، أكرمهن الشعراء في قصائدهم ، فأكرم ثيوكريتوس ارسينوي ، وكلياخوس بيرينيس . وانشغلت حاشياتهن بمشاغل مماثلة امتدت الى اوساط اكثر اتساعاً . وهكذا قامت تدريجياً ثورة في الاخلاق التي اقصت النساء الشريفات ، حتى ذاك العهد ، عن امور الفكر . فاختلفت بعض الفتيات هنا وهناك الى المدرسة متملصات من الحرم الذي اكتفت فيه والدتهن بتعليمهن ما كانت تعلمته هي بالاختبار . فسببت بعض الحالات نفوراً في الرأي العام ، كحالة « هيبارخيا » التي ضغطت على والديها للتزوج من الفيلسوف الوقح « كراتيس » وعاشت اذ ذاك مثله عيشة علنية وقبلت الدعوات الى الولائم وناقشت الحضور في الفلسفة والآداب . غير ان ابيقور ايضاً قد جمع

بين تلامذته نساء مصونات تزوجت ابنة احدهن من ضابط سلوقي واصبحت نجية لاحدى الملكات . وكان هنالك اكثر من شاعرة ، حتى في مدن اليونان القديمة ، في اللوكريد او في البلوبونيز . لذلك فان بداية تحرر المرأة الفكري يجب ان تدخل بكليتها تقريباً في رصيد الحضارة الهلينية .

ومن حيث ان الثقافة لم تعد وقفاً على جنس واحد ، فهي لم تعد بالتالي وقفاً على نخبة محدودة . ويجب علينا هنا ان نشدد مرة اخرى على اهمية الواقع الاجتماعي الذي تمثل إذ ذاك في انتشار البورجوازية وتطور اذواقها . فقد تكاثرت الطبقة اليسورة في آسيا وحتى في اوروبا حيث اتسع الافق ونشطت العلائق الاقتصادية فحدث شبه اكتشاف لبعض المناطق المتأخرة والمغلقة تقريباً في اليونان الوسطى او الغربية . وقد اجتهدت هذه الطبقة في كل مكان تقريباً ان تترك لأبنائها ، بالإضافة الى امتيازات المواطن اليوناني القانونية ، تربية فكرية تبرّر ، في نظرها ، هذه الامتيازات .

كان هذا في الأساس من تعدد المدارس ، او بالأحرى من إيجاد نظام مدرسي التربية الهلينية أخذت الجماعات تهتم له ، يوزع تعليمياً تحقق حوله الاتفاق العملي . وكان هذا التنظيم المزدوج احد التحقيقات الهامة في العهد الهليني ، وقد اعتمد عملياً حتى اواخر العصور القديمة . حتى ذلك العهد ، اذا ما استثنينا كريت وسبارطة بسوع خاص ، حيث عهد بالتربية الى المدينة دون غيرها ، نظرت المدينة الى التربية كما الى شأن خاص واكتفت بالاقتصار من سوء اخلاق المعلمين . فبدا هذا النظام ، الذي كلف العائلات اموالاً كثيرة ، غير ذي فعالية حتى اذا لم يؤد الى المهذين الفرديين . فعينت مدن كثيرة قضاة خصومين عهدت اليهم مراقبة المدارس ، حتى الخاصة منها ، التي ازداد عددها ازدياداً عظيماً ، واقتصرت استخدام المهذين على العائلات المشهورة بثرواتها الطائلة اي عملياً على العائلات الملكية تقريباً . ويدل هذا التطور ان اهتماماً جديداً قد برز الى الوجود . اجل لم يفكروا بالاعتراف بحقوق الولد ، الذي هو رجل بالقوة ، وبتفتح امكاناته . ولكنهم أرادوا ، بردة فعل طبيعية للدفاع عن حضارة كانت على اتصال بمحضارات اخرى وتباهت بتفوقها وعنّدت في الحفاظ على نفسها ، ابقاء الولد في حصن الاسرة اليونانية التي يوليها نسبه حقوقاً عليه ويفرض عليها واجبات نحوه .

وهكذا يتضح من جهة ثانية . كيف ان الملوك ، كملوك ، قد فوضوا امرهم في ذلك الى المدن : فلم يقدم احد منهم على سن الشرائع في الحقل المدرسي ، لأن التربية تتعلق بالاغريق دون غيرهم ، ولأن المدينة ، نظرياً ، ما زالت إطار حياة الاغريق ، حتى داخل الملكيات . وقد حدث ان حرصت المدن في ظروف غير نادرة ايضاً ، او تظاهرت اقله انها تحرص على ولاء الشباب للملكية بتشجيع تأسيس ونشاط جمعيات « شبان » تؤدي الاكرام ، بأشكال دينية مختلفة ، للملك ولعائلته . ولكن هذه المؤسسات ، شأن كل ما اختص بالعبادة السلالية في الاطار البلدي ،

لم يفرضها الملوك رسمياً. وإذا ما أُتيح للسياسة ان تتسرب الى نظام التربية فانها لم تحتل فيه سوى مركز ثانوي جداً .

لم يبلغ من مشاغل المدينة هذه ان أمنت مجانية التعليم : اذ ان ذلك يقتضي موارد لم تتوفر لميزانية الجماعة . ولكن العائلة قد ارتاحت مع ذلك ، بهذه الموارد او تلك ، اقله من جزء من العبء المالي الذي تحملته وحدها من ذي قبل .

اما مؤسسة الشباب الرسمية فقد كانت مجانية بالضرورة بسبب طابعها العسكري الأصلي . وهي قد اشتهرت في اثينا ، حيث نشأت على ما نرحح ، وتوصلت الى نفوذ عظيم واستقبلت الشبان من سن الثامنة عشرة حتى سن العشرين لتربيتهم تربية عسكرية . ولكن واجب الانتماء الى هذه المؤسسة الذي لم يكن إلزامياً ، على ما يبدو ، إلا خلال فترة قصيرة من النصف الثاني من القرن الرابع ، قد رال وأهمل : ولم يستمر في التقيد به سوى المتطوعين دون غيرهم ، أي بالتالي ابناء العائلات الميسورة . ثم تبدلت روح المؤسسة في العهد الهليني ، فسمح للأجانب بالانتماء اليها . وحلّت فيها التمارين الرياضية في النهاية محل التمارين العسكرية . وظهرت في القرن الثاني المحاضرات الأدبية والفلسفية . فغدت المؤسسة ، من ثم ، بالنظر لسن الدين اختلّفوا اليها ، ان لم يكن بالنظر للمستوى الفكري الذي بلغته ، شبيهة بالحامعات . وقد أنشئ مثل هذه المؤسسة في مدن اخرى كثيرة غير أثينا ، فكانت ، شأنها في أثينا ، مجانية ايضاً ، باستثناء النفقات التي فرضها العرف على الشبان المنتمين الى طبقة اجتماعية عليا .

لم يكن الاغريقي ليتصور التربية دون التدريب الرياضي الذي يجري في المتراف . وكان الانتساب الى المتراف بمثابة شهادة في الحضارة اليونانية التي يتزّن الشاب بها بكبرياء وطيلة ايام حياته ، لا سيما في مصر حيث حرصوا مبدئياً على اقضاء سكان البلاد عنها . ولكن المتراف عدا اذ ذاك مؤسسة بلدية . فأصبح لكل مجموعة يونانية متراف واحد على الاقل يشيّد ويعنى به على نفقتها ويراقبه قاض اختصاصي يطلق عليه اسم « حاكم المتراف » . أما الادارة المالية ، ولا سيما تقدم الربوت للمصارعين ، فقد سهلتها عطايا الاثرياء السخية الذين لم يكن الملوك في المؤخرة منهم . فكان تقدم الزيت او تأسيس وقف معد لتقدم الزيت « للمتراف » او « للشبان » احد الاشكال التي اتخذتها في غالب الاحيان عادة شاملة في الكرم نحو المدن اي نحو مواطنيها اليونانيين .

وقد بلغت ايضاً اخبار بعض الاوقاف المؤسسة للمدارس بها . وهكذا فان الرومانيين قد قمّلوا - مما جعل بوليبي يلومهم - بالنظر لثروة دولتهم والمكافاة التي بعوا بها بفضل هذه الثروة - من احد الملوك الاطاليين حبة توارى ١٥٠.٠٠٠ هكتوليتراً من القمح : فكان عليهم ان يوطفوا المبلغ الذي يتجمع من البيع وبستموا فوائده السوية لدفع احوار المعلمين . اما في بعض الاممكة الاخرى فكان الواهبون افراداً . ومن الطبيعي ان هذه الاعطيات قد استندعت تعيين

المعلمين من قبل جماعة المواطنين التي كان لها الحق ايضاً في عزله . ولكن عدد مثل هذه الهبات ، في ما يظهر ، قد بقي ضئيلاً جداً ، فاستمر اهالي الارلاد في دفع رسوم مدرسية . ولذلك فان المجهود الذي فرضه تعميم وتنمية التربية قد مثل بالتالي تضحية حقيقية من قبل العائلات : وقد برهن الاغريق بقبولها - متذمرين احياناً ، كما نرى ذلك في إحدى مهازل هيرونداس الایمائية - عن الالهية الكبرى التي اناطوها بديمومة حضارتهم .

افسحت هذه التربية مكاناً عريضاً للاهتمام بالتنمية الجسدية التي توفرها تمارين المتزاوف . بيد ان المباريات الرياضية القديمة قد استمرت ودخل بعضها في برامج اغلبية الاعباد المستحدثة الكثيرة : ففي جميع هذه الاعياد مثلاً اجريت امتحانات خاصة للفتيان والشبان . فعدت الرياضة اكثر من اي زمن مضى ، بعد ان جردت تدريجياً عن غايتها العسكرية ، جزءاً لا يتجزأ من تربية الاغريق ؛ وقد حفظ عنها اكثر من يافع طعمة دائمة .

اما على الصعيد الفكري فتظهر لنا الاطماع اليوم على كثير من التحديد . فليس هناك علوم ، او ليس هناك سوى علوم قليلة . وقد اصيب رواج الموسيقى الآلية او الغناء الجوقي ، الذي كان كبيراً جداً في ما مضى ، نكسة اسف لها المحافظون على التقاليد : واذا لم يعرف هذا الفن القائم بنفسه انحطاطاً اذ ذاك ، فانه قد غدا وفقاً على المحترفين . اما الملاحم الهوميروسية فكانت تقرأ وتعلم وتلقى وتستنسخ دون انقطاع ، كما تشهد بذلك مكتشفات لا تحصى بين البرديات المصرية ، وبقيت في الاساس من تربية الولد : وبادراً ما تجاوز درس الشعراء هذا الحد . وفي آخر الدراسة كان الاهتمام يتحول الى علم البيان .

تفوق علم البيان تفوقاً واضحاً في ما يجدر تسميته بالتعليم العالي . فهو بفعل تنوعه ، وعلى الرغم من تدريسه على يد معلمين ذائعي الشهرة احياناً ، ومن التخصص الصارم في قواعده ، قد بقي ناقصاً جداً . اما بين العلوم التطبيقية فقد انفرد الطب دون غيره في اجتذاب الطلاب الى مدارس شبه مقفلة على كل حال اشبه بالجمعيات الدينية من حيث هي ملحقة بمعابد اسكليديوس . وخارج هذه المدارس ، تلقى عامة مهنيي المستقبل علومهم على ايدي اطباء يمارسون مهنة الطب ، اذ ان ممارسة هذا النشاط قد بقيت حرة تماماً . اما التقنيات الاخرى فلم تعلم في اي مكان بسبب استمرار التقليد القديم الذي حرّمها لأنها تقود في النهاية الى نشاط تجاري . ولم تتمثل العلوم المجرّدة الا بالرياضيات وعلم الفلك ، وكان عدد المتخصصين فيها قليلاً ، كما لم يتردد اليها سوى عدد قليل من التلامذة . اما الفلسفة فكان طلابها كثيرين ، مستفيدة في ذلك من النفوذ الذي نعتت به طيلة العهد الكلاسيكي ، لا سيما في اواخره ، بفضل افلاطون وارسطو . غير ان شغفاً عاماً دفع الشبان بالتفضيل نحو علم البيان الذي بلغ الشهرة في عهد السفسطيين اولاً وفي عهد خطباء القرن الرابع الاثينيين ثانياً الذين سبق لهم جميعهم ايضاً ان علموا الفصاحة . اجل لم يعد من شأنه ان يؤدي خدمات عملية كبرى ، بسبب انحطاط الحرية السياسية . ولكن نجاحه لم

يتميز عن نجاح تعليم ايزوقراط الذي مثل علم الادب ، في نظره ، الفلسفة الحقيقية ، لأنه يستلزم وضوحاً في الافكار وبرهنة سليمة وامتلاك فن الكلام الذي هو امتياز الاغريقي على البربري . وقد علم قواعد ، هي اشبه بـ « الوصفات » ، معتمداً ، في وقت واحد ، التعليم النظري ، ودراسة روائع الفصاحة الاتيكية ، واجراء التمارين على مواضيع خيالية لم تلبث ان ألقت مستودعاً كبيراً . فافضى الى تثقيف عقول رشيقة اتصلت بالمثُل العامة ، لا سيما في الحقل الاخلاقي ، وقابلة لأن تقيم البرهان بفن ، ودون تصنع ، في شتى المواضيع ، ومتوخية ، عند الحاجة ، حتى التوصل الى النتائج المتناقضة .

قد يبدو ذلك اليوم موجزاً وسطحياً . ولكنه طابق مثلاً اعلى للانسان المثقف المعد جسدياً وعقلياً للتكيف وفاقاً لشتى المهام التي قد تفرضها عليه الحياة . وقد استمر هذا المثل ، دون تبدل يذكر ، حتى آخر العصور القديمة . ويعود الفضل الى الحضارة الهلانية في توضيح مفهومه وجعله سهل المثال بتشديد نظام تربوي متلاحم الاجزاء .

ما كانت الثقافة المنتشرة هذا الانتشار لتتجاوز ثقافة وسطاً ؛ ومن جهة  
نصرة الآداب والفنون  
مؤسسات الأبحاث  
ثانية ، ما كانت الثقافة التي احدثت ورسخت سوى تراث الاساتذة  
المعطاء . اما التقدم الفكري الحقيقي فقد تمّ على مستويات اخرى  
بالبحث الخلاق الذي تمهده نخبة معينة . لم يخل العالم اليوناني يوماً من هذه النخبة التي وجدت  
إذ ذاك لدى الملكيات الكبرى عضداً مادياً وأدبياً معاً من نوع جديد . وهنالك مؤسسات  
شهيرتان ، المتحف ودار الكتب ، هما افضل مثل عن نصرة الملوك للآداب والفنون وعن التسهيلات  
التي وفرتها لانطلاقة الحركة الفكرية . غير انها لم تكونا المؤسستين الوحيدتين في العالم الهليني .

المتحف ، بالتحديد ، هو معبد آلهات الفنون الحرة التي كان من الطبيعي ان تحظى باكرام  
رجال الفكر . فخصص لمن مذبح على الأقل في حدائق « الاكاديمية » ( المجمع العلمي )  
و « الليسه » ( المدرسة ) حيث علّم افلاطون وارسطو في اثينا . ثم أسس اصدقاء ومعاونو  
وتلامذة هذين الفيلسوفين جمعيات استهدفت رسمياً تنظيم العبادة ، على انها استهدفت في الواقع  
تأمين ديمومة هذه المدارس التي كانت في الوقت نفسه معاهد اجاث ، بشراء وصيانة العقارات .  
وقدمت الدولة الاثينية في أواخر القرن الثالث ، برئاسة الفيلسوف ديمتريوس الفاليري ، الذي  
سبق له واسهم في اعمال خلفاء ارسطو ، كل التسهيلات اللازمة على الصعيد القانوني ، دون ان  
تقدم مساعدتها المالية .

يرجع ان ديمتريوس الفاليري الذي حكم عليه بالنفي والتجأ الى بطليموس الاول في مصر قد  
اقترح على هذا الأخير انشاء مؤسسة شبيهة ، على ما فيها من اختلاف بيّن . فتلقى متحف  
الاسكندرية من الملك مساعدات اكبر ، ولكنه ارتبط ، بالمقابلة ، بالذي احسن اليه . وعوضاً  
عن ان يكون معهد فلسفة ينشر تعليمياً ويتعمق فيه ، فانه قد غدا مجعاً لكتبة وعلماء يعينهم

الملك ويعين رئيسهم أيضاً . ووضعت تحت تصرفهم ابلية مختلفة قائمة على مقربة من القصر معدة لحياتهم المشتركة ولشواطهم . وتعددت الخزائن الملكية كافة النفقات ، فاستطاع الكتبة والعلماء ان يكرسوا وقتهم للأبحاث دونما اهتمام للماديات او لأى واجب آخر . فكرسوا في الواقع وقتهم لمناقشاتهم أيضاً التي سخر منها بعض الهجائين ، بدافع الحسد على الأرجح ، بكلامهم عن « معجون الطيور الذي يوزع بسخاء على العديد من كتبة الدرجة الثانية وأكلة الكتب القديمة التي لا قيمة لها الذين يتخاصمون دونما انقطاع في قفص آلهات الوحي » . وكرسوه احياناً حتى لمجادلاتهم مع البلاط التي كانت السبب ، في القرن الثاني ، في تفرقهم المؤقت . وكانت هذه المؤسسة لا تزال قائمة في القرن الرابع الميلادي ، متحولة الى جامعة على كل حال ، إذ ان أعضاءها كانوا يعلمون رهطاً من التلامذة .

وقامت في الاسكندرية ، على مقربة من المتحف ، مؤسسات ملكية اخرى سهّلت عمل العلماء : حديقة الحيوانات ، وحديقة النباتات ، ودار الكتب بنوع خاص . اما هذه الاخيرة التي أسسها بطليموس الاول ، على مقربة من القصر أيضاً ، فقد أمنت مجموعاتها انماء مطرداً بأن اشترت ، في جميع انحاء العالم اليوناني ، المخطوطات المعروضة للبيع وبتنظيم استنساخ المخطوطات الاخرى : وقد سهّل ذلك انتاج البردي الذي كان وفقاً على مصر تقريباً . فبلغت محتوياتها ، منذ السنة ٢٨٥ ، على ذمة الرواة ، ٢٠٠ ٠٠٠ « مجلد » اي لفافة من البردي ، و ٧٠٠ ٠٠٠ في السنة ٤٨ قبل المسيح ، حين شبّ فيها حريق في ايام قيصر فأثى على جزء منها . وكان هنالك بالاضافة الى هذا العدد ، حوالى ٥٠ ٠٠٠ مجلد في دار كتب ثانية كانت منذ بطليموس الثاني ملحقة بمعبد سيرايس . وقد عين الملك لدار الكتب موظفين كثيرين دفع لهم اجورهم : فتلسم أمانتها شعراء من امثال ابولونيوس الرودسي وعلماء من امثال ايراتوستينوس .

حذت سلالات اخرى حذو اللاجيين الاولين . ولكن تحقيقاتها لم تبلغ مثل هذه الامة وهذه العظمة . ولم تؤسس واحدة منها متحفاً آخر : وليس ما أطلق عليه هذا الاسم في عهد متأخر ، أي في ايام الامبراطورية الرومانية ، سوى مؤسسات بلدية للتعليم العالي . غير ان جميع البلاطات قد حاولت ، عن طريق الفوائد المادية ، اجتذاب الكتبة والفلاسفة والعلماء . أضف الى ذلك ان بعض الملوك أسسوا وتعهدوا دوراً للكتب أيضاً . فكان للسوقيين مكتبتهم في انطاكية ، عاصمتهم السورية . ولكن اهم مكتبة قامت في برغاموس ، وقد أنماها الاطاليون إنماء مطرداً أيضاً : وعلى الرغم من ان البرديات ما زالت أكثر المواد استعمالاً ، فلا يمكننا هنا إلا ان نذكر بالجلد « البرغاموسي » الذي اشتق منه اسم ( Parchemin الرق ) والذي لم يكن اختراعه ، من جهة ثانية ، لا اكتشافاً ولا احتكاراً برغاموسياً . وكانت مجموعات هذه المكتبة قد بلغت ٢٠٠ ٠٠٠ مجلد حين أهداها انطونيوس لكليوباتره تعويضاً عن الاضرار التي لحقت بمكتبة الاسكندرية بفعل الحريق .

لم تكن نصرة عظماء هذه الارض شيئاً جديداً: فقد سبق لمستبدي العهد القديم ان تمهدوها. اما الشيء الجديد فكان هذه الطريقة في فهمها وممارستها اي في وضع وسائل العمل والبحث تحت تصرف المستفيدين منها . ولا يكفي احترام الشؤون الفكرية ، المزهة عن كل غاية ، لتبرير تضحيات الملوك المالية . ولكن المجد الباطل وحده لا يكفي لذلك ايضاً ، في حال ان الامة السياسية المولاة لتوجيه الدراسات العليا ليست موضوع بحث . اجل لقد ادخلت بذلك وثبة نافذة على بعض الابحاث التي كانت مستحيلة بدون هذه المؤسسات والتي ولدت من وجودها وكان لها أثرها على الحركة الفكرية في مجموعها . ولكن هذه الابحاث ، بحد ذاتها ، بقيت عادمة الاثر سياسياً ولم يكن باستطاعتها خدمة المثالية والبرنامج الملكي .

### ٣ - الشغف الفكري والروح العلمية

ان المقصود في الدرجة الاولى هو ما نعرف عنه اليوم بالالسنية والعلم  
الألسنية والعلم الراسع الواسع .

استلزم جمع المخطوطات تنسيقها ودعا لمقارنتها ولاختيار افضل الدروس ولتوضيح النصوص بكل ما من شأنه ان يسهل فهمها . وكان هذا الجمع والبحث والتعليق متفقاً والطرائق التي سبق لارسطو ومعاونيه ان اعتمدها . اما انشاء دور الكتب ، ان هو جعل هذا العمل اشد الحاجة ، فانه قد بسطه ايضاً يجمعه قسماً من المواد اللازمة للمقارنة وجمع المعلومات وجعلها في متناول اليد . وقد قام بهذا العمل رجال من الطراز الاول ، فكرس له بعضهم كل نشاطهم واشتهر بعضهم الآخر ، من امثال كليماخوس وايراتوستينوس ، في حقول اخرى ايضاً .

من نافل القول انهم انقطعوا بالترفضيل الى الملاحم الهوميروسية التي افضت اهميتها في الحياة المدرسية وفي ثقافة الاغريق العامة الى الاكثار من نسخها المغلوطة فيها او المحشوة بالتدريبات في اكثر الاحيان والتي جعلت في الوقت نفسه الحاجة الى التوضيح امراً ملحاً . فأُنجز عمل عظيم جداً بنشاط ومعرفة ، وذوق سليم غالباً ، يثير الاعجاب : فانتهى الشرح الالسنى الى النقد الادبي . وغدا اسم احد امناء دار الكتب في الاسكندرية ، ارسطارخوس ، اسطوريا من هذا القبيل : وان ما نقرأه من مؤلفاته المندثرة ، في « دروس الندوات » المتأخرة ، لينم عن ألعينته الفائقة ؛ فهو انما أثار معاضل كثيرة لا يزال العلماء المكبون على دراسة هوميروس يحاولون حلها ، غير قادرين على اجمال شكوكه واحكامه .

يمكن القول نفسه عن الخطب ، بسبب الامة المولاة لعلم البيان ، وعن نصوص اخرى كثيرة . وقد وضعت اذ ذاك - ولعب ارسطارخوس فيها دوراً كبيراً - « القوانين » الاسكندرية ، اي مجموعات المؤلفين المعتبرين قدوة يقتدى بها ومجموعات مؤلفاتهم التي اعتبرت اصلية . ونحن مدينون لهذه الجهود التي لم تعرف الكلل ليس بالحفاظ على نصوص صحيحة جهد

المستطاع فحسب ، بل بتعليقات تجلو غموض مقاطع كثيرة . فقد وضع كلياخوس وحده ١٢٠ « مجلداً » تؤلف جدولاً بكل الادب اليوناني كما تمثل في ايامه في المكتبة الاسكندرانية ، مورداً فيها نبذة تاريخية عن حياة كل مؤلف ولائحة بمؤلفاته ومعلومات تاريخية عنها . ثم اكمل خلفاؤه هذا الجدول .

قادت مثل هذه الابحاث بصورة حتمية الى دراسات نظرية وعملية في علم البيان وعلم الصرف والنحو وفقه اللغة وعلم تاريخ الازمنة . وقد يتطلب تعداد الاسماء الجديدة بالذكر ، في هذا المجال ، صفحات كاملة . فانتهل رواد الندوات في العهدين الروماني والبيزنطي باستمرار ، مما جمعه هؤلاء المؤلفون بفضل عملهم الجليلد ، معلومات ذات قيمة عظيمة ، مضيفين اليها احياناً ملاحظات واخطاء شخصية . ولنكتف باسم واحد هو احد اعظم الاسماء ان لم يكن اشهرها من غير الاختصاصيين : ديديموس الاسكندري ، معاصر شيشرون وقيصر — اذ ان انطلاقة اوائل العهد الهليني قد دامت طويلاً . ان هذا الرجل ، الذي لقب بـ « ذي الاحشاء القلزية » ، بسبب طول أماته في التهام الكتب وتأليفها ، قد وضع ٣٥٠٠ « مجلد » طرق فيها شتى المواضيع التي واجهها في معالجة النصوص . فلا يجوز ان نستعزى بهذا الجامع الجروح الجريء في وضع واستخدام البطاقات ، لأن مجموعاته التي لا تخلو من الحشو والتطويل ، تحتوي على ما هو حسن لا بل ما هو جيد احياناً . وقد كرت ثلاثة من كتبه لخطب ديموستينس ضد فيلبوس ، وكان من شأن اكتشاف بردي دونت فيه مقاطع هامة من احسد هذه الكتب المحتوي على التعليق التاريخي ، ان سجل ، بصدد معاضل سياسة أثينا الخارجية في القرن الرابع ، حدثاً هاماً في علم التاريخ المعاصر .

لقد غدا تقليدياً ان يجمع هؤلاء العلماء الواسعو الاطلاع تحت اسم « الاسكندريين » . بيد ان نزعاتهم الفكرية لا تؤلف كل ما غدا تقليدياً أيضاً ان يعرف عنه بـ « المدرسة الاسكندرانية » . اصف الى ذلك انهم لم يعيشوا كلهم في الاسكندرية وان بعضهم لم يقيموا فيها قط ؛ ولا يجوز ان ننسى ظلماً ان كراتيس العظيم ، الذي نشأ في مالوس في كيليكيا ، قد كان ، في القرن الثاني ، أمين مكتبة برغاموس ومقرباً من البلاط الاطالي . وليس من ريب مع ذلك في ان علماء الاسكندرية كانوا اكثر عدداً واوفر انتاجاً ، وبالتالي أعظم تأثيراً ايضاً : فإليهم يعود الفضل في إعطاء المثل وابتكار النهج . ولكن عملهم لم يخل من الصغارة التي برزت في منافساتهم حتى الداخلية . وكان لثقافتهم ، المكتنية الى حد بعيد ، مساوئها ايضاً . ولعل اخطر المساوئ ان هؤلاء العلماء الواسعي الاطلاع ، قد أوجدوا ، يجعلهم من كتب العهد الماضي أمثلة لا يعلى عليها ، وبحصر الطموح المعقول في الاقتراب منها ، تياراً معداً لأن يسود تدريجياً : هو تيار الاحتذاء أو بالاحرى التنظيم الذي جعل من التلقائية طرائق فشلً بذلك الالهام الأصلي . فكانت النتائج شبيهة بتلك التي لمسناها في الفن ، إذ ان الحياة الفكرية قد تأثرت بالجفاف الذي أوجده الاعجاب المفرط بروائع الماضي والذي كبح الجروح الخلاق . اصف الى ذلك ان المؤلفات السلاسيكية

الكبرى نفسها قد فقدت من نضارتها وقوتها المباشرة : فقد قرأ التعليق أو الخلاصة ، أو المنتخبات أحياناً ، ان تحلّ ، أو انها حلت فيما بعد ، مكان الاصل . ولكن هذه الملاحظات الانتقادية ابعد من ان ننسبنا أهمية الخدمات المؤداة واتساع معارف الكثيرين من هؤلاء الباحثين وشأن الطرائق التي ثبتت صفتها العلمية — العمل الجماعي واستخدام البطاقات ووضع المراجع ، وملاحظة الوقائع بدقة ودرس ملاساتها والتأمل في كلّ منها لاستخلاص القوانين — والتي أتقنوها وطبقوها على الشؤون الادبية . ولم يحل شيء من هذا مبدئياً دون سلامة الذوق ورقة الحاشية اللتين احسن كبار المؤلفين التعبير عنها ، هكذا أدركت وطبقت مبادئ « المدرسة الاسكندرية » التي مثلت ثورة في الحياة الفكرية والتي لا تزال نتأثر بنتائجها حتى ايامنا هذه . فما كانت عبقرية الاغريق الخلاقة لتموت بموت حريتهم السياسية ، وما كان دورهم كمربي الانسانية ، حتى في مستقبل بعيد ، لينتهي بانتهائها .

التاريخ نشطت البحوث التاريخية مؤقتاً نشاطاً نادراً جداً بفعل الروابط الوثيقة التي تجمع بين الاطلاع الواسع والتاريخ : فإن موجبات الشغف الفكري والروح النقدية هي هي سواء تناولت فقه اللغة ، أو العلم ، أو التاريخ . وان جهود المعلقين في كشف وإجلاء كنهيات المؤلفات الادبية ، التي تتأصل في زمانهم ، قد قادتهم الى بحوث حول الماضي . ثم ما هي السبيل لفهم مؤلف ما دون الاستعلاء عن حياة وأفعال وبيئة مؤلفه ؟ فقد سبق لارسطو وتلاميذه ان اعطوا المثل في بحوث دقيقة ونظامية تناولت كافة الحقول ، فانتهوا الى وضع كتب خصوصية ، أشبه بمجداول للوقائع أحياناً ، يؤلف « دستور الاثنيين » افضل نموذج عنها في الحقل التاريخي . وتمشيا على الطريقة نفسها وانسجاماً مع الروح نفسها ، — لأن الكثيرين منهم انتسبوا الى المدرسة المشائية التي أسسها ارسطو — كان عدد رجال البحث مرتفعاً جداً طيلة العهد الهليني . لا بل ان بعضهم وضعوا مجرد مجموعات من الوثائق والمراسلات والمراسيم . وانكب غيرهم بعناد على معاضل التاريخ التي من شأن حلها وحده ، قبل أي شيء آخر ، ان يوفر هيكلًا متيناً . ولم يكن هذا التعمق التقني ، من جهة ثانية ، ليسجن القائم به في تخصص ضيق لأن واحداً لم يفقد الشعور بتمعد الظواهرات الفردية أو الجماعية وعليها . وعلى نقيض ذلك فقد تقدم التحليل السيكولوجي تقدماً مطرداً ، ولم تحتل قط دراسات الجغرافيا الوصفية ، التي توفر المعلومات حول الاخلاق والميزات المحلية وتوضح المسافات والموارد ، ما احتلته إذ ذاك من مكانة مرموقة . وهكذا فان العلوم الثانوية المساعدة قد جمعت المواد للمؤرخ ، من كل الجهات ، وسهلت مهمته الخاصة .

وكان هنالك ، للاهتمام بالتاريخ في مفهومه العلمي ، بالإضافة الى اوساط ذوي الاطلاع الواسع ، جمهور كبير تؤلفه تلك البورجوازية الوسطى التي كثيراً ما أتينا على ذكرها . فارت انتشارها قد اكثرت من القراء الراغبين في الاستطلاع والتفكير وأوجدت في الوقت نفسه رأياً عاباً أقل انقساماً منه في الماضي بفعل تحوّل المدن . فازدادت الدعاوة السياسية ، التي اعتمدت منذ زمن

بعيد ، واذا ما اتخذت هذه الدعاوة غالباً أشكالاً لا تتفق مع التاريخ ، فعليناً ان نرى في ذلك شهادة في القوة الفكرية التي تمتع بها من استهدهتهم هذه الدعاوة . وهكذا نشأ مثلاً نمط جديد هو نمط المذكرات التي وضعت كمذكرات او كروايات للأحداث العظيمة التي اشترك فيها المؤلف . فظهر كثير منها حول حملة الاسكندر ، لا سيما مذكرات الملك بطليموس الأول . ثم أصدر رجال دولة آخرون مذكراتهم ايضاً: الأثيني ديميتريوس الفاليري ، وبيرس ملك الأبير ، وأراتوس الحاكم الرئيسي في الاتحاد الآخي ، في القرن الثالث . ولكن مشاغل البورجوازيين وذوي الاطلاع الواسع ، في حقل الثقافة ، قد توافقت في غير هذا الاهتمام بالتاريخ السياسي . فمن حيث انتهاء الاغريق الى حضارة حاولت جاهدة المحافظة على سلامتها امام الحضارات الشرقية ، كان من الطبيعي ان يعيروا اهتماماً متزايداً ، حتى في الماضي ، لمظاهر هذه الحضارة التي أوحث لهم المزيد من العُجب الحلال . فلمعت من ثم اضواء جديدة في الحركة التاريخية آنذاك وظهرت وتقدمت دراسات جديدة كرست للتطور الفكري او الفني . وكان لذلك مغزاه الكبير ، أقله ضمناً : فان جعل التاريخ يقوم بمهمة نقل وتعليل احداث الحياة الفكرية كان معناه ان هذه الحياة ، في نظر الشعب ، توازي في اهميتها منازعات الدول ؛ وان مفكراً كبيراً او فناً كبيراً يوازي رجلاً سياسياً او قائداً عسكرياً . وهكذا فان التاريخ — وهذا في الغالب دوره العملي ، إن لم يكن دوره المثالي — قد اسهم في ان قوئى ، بواسطة هيكل داخلي ، الشعور القومي او ما يقوم مقامه ، اي وحدة اناس تشدهم ، فوق الحدود ، لغة واحدة وتفكير منطقي واحد وتربية فكرية واحدة ، واذواق واحدة ، اي ، بكلمة موجزة ، وحدتهم الأدبية .

كل هذا يفسر قوة العمل المنجز آنذاك والاستقبال الطيب الذي صادفه ، وبكلمة موجزة ، تقدم الشغف التاريخي الذي هو الشرط الاول لتقدم التاريخ . بيد انه بقي بعيد المنال . فقد احتوت مجموعات الرسائل كثيراً من الزيف ، حتى المفتضح احياناً ، وبواجه النقد في ايامنا ، اكثر من مرة ، مشكلة الحكم في صحة المقاطع الاخرى التي يشك فيها كثيراً . ويصح القول نفسه في مجموعات المراسم التي لم تصل إلينا على كل حال ويبدو انها لم تكن كثيرة العدد : وقد يستهويها ان توجه اللوم لذوي الاطلاع الواسع في ذاك العهد لأنهم لم يلجأوا إلا نادراً الى مستندات المحفوظات ، او أقله الى الكتابات التي عرضت عدداً كبيراً منها على مرأى الجماهير . وقد أدخلت المذكرات ، بفعل تحديدها نفسه ، تشويهاً دفاعياً على الوقائع واسبابها الحقيقية . وأثر علم البيان ، بصورة حتمية ، في المؤرخين ، حتى ان الخطب التي استمروا في سببها الى بعض الاشخاص لم يكن لها ما يبررها ، كما هي الحال عند توسيديد ، اجمال حالة عامة او عرض اسباب قرار ما : فغدت في اغلب الاحيان قطعاً صناعية جوفاء للأبهة فقط . ثم ان السعي وراء الأثر التصويري او المسرحي الخليق بأن يسلي القراء او يشجيهم قد جعل من الانتاج التاريخي انتاجاً أدبياً بمعناه الازدرائي .

غير ان الرصيد الاجمالي ، مع كل ذلك ، يبقى ايجابياً الى حد بعيد . فقد ادخل النظام على

التأريخ القدم ، عن طريق البحث عن ثوابت ولاية الملوك او القضاة ، في اللوائح المحلية : فنغذ ايراتوشينوس على هذا الصعيد عملاً مجيداً وكان له الفضل في التأكيد ان التاريخ اليوناني ، قبل الشروع بوضع لائحة الفائزين الاولمبيين ، في السنة ٧٧٦ ، يفتقر الى الاروم . وقد ازدادت دراسات التخصص . فعلى غرار أثينا ، استملت سبارطة ودوا، اخرى او مناطق اخرى من اليونان عدداً من الباحثين الشغفين بأصلهم وبماضيهم . ووضع غيرهم التراجم ، وهي لون جديد ، تأثر الى حد بعيد بالتقريب الخطابي الذي نشأ عنه . ووضعت تواريخ للفن والعلوم المختلفة والفلسفة والأدب : فمن اغرب الدلائل على سعة اطلاع بعض رجال ذاك العهد ان احد النقاشين الذين سبق لهم واشتغلوا في برغاموس ، انتيغونس الكاريسي ( من جزيرة اوبيا ) ، قد ألّف ايضاً تاريخاً للفن وتاريخاً لاهم الفلاسفة منذ ارسطو . ثم اقتضى بعد هذا كله القيام بمحاولة تأليفية في وضع تاريخ للحضارة : فكيف لا نذكر اسم ديكيارخوس الميني الذي كان الاول في الاقدام على هذه المحاولة ، باسم « حياة اليونان » ، غير متورع من الارتقاء الى ابعد الأزمنة رسوخاً في القدم ؟

لم نأت ، عن قصد ، على ذكر اسماء كثيرة ، على الرغم من وفرة ما نعرفه منها ، وحتى من المجد الذي أحاط ببعضها في العصور القديمة . فهي ليست جميعها في الحقيقة سوى عناوين لمؤلفات منقودة ، او لمؤلفات لم يبق منها ، في احسن الحالات ، سوى مقاطع صغيرة جداً . وليس من شك في ان ما حققه المؤرخون الهلينيون كان عظيماً ، ولكنه اهم ، مادياً ، واضعف ، أدبياً ، من ان تنقلها الينا الاجيال اللاحقة . فقد اكتفت هذه الاجيال بأن انتهلت منه ، لأن كل ما كان بالامكان عمله لجمع ذكريات الماضي والحيولة دون ضياعها قد انجز عملياً في هذا العهد . وقد استفاد المؤرخون واللغويون وغيرهم فيما بعد ، دونما ملل ، مما غدا ملكاً مشتركاً . وما نحن ننهل اليوم ، بواسطتهم ، من هذا الملك المشترك نفسه ، سعداء بانهم أشاروا احياناً الى المصادر او اقتطعوا بعض الاستشهادات .

فشاءت الصدف مع ذلك ان يصلنا قسم كبير من مؤلفات بوليب . ولكن هذا الواقع ليس وسده ما يرغنا على اعتبار بوليب خير مؤرخ في هذه القرون الثلاثة .

لحاً في اسلوبه الأدبي الى صياغة الكلام وفاقاً للطريقة الرسمية آنذاك التي يزيد من ارتباكها ما تنطوي عليه من تعابير مجردة وصيغ بطيئة . وكثيراً ما تناول موضوع الاخلاق معتمداً في ذلك قواعد اخلاقية غير شاملة أملت على كل حال مفاهيم فلسفية تطورت ولم يجهد هو ، او لم ينسج له الوقت ، للتوفيق بينها . وقد اتبع في عرض موضوعه تصميماً صارماً ، سنة فسنة ، ومنطقة فمطقة ، وفاقاً لنظام جغرافي معين . وشغف بفن الحرب فوجد لذة خاصة في سرد تفاصيل الهجمات المفاجئة . بيد ان الدقة التي تباهى بها لم تكن إلا ظاهرة احياناً ، وعلى الرغم من تأكيدات ومن امتيازاته عادة عن المصادر الاخرى ، فانه لم يخل قط من الخطأ والتحيز . فقد

صدرت عنه هفوات عرضية عموماً وخطيرة أحياناً حتى في موضوع جغرافية البلدان التي زارها مثلاً . ولم يتمكن من أن يتجرد من مواطنيته الآخية وبورجوازيته الآخية وحتى انتماؤه الى فئة من فئات البورجوازية الآخية .

ولكن هذه النقائص تتلاشى امام صفاته . فان نظريته في التاريخ ، التي لم يأل جهداً في عرضها وانتقادها واعادة النظر فيها ، قد أصبحت نظرية علمية . اراد اللجوء الى جميع مصادر الاستطلاع بما فيها الدرس الشخصي للبلاد وحتى لمنطقة معينة فيها . واراد تاريخياً لا يكون صحيحاً ودقيقاً فحسب ، بل « علمياً » ايضاً ، اي قيناً بتربية الانسان النشيط الذي لم يميزه عن الانسان الثاقب المصمم على تعليل عمله المباشر واكتشاف المعنى الكامن في سلسلة من الاحداث . فقد اعترضته اذن معضلة الاسباب ، واذا هو لم يتمكن طيلة حياته كمؤلف ، وبالتالي في جميع مؤلفاته ، من السير في المنطق البشري حتى اقضاء الافر الإلهي - اي اثر إله إلحظ - فانه لم يلجأ اليه كتفسير يائس ، لأن الصلة الوثيقة ، في تعاقب الاحداث ، بين العلل الطبيعية ومعلولاتها ، كانت موضوع بحثه المستمر . ولم يكتف بالظواهر ولم يتأثر بمجادلات الدعاوات المتقابلة ، بل دعا الى التمييز ، ويميّز هو نفسه ، بين الاسباب البعيدة والاسباب القريبة والحجج التي تخفي الاسباب الحقيقية . وادرك معنى تطور المجتمعات حتى بلغ منه ان توصل الى نظرية « دورية » تتعاقب بموجبها الملكية والارستوقراطية والديموقراطية وتؤدي حتماً في هذا المجال من واحدة الى اخرى لأنها ، كلها ، تقسد حتماً عند التطبيق . وهو لم يبتكر كل هذا ابتكاراً على كل حال ، لأن هذا الرجل الرفيع الثقافة قد نقل ما جاء به عن الفلاسفة وواضعي النظريات الذين سبقوه ، دون ان يتوصل الى نظام متلاحم جداً . ولكن واحداً غيره لم يفكر بمثل هذا الحرم في ان يستخلص ، مما نقله ، النتائج لدراسة التاريخ .

اضف الى ذلك ان الفضل يعود له ، من حيث انه عاش طيلة الارباع الثلاثة الاولى من القرن الثاني ، في انه ادرك الاهمية العامة التي انطوت عليها الاحداث التي شاهدها او لعب فيها دوراً ثانوياً أحياناً وصمم على درسها كجموع . وقد خدمته مصائب حياته ونسبها في هذا الدرس . فقد ارغم على ان يعيش ١٧ سنة منفياً في ايطاليا حيث تقرب الى شييون اميليانوس وتعرف الى الاوساط الحاكمة في روما ، فاستطاع من ثم في روما ، لا ان يجمع جزءاً كبيراً من مسنداته فحسب ، بل ان يتأمل في الاحداث المتفرقة ويجد الصلة القائمة بينها . وهكذا اتصحت له هذه الحقيقة التي شاهد حيله تحقيقها ، بين السنة ٢١٨ والسنة ١٦٨ اولا ، وبين السنة ١٤٦ والسنة ١٣٣ ثانياً وبصورة اكمل ، اعني بها وحدة العالم المتوسطي تحت سيطرة روما . ولمح اهمية تلك الثورة السياسية والعسكرية التي انتزعت من الاعريق لا استقلالهم فحسب بل فهمهم للعالم بهمه والمقياس الذي قاسوه به ، لأنها قد اثبتت لهم ضيق الآفاق التي عاشوا فيها وحقارة تحقيقات كافة العاتحين الذين تمكنوا من معرفتهم ، بعد ان كانوا يعتبرونها بعيدة وعظيمة جداً . فان

الامبراطورية العالمية التي اكتفى اعظم الرجال بأن يحولوا بها كانت في طريق التحيز امام ناظري البورجوازي الآخي الذي احفظه الثوريون السبارطيون والمستلبون الايتوليون . وهو قد آمن بجمعية مراحلها الاخيرة لأنه استحال عليه التفكير بأن الفارتيين سيستولون على شطر كبير من تراث الاسكندر الاقليمي . بيد انه ادرك ترابط الاحداث ولمس من نفسه القدرة على تحديد عللها . فأخذ على نفسه اذ ذاك ان يبين ، وفقاً لتحديده الخاص ، « كيف وبفعل اي نظام حصلت السيطرة على كل الارض المأهولة تقريباً التي امتست - وهذا حدث فريد من نوعه - ملك امبراطورية واحدة هي امبراطورية روما » . ولعل خير اكرام يجب تأديته لبوليب هو الاعتراف بأنه ، بعد تصميم هذا المشروع العظيم ، لم يكن دونه مستوى .

النقد العلمي والتقدم التقني في الاشكال الجديدة للحياة الفكرية ، اي فقه اللغة والعلم الواسع وحتى الدراسات التاريخية الى حد بعيد ، يبرز اثر الروح العلمية . وقد برزت هذه الروح ابدأ في ما مضى ؛ ولكن الجدة في دورها النافذ السريع واعتماد طرائقها في ما كان متعلقاً من قبل بالادب حين يفكر احدهم بالاهتمام له . ومن الطبيعي انها ارحت باستمرار الابحاث العلمية التقليدية التي ساعد نمول السغب الفكرية والانعامات الملكية على مواصلتها بششاط وسهولة متزايدة ، وقد احتلت الاسكندرية ابدأ ، في هذا الحقل ، المركز الاول لأن ملوكها تفوقوا على غيرهم ثروة وكرماً . ولذلك فان الطابع الازدراخي الذي ارتداه اسم « المدرسة الاسكندرية » في الكلام الدارج لا مبرر له في كافة الحقول تقريباً : ولا مبرر له في هذا الحقل بنوع خاص . وان اسم ايراتوشينوس وحده لكاف لاقضاء تهمة الانحطاط الموجهة الى الحركة الفكرية التي ازدهرت آنذاك نازاء قصور اللاجين . ويكفي لذلك ايضاً ان تسريح حث الموتى قد اجري فيها لأول مرة بصورة صحيحة . فقد اقتضى لذلك جرأة استقصاء وتجهيز مواد لم يعرفا كلاهما من قبل .

بفضل هذه الظروف المؤاتية احرزت بحوث العلماء نجاحات تلتفت الانظار . ومما يدعو الى الدهشة هنا ، كما في جميع العصور القديمة ، ان هذه النجاحات العلمية لم تؤد الا الى القليل القليل من التطبيقات العملية . فما زال الاهتمام بهذه الاخيرة معتبراً دون شأن العالم ومقامه . بيد ان الطب وحده قد نجح من هذا الحكم الذي ليس من المعقول ، في الحقيقة ، ان يصدر عليه . ولكن ارحميدس لم يرض الا في ظروف استثنائية بالقيام بأعمال المهندسين . فهو لم يبرل مركباً الى البحر ، بواسطة حمار من السكر والعسل ، الا اكراماً للملك السيراكوزي ، هيرون الثاني ، وبعد ان نسب اليه العجز عن تحقيق ذلك ؛ ولم يصمم الآلات المدهشة الاسعياً وراء فك الحصار عن سيراكوزا . وكان كل ذلك في نظره ، كما يؤكد بلونارك ، « لعباً هندسية تلهي بها لثمضية الوقت » . فتفسر هذه العقلية تأخر « الفنون الآلية » التي لا تقتلها سوى الحاجات الحربية تقريباً والتي تستلزم التجربة والاختبار . اجل لقد صنعت مراكب ضخمة ؛ ولكن

المركب الجبار « سيراكوزيا » الذي كان يتسع لثلاثة آلاف طن من البضائع ، ولستائة بحار وثلاثمائة جندي ينعمون فيه براحة تامة ، تخلص منه هيرون الثاني بأهدائه لأحد اللاجئين ، بعد ان اتضح له عدم جدواه .

يجب في الحقيقة ان لا ننظر الى نتائج هذا التلمس المتردد بعين الاحتقار . وقد اقتصر العصور القديمة حتى بيزنطية على نقل او تطبيق التحقيقات الهلينية . ولم تحرز تقنية صناعة السفن اي تقدم بين ايدي الرومان ، لا بل انها ما لبثت ان اقصرت طموحها على طراز ال « تريريم » التي لا تختلف عن « تريير » الاغريق في القرن الخامس ، مع انهم صنعوا سفناً افضل منها منذ القرن الرابع ، ولا سيما في مستهل العهد الهليني؛ ومرد ذلك الى ان روما ، بعد ان انتهت فتوحاتها ، لم تصطدم بأية قوة بحرية كبيرة . وقد احرز الشرق الهليني نجاحات فائقة في حقول تجهيز المرافئ ، لا سيما في الاسكندرية حيث لم يكن برج فاروس سوى العنصر الاهم في مجموعة بقيت زمناً طويلاً دون منافس . وشيد هيرون الاسكندري بعد ذلك مسرحاً للتمثيل المتحركة ، وموزعين وحجاباً آليين ؛ وابتكر « فستقية » - تلك التي سيعرضها جان حاك روسو امام الفلاحين السافويين - توصل الى استخدام قوة البخار فيها . احل لم تكن كل هذه الابتكارات سوى مجرد ألام او بالاحرى حيل تتيج لبعض السحرة - المشعوذين استثمار سرعة التصديق المفرطة عند الشعب . ولكن تحققت اكتشافات مفيدة ايضاً . فقد استخدم لولب لا نهاية له ، اخترعه ارخميدس ، لتجفيف قعر السفن والاراضي المصرية بعد الفيضان . واكتشفت المطحنة المائية ، فحث احد الشعراء ربات البيوت على التضحي في نومهن لأن عرائس الينابيع اخذت على نفسها القيام بعملهن ؛ ولكن استخدام هذه الآلة العجيبة كان أبعد من ان يصبح عاملاً . وان ما يلفت النظر بالتالي هو انه لم يتحقق سوى حد ادنى من تخفيف الشقاء البشري . اما الافتراض الذي افترضه ارسطو والذي بدا له غير قابل التحقيق على كل حال - « لو ان كل آلة تنفذ مهمتها بناء على أمر او اشارة ... ولو ان المكوك يسج رحده والمضرب يعزف وحده على القيثارة ، لاستغنى المهندسون عن العمال والاسياد عن العبيد » - فلم يخرج عن اطار المستحيلات التي لم يحلم بها احد . وبدلاً من ان يتماشى العلم والتقنية ، نراهما يستمران في تجاهل بعضهما البعض ، لا بل نرى التقنية عاندة في احتقار العلم .

كان من شأن هذه اللامبالاة ان أبقت الادوات الضرورية للعلماء في حالة بدائية . فاضطروا ، بسبب حرمانهم من أدوات القياس ومن الجهر والمقرب ، الى الاعتماد على حواسهم ، وعلى عقولهم بنوع خاص . وهذا ما يطبع النتائج المحزنة بمزيد من العظمة .

وكان العالم المعروف قد اتسع اتساعاً نادراً . ففي الوقت الذي تخفى فيه الاسكندر ايران ، متقدماً في تركستان والهند ، قام المرسل يازي بيتياس بدورة حول اوربا الغربية . فبلغ المصائق الداعرية والطرف الشمالي للجزر البريطانية . وحين روى ما علمه عن شمس نصف الليل والمحيط

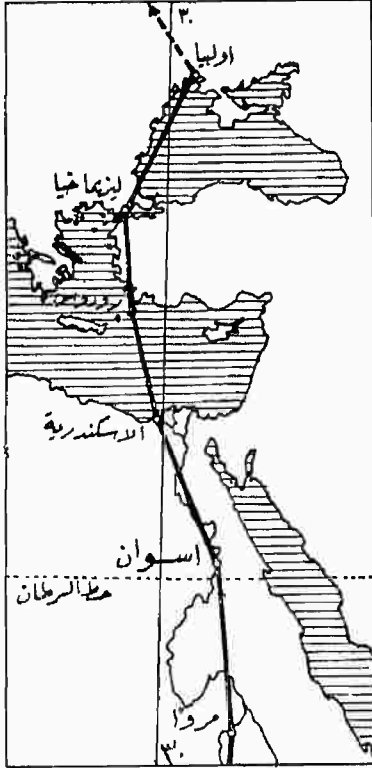
المتجعد الشبالي ، اتهمه الرأي العام بالخرقة والهذر؛ ولكن بعض العلماء قد استفادوا من رواياته . ولم يخاطر الملاحون اليونانيون بعد ذلك بأنفسهم في السفر نحو الغرب البعيد الذي أقام القادسيون أنفسهم حجاباً لا يركن اليهم عند مداخله . ولكن الملوك الهلنيين أوفدوا أكثر من بعثة الى بحر قزوين - الذي لم يستكشف كله على كل حال - والهند والجزيرة العربية والبحر الاحمر وأعالي النيل . فنشر بعض هؤلاء الأفاقين رواية اسفارهم ، مما افرح الجماهير الشغفة بكل غريب عجيب . غير ان الجغرافية العلمية قد أفادت الى حد بعيد من الجغرافية الوصفية . وليس سوى الافتقار الى الادوات ، في ما يبدو ، ما يفسر عدم تقدير الحقائق التي تراءت فترة من الزمن ؛ بيد ان ترائيها مما يثير الاعجاب .

فان ملاحظة حركة المد والجزر الهامة في المحيطات قد جعلتهم يواجهون بشكل جديد معضلة اسبابها . فاكتشف بعضهم ، كبيتياس مثلاً ، انها مرتبطة بالقمر ، ولم يتمكن احد من بعدهم ان ينفي ذلك . غير ان الرأي لم يستقر على رفض دور الارياح التي نسب اليها ارسطو هذه الظاهرة : ومرد ذلك ان علم الفلك لم يكن بعد علماً صحيحاً .

وكانت كروية الارض امراً معترفاً به ؛ فسعوا سعياً حثيثاً لتحديد قياساتها . وقد حقق ايراتوستينوس في هذا الموضوع لباب الامر ، وبعود اليه الفضل في اعتماد ابطس الطرق . فانطلق من اعتقاده بان اسوان تقع على خط الطول نفسه الذي يمر في الاسكندرية التي تفصلها عنها مسافة ٥٠٠٠ غلوة ، واكتشف ان اشعة الشمس ، في موعد انقلابها الصيفي ، تنحدر اليها عمودياً بينما تنحرف هذه الاشعة ، في الاسكندرية ، عن الخط العمودي مكوّنة معه في انحرافها زاوية تعادل  $\frac{1}{8}$  من محيط الدائرة : فان المسافة بين المدينتين ، بالتالي ، تعادل  $\frac{1}{8}$  من خط الطول . أجل لم تخل هذه الطريقة من الاخطاء : فان اسوان تقع في الحقيقة على مسافة ٥٠ كيلومتراً تقريباً الى الشمال من دائرة السرطان ، والاسكندرية على ثلاث درجات الى الغرب من خط الطول الذي يمر في اسوان ؛ أضف الى ذلك انه كان من الصعب قياس المسافة التي تفصل بين المدينتين . واذا ما افترضنا ان التقريبات التي أدخلها ايراتوستينوس على معطياته العددية جاءت صحيحة ، بقی علينا ان نعرف ما هي الغلوة التي استند اليها عندما انتهى الى خط طول قياسه ٢٥٠٠٠ غلوة ، او ٢٥٢٠٠٠ غلوة بحسب « سترابون » . وما كان النقص النهائي ليتجاوز ٦٢٥ كيلومتراً في حساب الاول او ٣١٠ كيلومترات في حساب الثاني على ٤٠٠٠ كيلومتر ، اي ما يعادل ١,٥٦ ٪ او ٠,٧٧ ٪ . ولكن علوتين اخريين كانتا معتمدتين ايضاً تؤديان ، لو اسند اليها ، الى فوارق اكبر . ومهما يكن من الامر ، فان الطريقة جديرة بكل اعجاب .

بفضل هذا التقدم ، بذلت الجهود في وضع الخرائط . فجمعت ، في سبيل هذا الهدف ، المعلومات الوجيزة المتوفرة حول المسافات . وفكر هيبارخوس ، في القرن الثاني ، بمراقبة

النجوم لتحديد خطوط العرض كخطوط الطول؛ ولكن الضرورة كانت تقضي بمقارنة الساعات، في حال ان آلات قياس الوقت لم تكن بعد مكتشفة . ومنذ القرن الثالث ، قام ايراتوسينوس بمجهود تأليف عظيم فتوصل ، بواسطة الاحداثيات الحسابية ، الى وضع خريطة عامة « للمسكونة » تلفت النظر ، على الرغم مما تخللها من اخطاء ، في ما يتعلق فيها بالسواحل



الشكل ٣٠ - خط طول الاسكندرية  
كما رسمه ايراتوسينوس

المتوسطة وآسيا الصغرى ، بينما لا تزال مبسطة جداً في ما يتعلق بالمناطق الاخرى . ثم ان معرفة المحيط الهندي ، ورحلة بيتياس ، والاعتقاد السائد بأن بحر قزوين ليس مقفلاً من الشمال ، بدت لبيتياس مصداقاً للنظرية القديمة القائلة بوجود محيط واحد دائري وبأن الاراضي المعروفة تؤلف حلقة حول البحر المتوسط الذي ليس سوى بحيرة وسطية ؛ وهو قد افترض ، من جهة ثانية ، وجود قارة اخرى شمالية في المنطقة المعتدلة الجنوبية . اجل لا يعود اليه الفضل في الطلوع بنظرية المناطق ؛ ولكن علم الفلك أتاح له ان يرسم للمرة الاولى وبشكل صحيح تقريباً الدائرة القطبية ودائرة الانقلاب وخط الاستواء . واذا قيل ان ايراتوسينوس يحتل المركز الثاني كلفوي ومؤرخ وشاعر ، فانه يبدو في نظر المعاصرين ، مسيطراً دون منازع على عهده في حقل الجغرافية العلمية .

لا ريب في ان علم الفلك قد استفاد من الملاحظات المتكدسة في المعابد البابلية . ولعل

تفسير هذه الملاحظات العلمي بلغ في الشرق نفسه شأواً بعيداً : فان كيدينيو ، الذي يطلق عليه الاغريق اسم كيديناس ، كان عالماً حقيقياً ، حتى ولو لم يكشف مبادرة نقطة الاعتدال التي تنسب الى هيبارخوس ايضاً . بيد ان تحقيقات علماء الفلك اليونانيين ، على الرغم من اجهاض حدسهم العبقري ، جدير مع ذلك بكل اعتبار . فهم قد رفضوا نظرية الافلاك المجوفة التي طلع بها افدوكسوس في القرن الرابع . واقترح ارسطارخوس الساموسي في القرن الثالث نظاماً تكون الشمس نقطة الدائرة فيه تبناه في القرن الثاني اغريقي بابلي يدعى سلوقوس : اي ان الارض والسيارات تدور حول الشمس خلافاً للظواهر ولكافة الشروح السابقة . ومما يلفت النظر ان هذا الافتراض لم يكن ليتفق مع الملاحظات التي سمحت بها الوسائل التقنية آنذاك .

لذلك فانه قد أثار معارضة الفلاسفة - ولم يتردد احد رؤساء المدرسة الرواقية في ان يتهم بخرق القدسيات كل من يجرؤ على ازاحة « مركز العالم » - واكثرية العلماء ايضاً من أمثال ارخميدس وهيبارخوس . واحتال هذا الاخير في تحسين النظام المقابل الذي يجعل من الارض مركز العالم والذي بقي بمثابة عقيدة ايمانية حتى كوبرنيك : ولم يكرس احد سواه ما كرسه من انتباه « للظواهر » ، وقد وضع جدولاً بأكثر من ٨٠٠ نجم ثابت . ولكن مبدأه بالذات ، بسبب حالة التقنية ، حتم عليه الخطأ على هذا الصعيد .

اما في حقل الرياضيات ، فقد أخضع اوكليدس الهندسة ، او بالاحرى الجبر الهندسي ، لقواعد قياسية مترابطة دائمة . ولكن بعض العلماء الآخرين تفوقوا عليه عبقرية . ولعل اعظمهم حقاً هو ارخميدس الصقلي الذي مرّ مروراً على الاقل في الاسكندرية . فقد أراد ان ينوّه النقاش على مدفنه بما اعتبره هو اهم اكتشافاته : نسبة ٢ الى ٣ القائمة بين حجم الكرة وحجم الاسطوانة التي تماسّ ضلوعها الدائرة . بيد ان رصيده ينطوي على اكتشافات اخرى كثيرة ، في الرياضيات والطبيعيات ، إذ انه وضع بصورة خاصة مبادئ حساب الكمية الصغرى وعلم توازن السوائل وضعفها . ويجب ايضاً ان نذكر على الأقل اسم ابولونيوس البمفيلي المنشأ الذي اهتم ، الى جانب النظريات الفلكية ، بدرس قيمة (  $\pi$  ) والقطع المخروطي وتجاوز فيها ما حققه ارخميدس نفسه .

واستفاد علماء النبات والحيوان من الاتصال بالعالم الغربية واستوقفوا انتباه مدرسة ارسطو بنوع خاص فوضع ثيوفراستوس ، خلفه المباشر ، « جغرافية النباتات » ومؤلفاً في « علل النباتات » ، فاحرزوا بعض التقدم . ولكن علماء التشريح في الاسكندرية اقدموا بجزأة على تشريح جثث الموتى وحتى اجسام المحرمين الاحياء كما جاء في التقليد . وهكذا توصل « هيروفيلوس » ، قبل « هارفي » بـ ١٩ قرناً ، الى ان يكتشف ان الشرايين لا تنقل الهواء بل الدم الذي يدفعه القلب . ثم عاد ايراسيستراتوس الى الهواء غير معترف بوجود الدم الا في حالة الحمى ؛ ولكنه ميّز في الجهاز العصبي الذي تراءى لسلفه بين اعصاب الحركة واعصاب الاحساس . ولم يتردد الجراحون في اجراء عمليات هامة : فان ايراسيستراتوس نفسه لم يحجم عن التعرض للكبد . وقد اعتمدت مدرستان طبيتان ، عملياً ، طرائق الشفاء والصحة التي اطراها هؤلاء العلماء . ولكن مدرسة ثالثة فاقتها في النهاية : فقد عرّفت عن نفسها بأنها « اختبارية » واهملت التشريح والنظرية واكتفت بالبحث عن الادوية وتوصلت احياناً الى اكتشاف ادوية هامة ولكنها ارتكبت ايضاً اخطاء هي أقرب الى السحر منها الى الطب . لذلك صادف السحر نجاحاً متزايداً لدى جمهور المرضى حين لم يدفعهم ايمانهم القلق للاتكال على الاحلام التي يوحى بها والمعجزات التي يبتدعها الآلهة الشافون : اسكليديوس وسيرايس ، وامحوتب بن هابو في أخربة المعبد الذي شيدته حنشبسوت في دير البحري منذ ١٥٠٠ سنة قبل المسيح .

باستطاعتنا ان نرى في هذا الزيفان ، الذي لم يكن وحيداً من نوعه ، اكثر من حدث

عارض ، فإن الحركة العلمية في العهد الهليني ، لأعظم حركة علمية نشاطاً وحياءً وتنوعاً وإنتاجاً في كافة العصور القديمة . ففي حقول الجغرافية وعلم الفلك والرياضيات والتشريح والفيزيولوجيا ، طلعت باكتشافات ووضعت نظريات كتب للعالم المتحضر ان يتمشى على اخطائها نفسها قروناً طويلة . ولم يسبق للفكر البشري ان يربط ، كما انه لن يربط قبل زمن طويل ، بمثل هذا الايثاق ، بين التصميم على التجريد المنطقي وبين هوى المعارف العملية أي الخضوع للواقع . ولكن عجز التقنية قد حدّ من فاعليته لأن هذا العجز قد حال ، عملياً ، دون اللجوء الى الطريقة الاختبارية أولاً والبحث عن تطبيقات نجاحاتها العملية ثانياً . ولذلك فلم تصب هذه النجاحات سوى نجبة مثقفة محدودة العدد نسبياً ، وان كانت ارفع عدداً من ذي قبل . ولكنها لم تصب عامة الشعب حتى المتأدبين منها ، لا سيما وان نزعاتهم المخالفة للصواب ، وهي أقوى منها في أي زمن مضى ، لم تكن لتجعلهم يقدررون صرامة الروح العلمية . هذا هو مصدر الجاذب الذي استسلموا له بسهولة ، أعني به جاذب ما هو مستغرب ولا سيما جاذب السرّ الصعب المنال . وهكذا فارت العالوم الطبيعية انحرفت نحو وصف الغرائب النباتية او الحيوانية او المعدنية التي قد تكون صحيحة أو لا تكون والتي كثيراً ما ينسبونها الى قوى فائقة الطبيعة . وهكذا انحرف علم الفلك نحو التنجيم ، كما دعت الى ذلك السوابق البابلية . وهكذا انحرف الطب نحو المعجزة والسحر ، فتحطمت الانطلاقة العلمية الصحيحة وحلت محلها في غالب الأحيان شعوذة رخيصة هي أبعد من ان تبقي على النفوذ الذي تمتع به كبار الاسكندرانيين في القرن الثالث وان تنقله الى خلفائهم .

#### ٤ - المدارس الفلسفية والألوان الأدبية

العلم اليوناني الفلسفة منذ نشأته . ولكن الفلسفة نزعت ، بفعل التقدم الذي  
 الفلسفة  
 أحرزته ، الى ان يكون لها قوام مستقل . ولذلك تراخت الصلة بينها دون ان تنفصم :  
 ولم تلعب مدرسة ارسطو دور الحافز الا في البداية ولبعض العلوم أو بالأحرى لبعض الاساليب العلمية فقط .

بقيت أثينا المركز الرئيسي للنشاط الفلسفي . ففيها قامت الاكاديمية الافلاطونية والكلية المشائية المرتبطة بارسطو ، متمشيتين على نظام جمهوري تنتخبان بموجبه ممثلين . وفيها أيضاً القي الفينيقي القبرصي زينون دروسه في «الاغورا» تحت «الرواق» (Stoa) الذي كان في الاساس من اطلاق اسم «الرواقية» (Stoicism) على تعاليمه وتبعة مذهبه ، وفيها ايضاً جمع الاثيني ابيقور تلاميذه في الحديقة التي ما زالت اسماً لمدرسته . أجل لا نستطيع الكلام عن احتكار أثيني ؛ فكان لكل من هذه الجماعات فروعها في الخارج ، كما ان جماعات اخرى لم تتخذ من أثينا مركزاً رئيسياً لها . ولكن الفلاسفة وتلاميذهم ، مع ذلك ، لم يكتفوا في أي مكان آخر اكثر عدداً منهم في أثينا . ولم يحظوا في أي مكان بالاكرام الذي حظوا به فيها . فقد عين احد الملوك

الاطالين ، في السنة ١٥٩ ، أمين دار الكتب في برغاموس ، كراتيس المالي ، سفيراً له في روما ، وهو مشهور بسعة علمه فوق شهرته برواقيته ، ويعتبره سترابون واحداً من اثنين - الثاني هو ارسطارخوس - حلّقاً في علم الصرف والنحو . ولكن الأثينيين عينوا ، في السنة ١٥٥ ، رؤساء المدارس الفاسفية الهامة ، للدفاع عن قضيتهم امام مجلس الشيوخ الروماني ، على الرغم من انهم ثلاثة اجانب : كرنياذ الكيريبي من الاكاديمية ، وكريتولاوس الفاسيلي من الكلية ، وديوجين البابلي من المدرسة الرواقية . وهكذا فقد غدت أثينا ، دون ان تقدم الدولة مساعدات مالية للأساتذة ، مركزاً لمعهد فلسفة لا يضاهيه مركز آخر حتى آخر العصور القديمة .

ولمّا المقصود هو التعليم لا الخلق والابتكار . ومما يثبت سنى التعليم وشهرته انه كثيراً ما يشبه المحاضرات حيث تلعب النصائح البيانية دورها ؛ اما الفلاسفة الذين يختارهم الاثينيون سفراء لهم في الخارج فقد كانوا في الحقيقة ، من هذا القبيل ، من المرتبة الاولى . ولكن النظريات الفلسفية ، بعد الازدهار الذي عرفته في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الثالث ، فقدت الكثير من اخصائها . ولم يبق سوى الحرارة الاولى التي استطاع العهد الهليني بفضلها تنمية التراث الذي استلمته من العهد الكلاسيكي .

وبديهي انه نمّاه بتحويله إياه ، وليس عجباً ان نرى ، في النزعات العامة لهذه الحركة ، انعكاس الظروف الجديدة . وبلغ من بعض المدارس ، كالمدرسة الكلية ( الوقحة ) ، والمدرسة الرواقية ، مراوغةً ، ان نادت « بالعالمية » مبنية المضادة بين « العالم » و « المدينة » ومستخلصة بذلك نتيجة توسع الاطارات السياسية . وقد قادتها وفرة وخلوص الاتصالات بين الشعوب وبين الحضارات - فان اكثر من فيلسوف كان شرقي المنشأ على الرغم من اعتماد اللغة اليونانية - الى ان تكتشف مبدئياً أخوة البشر دونما تمييز عنصري او قانوني : غير ان المبدأ لم يطبّق قط عملياً . ولكن ما يلفت الانظار حقاً هو ان علم المعقولات قد بدا أقل استهواء في تلك الأيام المضطربة التي ضلّ فيها الانسان طريقه . فان ما حاولوا تحديده بنوع خاص هو المثل الأعلى للانسان الحكيم ، سرّ السعادة الحقيقية ، في علم أخلاقي وعملي أقرب الى آراء السفسطيين وسقراط منه الى آراء افلاطون وارسطو .

لم تترك الاكاديمية والكلية أثراً يذكر في هذا العهد . اجل لقد تهافت عليها طلاب كثيرون ؛ وكان دور الكلية كبيراً في نشأة ونمو العلم الواسع ؛ ولكنها كلتيهما حصرتا نشاطهما في تدريس وتفسير تعاليم مؤسسيهما . وبرز الاهتمام الحقيقي في غير مكان .

استمرت المدرسة الكلية بعد ديوجين ، وأضاف عبدان سابقان ، « بيون » البورستيني وميديوس السوري ، الى وعظهما ، كمتسولين تائمين ، نفوذ مؤلفاتها التي لم تراع سخريتها السامة لا الآدميين ولا الآلهة : فغدت « مقارعات » ( *Diatribes* ) الاول واهاجي ( *Sutires* ) الثاني في الاساس من لون أدبي عرف الكثير من الاتباع في العالم اليوناني ، وفي روما بعد ذلك .

ولكن وراء هذه الظواهر الخارجية التي تتعارض تعارضاً عنيفاً وكافة المصطلحات ، ووراء هذا التظاهر بالوقاحة التي بلغت حدّ التعثير المقصود ، أخفى اولئك الذين لم ينحدروا الى الشعوذة ، مثلاً أعلى نبيلًا جدًّا للحكمة والتصميم على الجهد ، يرمز اليه هيراكليس ، للتحرر من الأهواء ومما ليس هو بجوهر الطبيعة البشرية .

وشرعت المدرسة الارتيسابية ايضاً ، مع بيرون الذي تتبع الاسكندر في حملته على آسما ، في الحث على دستور حياتي . فشددت ، في الأغضاء والخضوع للعادات ، على اتزان الروح ، والصراع التحريري ضدّ الاشياء ، وعدم الاضطراب ، وهناءة الحياة . ولكن هذا الدستور قد ارتكز الى حقيقة فاز بها المنطق ففدت مذهباً ، وأعلن الارتيبايون ان الحكم يخطئ كما تخطئ الحواس . لذلك يجدر ارجاء الحكم والاعتصام بالصوت امام منازعات الفلاسفة الذين جعلهم « تيمون » ضحكة للناس باستهزائه برواد المتحف الاسكندري وبحروب العقائديين الكلامية . ويبدو ان هذا الانتقاد اللاذع كان له أثره في الاكاديمية ؛ ومهما يكن من الامر ، فانه قد خدم التقدم العلمي بإيلاء الوقائع اهمية دونها اهمية النظريات وبالحث على ملاحظتها بتواضع .

بيد ان مذهبين جديدين تفوقا الى حد بعيد على كافة المذاهب الاخرى بامتداد واتساع ومدّة أثرهما في أوساط اجتماعية متنوعة ، حتى خارج الأوساط الفكرية .

كان ابيقور ، شاعره الشخصي ، وبالمثل البطولي الذي أعطاه في آلام المرض ، في نظر تلاميذه ، المعلم الذي لم ينقطعوا ، في العالم اليوناني وروما ، عن ترداد وتفسير حكمه والتأمل فيها . واذا هو كوّن رأياً في العالم وعلم الطبيعة ، فانه لم يفعل ذلك ، في ما يظهر ، إلا لتحرير الانسان من خوفه الوهمي من الآلهة . انه لم ينكر وجودهم بل دورهم في الأمور التي تهّم الانسان ، وجعلهم يعيشون في بطالة دائمة ابعدت صفة ما فوق الطبيعة . واناظ كل شيء بالمصادفة واعتبر الاجساد والأرواح مجرد كتل ذرات . وقد تبنى ابيقور بذلك معظم نظرية ديموكريت الابديري . أما ما أدخله عليها بنوع خاص فهو حركة عامة للذرات من فوق الى تحت تفرضها الجاذبية وتنوعها انحرافات طفيفة جداً عن خط الهبوط العمودي ووثوب الذرات بعد مسّها الكتل المتكوّنة . ويستأزم الموت في نظره انحلال الكتل : فليس بالتالي من حياة ثانية ويجب ان يزول الرعب الذي توحيه كما يجب أن يزول الرعب الذي يوحيه الآلهة .

فليس بعد ذلك ما يعترض سلوك حياة تصبح اللذة هدفها الطبيعي . ولكن مقياس اللذة الحقيقية هو عدم الشهوة والألم . فقد أعلن ابيقور : « لسنا نستهدف لذات الفساق ، لاولا اللذات التي يوفرها الاستمتاع » . ولذلك فان ثالي ابيقور ، من امثال هوراس الذي أسمى نفسه « خنزير » قطيعه ، قد تنكروا دونما خجل لكل تعليم أخلاقي لا يوصي حتى بالافراط في اللذات . أما الحكيم فكان عليه أن يعيش « مستراً » ، دون طموح ، مُرضياً شهواته الطبيعية والضرورية معاً بأبسط شكل اذ أن الحزن الأسود والماء يكفيان لذلك ، ومكّدساً الحواس الطبية المعدّة

لأن تستجبل ، في الذكرى ، « لذة مستقرة » لا تستدعي ، على نقيض « اللذة العارة » ، تجدد السهوه ، ومن شأنها وحدها القضاء على الألم . وكانت تعاليم المعلم وأمثاله ، لهذه الغاية ، وافرة جداً ، تؤلف ارشادات عملية هي في مجموعها نظام دقيق جداً : وكان من شأن تطبيق هذا النظام أن يوفر ، في نهاية الأحداث المحببة ، ملاذاً ثيباً وأمناً في خضم الاضطرابات التي تهز مسائر البشرية .

أما الرواقية فقد انكرت المصادفة التي لم ترد ان ترى فيها سوى ما لا يمكن تفسيره . وقد نظرت الى العالم كما الى كل ينظمه ويجرّكه عقل إلهي ، منطلقة ، كما فكر بذلك هيراكليت من قبل ، من النار الأولية . وكان الانسان نفسه في نظرها ، عالماً صغيراً منسجماً مع الكون ، مركباً من جسد تغلّت فيه روح هي نفثة نارية متجملة بالذكاء . فتطابق تأليه الكائنات هذا والتفاؤل المطلق إذ أن كل شيء فيه يناسب تسلسلاً عقلياً . ولكن القدرية على نقيض ذلك ، لم تتناف وعلم الأخلاق ، إذ أن واجب الفرد قائم في أن « يعيش وفاقاً للطبيعة » أي بحسب نظام العالم بالذات ، حتى يتوق الى الكمال . ويؤمن الانسان السعادة ، بموجب تعاليمها ، باحتقار كافة الحيرات وكافة الآلام وكافة المشاعر ، أي بالخضوع الى العقل الذي يتيح له ممارسة الفضيلة : وان هو فعل ذلك ، فانه يكون غنياً في فقره ، وحرراً في عبوديته ، وسعيداً على الرغم من المرض والتعذيب وحتى الموت .

اقتصى في الواقع تحسین هذا المثال الالزامي المتشامخ ، بالمزيد من البراهين اللبقة . فقد أقروا بأن هنالك بعض الحيرات ، في المنطقة المتوسطة بين الرذيلة والفضيلة ، كالصحة والقوة والجمال والفرح ، ليست خلقية بالاحتقار . ثم ان الرواقية ، على نقيض الابيقورية ، لم توص باللامبالاة حيال الشؤون السياسية : فان نظام العالم قد حال دون ذلك ، كما أنها قد حثت على الجسد والنشاط باسم العقل والواجب . فاستطاعت بذلك اجتذاب التبعة والابقاء عليهم ، وقد بذل بعضهم جهداً كبيراً وبرهنوا أحياناً عن نبل نادر كي يكونوا أهلاً لمعتقداتهم . وعلى نقيض الابيقورية أيضاً ، لم تنزو الرواقية في عقيدة ضيقة تحددها تعاليم مؤسسها زينون . فبعد هذا الأخير استحق شرقي آخر هو كريسبوس الكيليكي لقب « المؤسس الثاني للرواق » ؛ ونستطيع الكلام في القرن الثاني ، مع « باناييتيوس » الرودي ، عن الرواقية « الوسطى » كما يصح بعد ذلك الكلام عن الرواقية « الحديثة » . ومنذ العهد الهليني ، قبل كاتون الاوتيكي ، خصم قيصر ، كان هنالك رواقيون جمهوريون نشيطون ، بينما كان هنالك أيضاً ، قبل الامبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس بزمين بعيد ، ملك واحد على الأقل موسوم الى حد بعيد بالتعليم الرواقي ، هو المقدوني انتيغونس غوناس . وهكذا استطاع الرواق أن يترك أثراً كبيراً جداً بفضل رغبته في العمل بين الناس وبفضل مرونته في التفسير : ويحتل تبشيره بالجهد العقلي الطوعي الناصب مركزاً هاماً في التراث الذي تركته لنا العصور القديمة .

لعل الحركة الفكرية تكشف حينذاك عن انها أقل ما تكون انتاجاً مفيداً في حقل الأدب . أجل كان الأدب في الحقيقة مخصباً ومتنوعاً وبديعاً . ولا ريب أيضاً في اننا لا نعرف جيداً مؤلفات هذا العهد التي فقد اليوم معظمها على الرغم من بعث بعضها بفضل دراسة البرديات التي كان لها شأنها الكبير في اشهار كتيباخوس وهيرونداس وميناندروس . ولكننا نراعى النزعات العامة مع ذلك ، واذا نحن لم نستطع انكار الأثر الذي كان للحضارة الهلينية ، في الحقل الأدبي وجميع الحقول الأخرى ، على الحضارة الرومانية في آخر عهد الجمهورية وأوائل عهد الامبراطورية ، فانه يبدو لنا ان هذا الأثر قد افترق الى الاستمرار والإعراق . ولا تشابه البتة بينه وبين الأثر الذي تركته الفنون والفلسفة . ولا تشابه أيضاً بينه وبين اصالة وأهمية تقدم الروح العلمية وانتصاراتها .

صمم الادب الهليني في الحقيقة على أن يكون جديداً ، وقد حدث ان توفى الى ذلك . وقد حاول ذلك في جميع الاتجاهات مبحثاً عن الجدة في النوع والوزن والعاطفة والطابع . ولعل عيبه بالضبط ان الافراط قد سيطر على صيغته وتصنعه ورقته . فـ حيث انه اقصى ، بفعل الظروف الجديدة للحياة السياسية والاجتماعية ، عن الجماهير الشعبية ، فقد اتجه الى جمهور مفرط في الرقة أحياناً ، لا سيما في بطانة الملوك . ثم ان العلم الواسع والتأني في الكلام وقفاله بالمرصاد فلم يقو على الدفاع عن نفسه ضدّهما .

ويبدو الانحطاط ، على كل حال ، أحلى وضوحاً في النثر منه في الشعر .  
قد نجد بنا ان نستذكر هنا بعض المؤلفين الذين سبقت الإشارة اليهم . ولعل أعظمهم شهرة من الناحية الادبية — إذ انه الوحيد ، في الواقع ، الذي بلغت مؤلفاته ، التي عرفت الحياة ، شهرة حقيقية — هو بوليب . ولكن مرد شهرته الى المعنى لا الى المبنى الذي تثقله الصيغ والمفردات المجردة في ما صحت تسميته بـ « الرطانة السياسية » ، رطانة دواوين ومراسم ذاك العهد . اما اللغويون وذوو العلم الواسع والعلماء والفلاسفة فليسوا أهلاً باستيقافنا . فالصفات الادبية ما كانت لتضر بمؤلفاتهم . ولكن ان هي لم تتحلّ بها ، فان صفاتها التقنية تجيز لنا ان لا نغالي في اتهامهم بالتقصير .

عانت الفصاحة سكرات الموت ، لمصلحة علم البيان الذي أقصر على الصيغ النظرية ، المطبقة بتصنع على المواضيع الوهمية ، ما كان في الاصل أبحاث واكتشافات فنّ في خدمة المعتقدات الراسخة . أضف الى ذلك زوال ذلك الميل الى وضوح نافذ قارب الجفاف ببساطته الذي كان في الاساس من أهمية ليزياس ، وتلك الجملة الطويلة المتناسقة التي اشتهر بها ايزقراط او تلك القوة الثابتة التي اتصف بها ديموستينس . هذا كان الثمن المحتم لتعميم ثقافة متوسطة وزعها التعليم دون ان يجزها بما يلزمها ضد النتائج اللامعة الصنع على التأثير والافتتان . ومنذ منتصف القرن الثالث بررت الفصاحة المعروفة بالـ « آسيوية » ، المفخمة تارة والمفصلة أخرى ، والمتكلفة

والموزونة ابداً . وعادت فيما بعد ، في عهد الامبراطورية ، الى تقليد كبار الكلاسيكيين . ولكنها أثارت اعجاب الرومان . فان هؤلاء ، حين كانوا يقصدون أثينا او رودس لتلقي دروس تفتقر الى الذوق السليم ، كان عليهم في أواخر العهد الجمهوري ، في روما ، ان يعالجوا مواضيع سياسية وقضائية حقيقية . ولم يتوفر هذا الحظ لأساتذتهم الذين لم يكن فيضهم ليستطيع الازدهار إلا على ما وصفه احد معاصري اوغسطس ، دينيز الهاليكارناسي بال « غباوات » .

مارس بعض المؤلفين نوعاً قريباً من القصة ، وربما شجعهم على ذلك النجاح المستمر الذي عرفته بعض مؤلفات كسينوفون ، لاسيما « كيروبيديا » . فليس بعيداً عن القصة مثلاً كتاب « افيروس » الذي تخيل فيه بلاداً اسطورية استمرت فيها ذكرى حياة الآلهة اليونانيين البشرية والملكية . وليست بعيدة عن القصة أيضاً تلك « العجائب الخارقة » التي تنقل القسارىء الى بلاد تجمد الكلمات فيها شتاء ، او « الشماليات » ، او « المصريات » ، وكلها مؤلفات مجهولة لمؤلفين من الصف الثاني تكفي أسماؤها للدلالة على نزعتها . وهي ، من حيث فقدان عقدة القصة فيها ، قد حيرت القارئ بادخال الخيال على الواقع ؛ وساومت على عيائه من حياته اليومية ومن رغبته في الانفلات . فشقت الطريق بذلك أمام القصة الحقيقية التي لم تظهر إلا بعد زمن . ومنذ القرن الأول أقدم شاعر لم تصلنا قصائده ، هو بارثانيوس الذي اقتيد أسيراً الى روما ، على تأليف « آلام الحب » ، وهي مجموعة ثرية من ٣٦ قصة نقلها عن مؤلفين مختلفين . وقد قصد من وراء ذلك تقديم مواضيع رثائية لشاعر روماني نعم هو بحمايته . ولم يكن هذا الشاعر الروماني اوفيد بالذات : واذا حقق هذا الاخير هدفاً مماثلاً ، فان ذلك لدليل على النجاح الذي احرزه المثال الأدبي الهليني لدى المؤلفين اللاتين . ثم ان معظم هذه القصص قد حلت عقدها حللاً مسرحياً ، وان هذه المجموعة ، التي احتل فيها العشق مركزاً كبيراً ، خلقة بأن تعتبر تمهيداً للون الحكاية . اجل انها في الحقيقة تبشير مترددة وركيكة أدبياً ؛ ولكن الأدباء الذين تعرضوا لها لم تعوزهم الرغبة في التجديد ، لا ولا الاحساس الثاقب بكل ما من شأنه ان يرضي جمهوراً كبيراً .

أما الشعر فيبدو أفضل تمثيلاً .

الشعر

ليس من الأهمية بكان في الحقيقة ذلك اللون الشعري الجديد ، او المجدد بالاحرى — إذ ان العهد القديم قد اعتمد له علم الاخلاق ولاهوت المرتبط بالعلم حينذاك — والمتلائم مع أوساط فكرية توسع الروح العلمية فيها نطاقه الى أبعد حد ، اعني به الشعر التعليمي المخصص لعرض المعارف العلمية . فظهرت قصائد من هذا اللون في مواضيع الزراعة — ودعيت « الجيورجية » ( الفلاحية ) — والطب والنباتات المعدة لتحضير العقاقير والثعابين السامة . الخ ... ولكن مؤلفاً واحداً ، بين هذه المؤلفات جميعها ، قد عرف شهرة عظيمة وأثار حماس أجيال كثيرة حق في روما نفسها ، اعني به ذاك الذي خلّقه اراتوس الكيليكي السولي المنشأ . فلم يسانا من

هذا اللغوي الذي نشر مؤلفات هوميروس وعلق عليها ، ومن هذا الرواقي المقرب الى الملوك الذين تباروا في محاولة اجتذابه دون جدوى رابقائه في بلاطاتهم ، سوى قصيدتين فحسب : الاولى في علم الحوادث الجوية ، والثانية ، وهي الأشهر ، وهو مدين لها بمجده ، اعني بها « الظواهر » التي تصف النظام السابوي مفسرة إياه وفقاً لنظريات افدوكسوس الفلكية التي كان قد فات زمانها حين تم وضعها في النصف الاول من القرن الثالث . اما النظم فيتصف بالمهارة وحتى بالظرف ، وتستوقف القارئ احياناً بعض الاستطرادات الخرافية والفلكية او البحرية . ولكن هذا الانتباه لا يلبث ان ينهكه العياء في كافة المقاطع الاخرى التي يتعاقب فيها هذا القدر من الابراج دون ان يبرز مرة واحدة ، لدى المؤلف ، أقل تأثير شعري عميق يجيش به مثل هذا الموضوع حق للعالم . وان الاعجاب الاجماعي الذي أثاره هذا المؤلف العبوس الجاف ، حتى في أوائل القرون الميلادية ، لسرّ مغلق لا يمكننا إدراكه .

نرى الجهد والمعارف الجديدة ، الاسطورية او الشاملة ، في مؤلفات شعراء آخرين لم ينضب الهامهم بسبب ذلك . وهؤلاء هم شعراء البلاط او الندوة . تغذوا بالنظريات الجالية والمطالعات المختلفة ، فأحيوا الكناية التي بالغوا فيها ، حتى الغموض احياناً ، رغبة منهم في جعل القراء يشعرون بلذة ادراك معناها . اما ممثلم الهزلي ، على هذا الصعيد ، فهو ليكوفرون - ولكن أي ليكوفرون ؟ ومتى ألّف ؟ أفي أوائل القرن الثالث ام في اوائل القرن الثاني ؟ - الذي وفر كتابه « الكسندرا » ، وهو مجموعة نبوءات اسندها الى « كساندر » الطروادية ، للمفسرين القدماء ولعدد اكبر من المفسرين المعاصرين ، سلسلة من الأحاجي المستبعدة . ولكن الإيجاز يفعل فعله ، عند افضلهم ، كما ان خلوص ظرفهم ورقة ابتكارهم لا يبقيان دوننا تأثير .

ان اطرفهم دون منازع هو كلياخوس الذي حدّد له اللاجيون معاشاً ، وهو فيلسوف كبير وشاعر بلاط ماهر ، في تملق الملكة ارسينوي وأخيها الذي هو زوجها ، بطليموس فيلدلفوس ، وفي التغني بـ « شعر بيرينيس » ، ولكنه الى ذلك مؤلف أناشيد ومرثي وملاحم صغيرة وأهاج ولواذع . كان شغفاً بالأساطير والحوادث المجهولة ، يبذل الجهد في اكتشافها في الأدب القديم وتقاليد المحلية ، ويصل بينها وبين نشأة مدينة او عائلة او احتفال غريب . فقد درج على القول : « لا أسلك طريقاً تسير عليها الجماهير ، ولا اشرب من ينبوع عمومي ، فكل ما هو عمومي تقز منه نفسي » . ولكن هذا الباحث عن الغرائب كان عالماً بأصول الوزن وماهرأ في إيجاد التعبير النادر ومتمتعاً بحذاقة خارقة . اجل يجوز ان نأخذ عليه عدم تلقائيته لأن ابتكاراته على كثير من الأرابة والتضع ؛ ولكنه يثير الاعجاب ابدأ ببروته ويحدث ، في افضل ما سلم من مؤلفاته ، الأناشيد الموجهة الى بعض الآلهة على الطريقة الهوميروسية ، ان يعبر عن عاطفة دينية ليست بالعاطفة المتكلفة . واذا كان نفسه قصيراً ، فان في قصائده الصغيرة لطابعاً وسحرأ .

بعد قطيعة صاخبة ، وجه سيلاً من التهم الى احد تلاميذه ، ابولونيوس الذي أراد الانتساب

الى « رودس » ، على الرغم من ولادته في الاسكندرية ، امتثاناً منه لحسن الوفادة الذي صادفه في هذه المدينة حين اضطر لمغادرة البلاط اللاجي . اما سبب المأساة فهو بالضبط ملحمة « الارغونوط » التي بدت أبياتها الستة آلاف وكانها لا نهاية لها في نظر الاستاذ الذي تباهى بكرامته « للقوائد الطويلة طول الأنهار » . وقد روى ابولونيوس فيها مغامرات رحلة « جازون » ورفاقه ، على المركب « ارغو » ، الى بلاد « الكولخيد » ، بحثاً عن الجزء الذهبية . فاستخدم يجد أساليب الملحمة الهوميروسية وأدخل على روايته ، عند كل سائحة ، معطيات فلكية وجغرافية وطبية أو سحرية ، وعرض بتفاخر تقنية وعلماً في غير محلها . أما ما يشفع بالمؤلف ويسمه بطابع جديد ، يؤسفنا ان يكون كليماخوس تنكّر له ، فهو شخص « ميداي » ودقة التحليل السيكلولوجي التي امتاز باتقانها في وصف تكون الحب وصراعه واضطرامه وانتصاره النهائي في هذه النفس الفظة والحلية معاً .

أقام ثيوكرت السيراكوزي في الاسكندرية أيضاً – ولكن لمدة أقصر على كل حال ، لأنه عاش في كوس أيضاً – ، واذا هو امتدح بطليموس الثاني وبيرينيس ، فانه لم يهمل طلب حماية سيد وطنه ، هيرودن الثاني . لم يصلنا منه ، بالاضافة الى بعض الالهاجي ، سوى مجموعة من المختارات يبلغ عددها الثلاثين تقريباً تعرف باسم « قصائد زهرية » . ولا يعني هذا الاسم سوى « قصائد صغيرة » ، ويعود الفضل للنجاح الذي أحرزه بعضها في صفة « الراعية » التي أضيفت اليها فيما بعد . وانه لنجاح حلال في الحقيقة . أجل لم يخلق ثيوكرت لوناً جديداً بهذه القصائد ، واذا ما وجدنا القوة وطابع المأساة أحياناً ، فائثاً نلس ، أحياناً أخرى كثيرة ، بعض التفه لدى أبطال الريفيين الذين أرضوا بعض المفرطين في الرقة الشغفين بالحياة الريفية . ولكنه ، بالاضافة الى مهارته في نظم الشعر واتقانه اللهجات – الايونية والدورية والايولية – المتنوعة التي يظهر التصنع في استعمالها ، معجباً صادقاً بالطبيعة ، يحس بالعاطفة الدينية الشعرية التي تنبعث منها ، وقادراً على الشعور بعذوبتها وشهوانيتها وفضاظاتها وعلى إظهارها للقارىء بفن بالغ في الدقة . ومن الخطأ الاعتقاد بسذاجته . فان سحر الطبيعة التي يحن اليها في المدينة يؤثر فيه تأثيراً قوياً ينفذ الى اشعاره . ومن شأن التصنع الاصطلاحي الذي لم يتمكن مقلدوه الكثيرون التخلص منه ، ان يزيد ، بالمقابلة ، من حدة الاحساسات والعواطف التي لم تقض عليها أبحائه ككأديب نبه جداً .

بدلاً من تعداد أسماء أخرى لمؤلفين كثيرين ومؤلفات كثيرة أيضاً ، نرى الاقتصار ، بعد هؤلاء ، على لون يميز نجاحه وصنعة التقنيه وطبيعته نفسها الشعر الهليني المتوسط تمييزاً كافياً . سبق لكليماخوس وثيوكرت ان ألفوا أهاجي قصيرة ، فحذا حذوما كثيرون . واشتقت هذه القطع الشعرية من الكتابات القياسية التي دُرِجَ على حفرها منذ زمن بعيد على المدافن أو النذور واستوجبت مهارة كبرى للتعبير عن عاطفة لها قيمتها في أشعار معدودة وللبقاء على بدايتها .

ولم يكن الحذاق قليلي العدد ، لا ولا القراء المستعدون لتقدير نجاحاتهم حق قدرها . لذلك ظهر من هذه القطع عدد لا يحصى في جميع المواضيع : الغرامية ، والنذرية ، والمدفنية ، والاخلاقية ، والجدلية ، الخ. وظهرت حتى القطع الوصفية المكرسة لأحقر واقع أحياناً ، واقع المهن وادوات العمل مثلاً . وألفوا منها مجموعات مختارة ظهرت أولها باسم «التاج» ، في أواخر القرن الثاني ، ثم خلفتها بعد ذلك بزمان بعيد ، في بيزنطية ، المختارات البلاطية . أجل ليست هذه المختارات بالمؤلف الكبير ، ويستحيل مطالعتها مطالعة متواصلة . ولكنه من المستطاب ، بفضلها ، استعادة ذكرى البيثة « الاسكندرية » مع رشاقتها في الكلام والوزن وبراعتها في الابتكار وثقافتها الواسعة وسحرها وروح نكتتها ورقتها الشهوانية أو الشفوقة .

المسرح والمهزلة الايمائية  
أظهر علم اللغات المكانة التي احتلها المسرح في الحضارة الكلاسيكية والروائع الشعرية التي تدن له بوجودها. فحاولوا استعادة نفَس ذلك العهد العظيم بمحاولة تأليف التمثيليات الفاجعة أو المآسي الانتقادية. وامتنع كلياً خوس قلمه فيها وأحرز سبعة مؤلفين غيره ، في نظر الاختصاصيين ، شهرة كافية لضمهم تحت اسم « الثريا » . اتقن هؤلاء جميعهم درس نماذج الزمن الماضي ؛ واكتشفوا مواضيع مهمة في الميثولوجيا السقي تفوقوا على كل من سواهم في فهمها أو في التاريخ البعيد - كان هنالك تيمستوكليس - والقريب ؛ ولم تعوز الارابة واحداً منهم . بيد ان واحداً منهم لم يتوصل الى ان يعيد الى المأساة حياتها وان يفرغ في قالبها إلهاماً مميّزاً . فما زالت تمثيليات أوريبيد تستأثر بالنجاح وقد أعادت تمثيلها في كل مكان الجمعيات « الديونيسية » في البناء الضخم التي حرصت كل مدينة على تشييده . ولنبذكر هنا ان « كاهنات باخوس » قد مثلت في السنة ٥٣ قبل المسيح في اراتاكسا ، عاصمة ارمينيا ، لمناسبة عرس ابن ملك الفارتيين وشقيقة الملك الأرمني ، بحضور الملكين : كان هذان « البربريان » المعجبان بالحضارة الهلينية يلجآن اذن الى اوريبيد والى الممثلين اليونانيين لاعلاء شأن الاعياد السلالية . فهل من برهان أفضل على انتشار الحضارة اليونانية وعلى جاذب المأساة التي هي أكثر ابتكاراتها تميزاً وعلى التوافق بين اوريبيد والأجيال اللاحقة الذي استمر طيلة قرون وقرون .

أما المهزلة ، كما تصورها ارسطوفانوس ومعاصروه ، فأبعد من ان يمكن إعادة تمثيلها : فمن حيث هي انتقاد ملؤه التلميح الى الحوادث التي عاصرت التأليف ، يستحيل فهمها دون تفسير مستفيض . أضف الى ذلك ان لون المهزلة نفسه لم يكن لينسجم مع ذلك العهد . فان عنفها الجدالي وهواها الجامح يتنافيان والطف الجديد الذي تحلى به مجتمع هذب ذوقه تقدم الثقافة واليسار . وكذلك فان « المهزلة القديمة » تفرض ديموقراطية تعي سيادتها وتتحلى بقسط من التساهل ترضى معه بان يُسخر من مناقشاتنا وبأن يوجه الانتقاد اللاذع حتى الى زعمائها : فقد زالت الآن هذه الظروف السياسية . فأصبح من الواجب ان تتطور المهزلة حتى تعرف البقاء ، وهي قد توفقت الى ذلك ، منذ أواخر القرن الرابع ، مع ميناندروس الاثيني الذي نعرفه اليوم

معرفة مباشرة بنبذ وافرة وصلت الينا عن طريق البرديات وأخرى بلغتنا عن طريق الهزليين اللاتين، لا سيما « بلوت » .

تفسر شخصية ميناندروس نفسها أكثر من نزعة في مؤلفاته . فان الثروة التي أتاحت له ، في البيرة ، الاستمتاع بحياة بهجة ، دون الاضطرار للنزول عند اغراءات بطليموس الثاني ، ليست بغريبة عن تفاؤله المتساهل . بيد ان تفاؤله هذا لم يخل من البصيرة : فقد كان على شيء من السخرية وحتى السويداء أحياناً . ولكن جميع شعراء « المهزلة الحديثة » أحسنوا في الدرجة الاولى مراقبة وتصوير الحياة التي اكتنفتهم . فهل كانت عقد مهازلم نفسها حقيقية؟ يجب علينا كي نعطي حكننا في ذلك ، ان لا ننسى ان اهل الاولاد ما زال حينذاك عادة سائدة وارت المؤلف والجمهور لم يهتموا ، بصدد الخاتمة ، إلا لأن تكون ناجحة فحسب . وكان من الواجب ان تراعي الخاتمة الناحية الاخلاقية ايضاً لأن حياة غريباً فرض بعض المصطلحات : فليس من « حب يوناني » مثلاً ، على الرغم من أن الحب ، في غير مكان ، كان موضوعاً أدبياً كما يتضح من قصائد ثيوكرت الراعوية ؛ وليس من زنى نسائي ايضاً ، واذا حدث أن سقطت احدى الفتيات في زلة ، يجب ان تسوّى الأمور في النهاية بالنهي هي أحسن . ولكن درس الطبائع والأمثلة الاجتماعية كان أهم من العقدة وطفورها الصنعي . فاقتبس ميناندروس طبائعه وأمثله عمن هم حواليه ، الاغنياء والفقراء ، الاسياد والعبيد ، الشيوخ والشبان ، والبغايا والأمهات . ومن السهل علينا ان نهتدي حتى في مهزلة القرن الثامن عشر الى المزيد من وريثة الامثلة التي أوجدها : العاشق المتقلب ، المسرف والحريص ، مستثمر عيوب الغير ، المتحدثي ، الطفيلي ، العبد الوجمل والوقع . ولكن هذه الامثلة لم تكن عنده على شيء من التبسيط . فهو قد اهتم بها بعطف انساني ولون سيكولوجيتها بدقة وألف منها معرضاً بلغ من تنوعه وأمانته أن أحد المفسرين القدامى قد تساءل عما اذا كان هو الذي قلّد الحياة او الحياة هي التي قلّدت .

مارست صقليا وايطاليا اليونانية منذ زمن بعيد لونا مسرحياً آخر يختلف كل الاختلاف ، مشاهده قصيرة ، يقلّد المأساة أحياناً ، لا ينطوي على عقدة ، يتصف بالفظاظة العنيفة وبالقدارة أحياناً . ومنذ القرن الخامس اقتبس بعضهم أشخاصهم عن الطبقات الشعبية الدنيا رغبة منهم في الاقتراب أكثر فاكثروا من المشاهدين . فنشأ عن هذه المهازل المضحكة فيما بعد لون أدبي جديد ، هو « المهزلة الإيمائية » التي وضعت نثراً في البداية وشعراً فيما بعد . فهناك ثلاث مهازل إيمائية بين « راعويات » ثيوكرت ، وأتاحت لنا البرديات بنوع خاص الوقوف على اثنتي عشرة منها لهيرونداس الذي يضيف اسمه سنى الموهبة الشعرية الى الشهرة الطبية التي يتمتع بها وطنه ، جزيرة كوس ، مركز مدرسة ابقراط .

اعتمد هيرونداس شعراً « ذا وتد مجموع أعرج » اعتمده من قبل أحد هجائي القرن الرابع . ولكنه لم يعبأ بالاخلاقيات ، جاعلاً من الواقعية شغله الشاغل . فان أشخاص مهازله الصغيرة

الذين لا يتجاوز عددهم الاربعة ينتمون الى الطبقة الحفيرة في حياتها اليومية : الام التي تطلب الى معلم المدرسة ان يصرب ابنها الشقي ، وزبن الاسكاف ، و « السمسارة » التي تصرفها امرأة شريفة بدون غضب لا يجدي ، وغير ذلك مما هو أقبح . كلها تمثيلات صغيرة تفيض كلاماً مبتذلاً وقريحة وثرثرة وقد هس بمهارة الوصف . نرى فيها الحياة الشعبية البورجوازية كما هي في أيامنا قريبا . فهل كانت هذه المهازل معدة للتمثيل ؟ نحن نميل الى الاعتقاد بأنها أعدت للقراءة المسلية القمينة وحدها باكتشاف وتذوق النوايا الخفية التي ترخر بها ألهي كاتب أثر على اللوحة الكبيرة لوحة صغيرة يستطيع اتقان كل جزء من أجزائها .

## الخلاصة

من نافل القول ان هذه الخلاصة ليست كاملة . ولكن الغموض الذي أملاه  
 علينا جهلنا أو ضرورات عرض الموضوع لم يستطع إخفاء طفوح ثروة الحركة  
 الفكرية الهللية . وقد حالت ثروتها في نفسها دون وحدتها . ويجب  
 الاعتراف بأن التناقضات قد جرأتها . فهي قد أعجبت بروائع وحتى بمحاولات القرون  
 الكلاسيكية التي حذت حذوها عن قصد ووفقاً لحطة مرسومة ، دون ان تتنكر لشيء من  
 الماضي ؛ ولكنها عن قصد أيضاً انحرفت عنها بدافع بعض النزعات الجديدة . ومن حيث انها  
 نعمت مادياً وأدبياً بحماية وتشجيع النخبة ، فقد توجب عليها ارضاؤها بأفراط لم يكن مجرد  
 إثرة ؛ ولكنها ارتكزت أيضاً الى شيء آخر هو أهم الى حد بعيد لأنه عملياً مركّز كل النظام  
 الهللي : ثقافة واسعة متوسطة كان عليها ان تدافع عنها وان تنشرها . وانتهت في القمة الى  
 ندوات من هواة دقة الفكر وحدة التصوّر ، ولكنها لم تستطع إهمال الدرجات الدنيا من الهرم  
 الاجتماعي ، - لأنها انتهلت منها في كل جيل قوى جديدة - تلك الطبقات البشرية المتزايدة عدداً  
 وانشاراً جغرافياً يوماً بعد يوم والمتمتعة باستعدادات وقابليات فكرية متنوعة جداً ، منذ  
 التعليم الابتدائي تقريباً حتى مشارف أسمى المعارف وحتى تجارب ونشاط الواقفين على أسرار  
 الفنون . فكان عليها بالتالي واجبات متشعبة : المحافظة ، والبحث عما هو جديد ، والتعميم في  
 أفضل معانيه .

بيد ان اختلاف هذه المهام وتناقضها الظاهر على الأقل لم يشلّ عملها : فهي قد حاولت في كل  
 مكان ونجحت في أكثر من حقل . فكيف نستطيع التنسيق بين قيم لا تخضع في جوهرها للقياس ؟  
 ولكننا بالرجوع الى الوراء نرى ان أبعد نجاحاتها تأثيراً وفعالية وشهرة لعله في الحقيقة نجاحها  
 في حقل التربية : فكل شيء في هذا الموضوع تقريباً ، باستثناء بعض المراكز المحظية ، كان

بحاجة لأن يخلق خلقاً . وعلى الرغم من صعوبات الارتجال ، أعدت ووفرت الاطارات التربوية لجميع درجات التعليم ؛ فاستطاعت من ثم ، بفضل تعليم الموهوبين ، تأمين من يحل محل باعثيها أنفسهم . وبفضلها حافظ الاغريق أينما وجدوا ، وعلى مستوى كريم عموماً ورفيع جداً هنا وهناك ، على الثقافة التي كانت في الأساس من وحدتهم وعزهم . أضف الى ذلك ان هذه الثقافة قد استألت عناصر بشرية جديدة : ومنذ عهد باكر أناب بعض البلديين المستغرقين من آسيا الصغرى وسوريا - فينيقيا عن اليونان القديمة . وبذلك استطاع رجال الفكر في العهد الهليني ، في آن واحد ، انقاذ ما أمكن انقاذه من الماضي وأنمو التراث الذي صار اليهم وحضروا المستقبل .

حضروا المستقبل في الشرق ، لأن الحضارة اليونانية ، التي استلمت بيزنطية إرثها فيما بعد ، لم يحافظ عليها إلا في الجزء المتوسطي من فتوحات الاسكندر . ولكنهم حضروه في الغرب أيضاً وبصورة أكثر جلاءً ، لأن العالم الهليني ، بسبب تفوق حضارته الفكرية والفنية معاً قد غدا مهذب روما .